



Digitized by Google

Digitized by Google

t.-p. after 4 p.

Digitized by Google

فهرس كتاب تفسير سورة الاخلاص لشيخ الاسلام ابن تيمية الحرانى

صحيفه

Digitized by Google



صحيفه

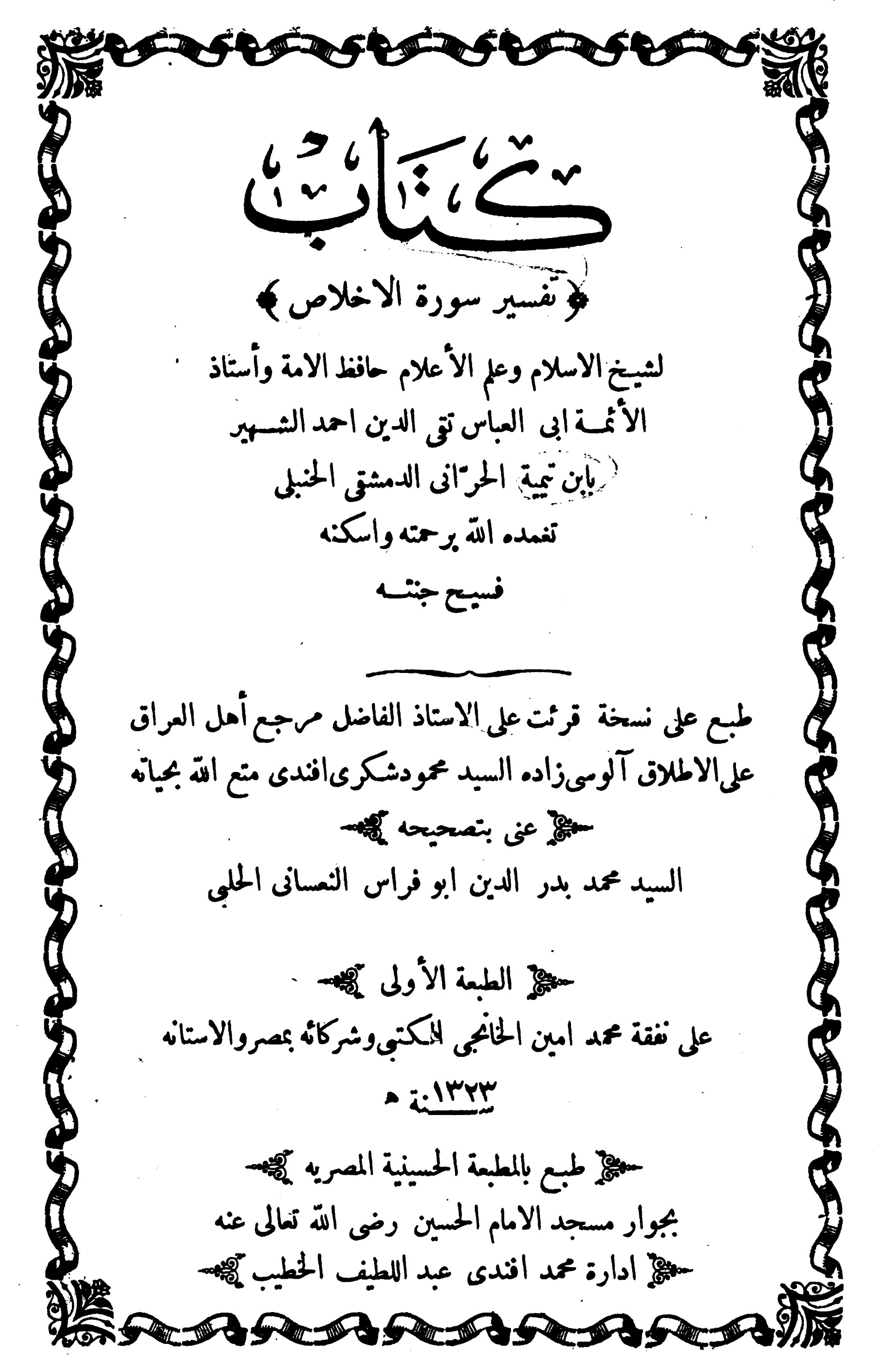
(RECAP) 2271
.491
.3845

Digitized by Google

(تمت)

Digitized by Google

Ibn Taymiyah



كتاب

تفسير سورة الاخلاص

لشيخ الاسلام وعلم الأعلام حافظ الامة وأستاذ
الأئمة ابى العباس تقى الدين احمد الشهير
بابن تيمية الحرانى الدمشقى الحنبلى
تغمده الله برحمته واسكنه
فسيح جنته

طبع على نسخة قرئت على الاستاذ الفاضل مرجع أهل العراق
على الاطلاق آلوسى زاده السيد محمود شكرى افندى متع الله بحياته

عنى بتصحيحه

السيد محمد بدر الدين ابو فراس النعسانى الحلبى

الطبعة الأولى

على نفقة محمد امين الخانجى الكتبي وشركائه بمصر والاستانه

سنة ١٣٢٣ هـ

طبع بالمطبعة الحسينية المصريه
بجوار مسجد الامام الحسين رضى الله تعالى عنه
ادارة محمد افندى عبد اللطيف الخطيب

Digitized by Google

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيآت أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له ونشهد أن لااله الا الله وحده لاشريك له ونشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم تسليما

﴿ فصل ﴾ في تفسير قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد والاسم الصمد فيه للسلف أقوال متعددة قد يظن أنها مختلفة وليست كذلك بل كلها صواب * والمشهور منها قولان أحدهما ان الصمد هو الذى لاجوف له والثانى انه السيد الذى يصمد اليه في الحوائج والاول هو قول أكثر السلف من الصحابة والتابعين وطائفة من أهل اللغة * والثانى قول طائفة من السلف والخلف وجمهور اللغويين والآثار المنقولة عن السلف بأسانيدها في كتب التفسير المسندة وفي كتب السنة وغير ذلك وقد كتبنا من الآثار في ذلك شيأ كثيرا باسناده فيما تقدم وتفسير الصمد بانه الذى لاجوف له معروف عن ابن مسعود موقوفا ومرفوعا وعن ابن عباس والحسن البصرى ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والضحاك والسدّى وقتادة وبمعنى ذلك قال سعيد بن المسيب قال هو الذى لاحشو له وكذلك قال ابن مسعود هو الذى ليست له أحشاء وكذلك قال الشعبي هو الذى لايأكل ولايشرب وعن محمد بن كعب القرظي وعكرمة هو الذى لايخرج منه شئ وعن ميسرة قال هو المصمت قال ابن قتيبة كأن الدال في هذا التفسير مبدلة من تاء والصمت من هذا * قلت لاابدال في هذا ولكن هذا من جهة الاشتقاق الاكبر وسنبين إن شاء الله وجه هذا القول من جهة الاشتقاق واللغة والحديث المأثور في سبب نزول هذه الآية رواه الامام أحمد في المسند وغيره من حديث أبى سعد الصغانى حدثنا أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبىّ بن كعب ان المشركين قالوا لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إنسب لنا ربك فأنزل الله قل هو الله أحد الله

Digitized by Google

الصمد الى آخر السورة * قال الصمد الذى لم يلد ولم يولد لانه ليس شئ يولد الا سيموت وليس شئ يموت الا سيورث وان الله لايموت ولا يورث * وأما تفسيره بانه السيد الذى يصمد اليه في الحوائج فهذا أيضا مروى عن ابن عباس موقوفا ومرفوعا فهو من تفسير الوالبي عن ابن عباس قال الصمد السيد الذى كمل في سؤدده وهذا مشهور عن أبى وائل شقيق بن سلمة قال هو السيد الذى انتهى سؤدده وعن أبى اسحق الكوفي عن عكرمة الصمد الذى ليس فوقه أحد ويروى هذا عن على وعن كعب الاحبار الذى لايكافئه من خلقه أحد وعن السدّى أيضا هو المقصود اليه في الرغائب المستغاث به عند المصائب وعن أبى هريرة رضى الله عنه هو المستغنى عن كل أحد المحتاج اليه كل أحد وعن سعيد بن جبير الكامل في جميع صفاته وأفعاله وعن الربيع الذى لاتعتريه الآفات وعن مقاتل بن حيان الذى لاعيب فيه وعن ابن كيسان هو الذى لايوصف بصفته أحد قال أبو بكر الانبارى لاخلاف بين أهل اللغة ان الصمد السيد الذى ليس فوقه أحد الذى يصمد اليه الناس في حوائجهم وأمورهم * وقال الزجاج هو الذى ينتهى اليه السؤدد فقد صمد له كل شئ أى قصد قصده وتأويل صمود كل شئ له ان في كل شئ أثر صنعته * قلت وقد أنشدوا في هذا بيتين مشهورين أحدهما

ألا بكر الناعى بخير بنى أسد   بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد

(وقال الآخر)

علوته بحسامى ثم قلت له   خذها حذيف فأنت السيد الصمد

قال بعض أهل اللغة الصمد هو السيد المقصود في الحوائج تقول العرب صمدت فلانا أصمده (بكسر الميم) وأصمده (بضم الميم) صمدا بسكون الميم اذا قصدته والمصمود صمد كالقبض بمعنى المقبوض والنقض بمعنى المنقوض ويقال بيت مصمود ومصمد اذا قصده الناس في حوائجهم قال طرفة

وان يلتق الحى الجميع تلاقنى   الى ذروة البيت الرفيع المصمد

وقال الجوهرى صمده يصمده صمدا اذا قصده والصمد السيد لانه يقصد في الحوائج ويقال بيت مصمد بالتشديد أى مقصود وقال الخطابى أصح الوجوه انه السيد الذى يصمد اليه في الحوائج لان الاشتقاق يشهد له فان أصل الصمد القصد يقال أصمد صمد فلان أي أقصد قصده فالصمد السيد الذي يصمد اليه في الامور ويقصد

Digitized by Google

في الحوائج وقال قتادة الصمد الباقى بعد خلقه وقال مجاهد ومعمر هو الدائم وقد
جعل الخطابى وأبو الفرج ابن الجوزى الاقوال فيه أربعة هذين واللذين تقدما
وسنبين ان شاء الله أن بقاءه ودوامه من تمام الصمدية وعن مرة الهمدانى هو الذى
لايبلى ولا يفنى وعنه أيضا قال هو الذى يحكم مايريد ويفعل مايشاء لامعقب لحكمه
ولا رادّ لقضائه * وقال ابن عطاء هو المتعالى عن الكون والفساد وعنه أيضا قال
الصمد الذى لم يتبين عليه أثر فيما أظهر يريد قوله وما مسنا من لغوب وقال الحسين
ابن الفضل هو الازلى بلا ابتداء وقال محمد بن على الحكيم الترمذى هو الاول بلا
عدد والباقى بلا أمد والقائم بلا عمد وقال أيضا الصمد الذى لاتدركه الابصار ولا
تحويه الافكار ولا تبلغه الاقطار وكل شئ عنده بمقدار وقيل هو الذى جل عن
شبه المصورين وقيل هو بمعنى نفى التجزى والتأليف عن ذاته وهذا قول كثير من
أهل الكلام وقيل هو الذى أيست العقول من الاطلاع على كيفيته وكذلك قيل
هو الذى لاتدرك حقيقة نعوته وصفاته فلا يتسع له اللسان ولا يشير اليه البنان وقيل
الذى لم يعط خلقه من معرفته الا الاسم والصفة وعن الجنيد قال الذى لم يجعل
لاعدائه سبيلا الى معرفته ونحن نذكر ماحضرنا من ألفاظ السلف بأسانيدها فروى
ابن أبى حاتم في تفسيره قال ثنا أبى ثنا محمد بن موسى بن نفيع الجرشى ثنا عبد
الله بن عيسى يعنى أبا خلف الخزاز ثنا داود بن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس في
قوله الصمد قال الصمد الذى يصمد اليه الناس الاشياء اذا نزل بهم كربة أو بلاء حدثنا
أبو زرعة ثنا محمد بن ثعلبة بن سواء السدوسى ثنا محمد بن سواء ثنا سعيد بن أبى
عروبة عن أبى معشر عن ابراهيم قال الصمد الذى يصمد العباد اليه في حوائجهم
حدثنا أبى ثنا عبد الرحمن بن الضحاك ثنا شريك بن عبد العزيز ثنا سفيان بن
حسين عن الحسن قال الصمد الحى القيوم الذى لازوال له حدثنا أبى ثنا نصر بن
على ثنا يزيد بن زريع عن سعيد عن قتادة عن الحسن قال الصمد الباقى بعد خلقه
وهو قول قتادة حدثنا أبو سعيد الاشج ثنا بن نمير عن الاعمش عن شقيق في
قوله الصمد قال السيد الذى قد انتهى سؤدده حدثنا أبى ثنا أبو صالح ثنا
معاوية بن صالح عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس في قوله الصمد * قال السيد
الذى قد كمل في سؤدده والشريف الذى قد كمل في شرفه والعظيم الذى قد كمل في
عظمته والحليم الذى قد كمل في حلمه والعليم الذى قد كمل في علمه والحكيم الذى قد

Digitized by Google

كمل في حكمته وهو الذى قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد هو الله سبحانه هـذه صـفته لاتنبغى لاحد الاله ليس له كفؤ وليس كمثله شئ سبحان الله الواحد القهار حدثنا كثير بن شهاب المذحجى القزوينى ثنا محمد بن سـعيد بن سابق ثنا أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس في قوله الصمد قال الذى لم يلد ولم يولد حدثنا أبو سعيد الاشج ثنا بن عليـة عن أبى رجاء عن عكرمة في قوله الصمد قال الذى لم يخرج منه شئ حدثنا أبو سـعيد الأشج ثنا أبو أحمد ثنا مندل بن على عن أبى روق عطية بن الحارث عن أبى عبـد الرحمن السلمى عن عبـد الله بن مسعود قال الصمد الذى ليس له أحشاء وروى عن سعيد بن المسيب مثله حدثنا أبى ثنا محمد ابن عمر بن عبد الله الرومى ثنا عبيد الله بن سعيد قائد الاعمش عن صالح بن حيان عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال لاأعلمه الا قد رفعه قال الصمد الذى لاجوف له وروى عن عبـد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود في احـدى الروايات والحسن وعكرمة وعطية وسـعيد بن جبير ومجاهد في احدى الروايات والضحاك مثل ذلك حدثنا أبى ثنا قبيصة ثنا سفيان عن منصور عن مجاهد قال الصمد المصمت الذى لاجوف له حدثنا أبو عبد الله الطهرانى ثنا حفص بن عمر العدنى ثنا الحكم بن أبان عن عكرمـة في قوله الصمد قال الصمد الذى لايطعم حدثنا أبى ثنا على بن هاشم بن مرزوق ثنا هشيم عن اسمعيل بن أبى خالد عن الشـعبى انه قال الصمد الذى لايأ كل ولا يشرب الشراب حدثنا أبى وأبو زرعـة قالا ثنا أحمد بن منيع ثنا محمد بن ميسر يعنى أبا سعد الصغانى ثنا أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبىّ بن كعب في قوله الصمد قال الصمد الذى لم يلد ولم يولد لانه ليس شئ يـلد الا يموت وليس شئ يموت الا يورث وان الله لايموت ولا يورث ولم يكن له كفوا أحـد قال لم يكن له شبه ولا عدل وليس كمثله شئ حدثنا على بن الحسين ثنا محمود بن خـداش ثنا أبو سعد الصغانى ثنا أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العاليـة عن أبىّ بن كعب ان المشركين قالوا إنسب لنا ربك فأنزل الله هذه السورة حدثنا أبو زرعة ثنا العباس بن الوليد ثنا يزيد بن زريع عن سـعيد عن قتادة ولم يكن له كفوًا أحد قال ان الله لايكافئـه من خلقه أحـد حدثنا على بن الحصين ثنا أبو عبد الله الجرشى ثنا أبو خلف عبد الله بن عيسى ثنا داود بن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس قال إن اليهود جاءت الى النبى صلى

Digitized by Google

الله عليه وسلم منهم كعب بن الاشرف وحيي بن أخطب وجدى بن أخطب فقالوا يامحمد صف لنا ربك الذى بعثك فانزل الله قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد فيخرج ابنه الولد ولم يولد فيخرج منه شئ وقال ابن جرير الطبرى في تفسيره حدثنا احمد من منيع المروزى ومحمود بن خداش الطالقانى فذكر مثل اسناد ابن أبى حاتم عن أبىّ بن كعب سؤال المشركين للنبي صلى الله عليه وسلم إنسب لنا ربك فانزل الله قل هو الله أحد حدثنا ابن حميد ثنا يحيى بن واضح ثنا الحسين عن يزيد عن عكرمة ان المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرنا عن صفة ربك ماهو ومن أى شئ هو فأنزل الله هذه السورة ورواه أيضا عن أبى العالية وعن جابر بن عبد الله حدثنا شريح ثنا اسمعيل بن مجاهد عن الشعبي عن جابر فذكره قال وقيل هو من سؤال اليهود حدثنا ابن حميد ثنا سلمة ثنا ابن اسحق عن محمد بن سعيد قال أتى رهط من اليهود الى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا يامحمد هذا الله خلق الخلق فمن خلقه فغضب النبي صلى الله عليه وسلم حتى انتقع لونه ثم ساورهم غضبا لربه فجاءه جبريل فسكنه وقال اخفض عليك جناحك يامحمد وجاءه من الله جواب ماسألوه عنه قال يقول الله قل هو الله أحد الى آخرها فلما تلاها عليهم النبي صلى الله عليه وسلم قالوا له صف لنا ربك كيف خلقه كيف عضده كيف ساعده وكيف ذراعه فغضب النبي صلى الله عليه وسلم أشد من غضبه الأول وساورهم فأتاه جبريل فقال له مثل مقالته الاولى وأتاه بجواب ماسألوه فأنزل الله وما قدروا الله حق قدره وروى الحكم ابن معبد في كتاب الرد على الجهمية قال ثنا عبد الله بن محمد بن النعمان ثنا سلمة بن شبيب ثنى يحيى بن عبد الله ثنى ضرار عن أبان عن أنس قال أتت يهود خيبر الى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا ياأبا القاسم خلق الله الملائكة من نور الحجاب وآدم من حمأ مسنون وابليس من لهب النار والسماء من دخان والارض من زبد الماء فأخبرنا عن ربك قال فلم يجبهم النبي صلى الله عليه وسلم فأتاه جبريل فقال يامحمد قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ليس له عروق شعب اليها الصمد ليس بأجوف لايأكل ولا يشرب ليس شئ يعتدل مكانه يمسك السموات والارض أن تزولا الحديث وقال ابن جرير ثنا عبد الرحمن بن الاسود ثنا محمد ابن ربيعة عن سلمة بن سابور عن عطية عن ابن عباس قال الصمد الذى ليس بأجوف حدثنا ابن بشار ثنا عبد الرحمن ثنا سفيان عن منصور عن مجاهد الصمد المصمت

الذى لاجوف له حدثنا أبو كريب ثنا وكيع عن منصور سواء حدثنا الحارث ثنا الحسن ثنا ورقاء عن ابن أبى نجيح عن مجاهد مثله حدثنا ابن بشار ثنا عبد الرحمن ثنا الربيع بن مسلمة عن الحسن قال الصمد الذى لاجوف له وهذا الاسناد عن ابراهيم بن ميسرة قال أرسلنى مجاهد الى سعيد بن جبير أسأله عن الصمد فقال الذى لاجوف له حدثنا ابن بشار ثنا يحي ثنا اسمعيل بن أبى خالد عن الشعبى قال الصمد الذى لايطعم الطعام ورواه يعقوب عن هشيم عن اسمعيل عنه قال لايأكل الطعام ولا يشرب الشراب حدثنا بشار وزيد بن أخزم قالا ثنا ابن داود عن المستقيم بن عبد الملك عن سعيد بن المسيب قال الصمد الذى لاحشو له حدثنا الحسين ثنا أبو معاذ ثنا عبيد قال سمعت الضحاك يقول الصمد الذى لاجوف له وروى عن ابن بريدة فيه حديثا مرفوعا لكنه ضعيف قال وقال آخرون هو الذى لايخرج منه شئ حدثنا يعقوب بن أبى علية عن أبى رجاء سمعت عكرمة قال في قوله الصمد لم يخرج منه شئ لم يلد ولم يولد حدثنا ابن بشار ثنا محمد بن جعفر ثنا شعبة عن أبى رجاء محمد بن يوسف عن عكرمة قال الصمد الذى لايخرج منه شئ * وقال آخرون لم يلد ولم يولد وذكر حديث أبى بن كعب الذى رواه ابن أبى حاتم والذى فيه انه سبحانه لايموت ولا يورث قال وقال آخرون هو السيد الذى انتهى في سؤدده * وقال وثنا أبو السائب ثنا أبو معاوية عن الاعمش عن شقيق قال الصمد هو السيد الذى انتهى في سؤدده حدثنا أبو كريب وابن بشار وابن عبد الاعلى قالوا ثنا وكيع عن الاعمش عن أبى وائل قال الصمد السيد الذى انتهى في سؤدده حدثنا ابن حميد ثنا مهران عن سفيان عن الاعمش عن أبى وائل مثله حدثنا أبو صالح ثنا معاوية عن على عن ابن عباس في قوله الصمد قال السيد الذى كمل في سؤدده وذكر مثل الحديث الذى رواه ابن أبى حاتم كما تقدم * قلت الاشتقاق يشهد للقولين جميعا قول من قال ان الصمد الذى لاجوف له وقول من قال انه السيد وهو على الأول أدل فان الاول أصل للثانى ولفظ الصمد يقال على مالا جوف له في اللغة * قال يحي بن أبى كثير الملائكة صمد والآدميون جوف وفي حديث آدم ان ابليس قال عنه انه أجوف ليس بصمد * وقال الجوهرى المصمد لغة في المصمت وهو الذى لاجوف له * قال والصماد عفاص القارورة * وقال الصمد المكان المرتفع الغليظ قال أبو النجم

Digitized by Google

* يغادر الصمد كظهر الاجزل *

وأصل هذه المادة الجمع والقوة ومنه يقال يصمد المال أى يجمعه وكذلك السيد أصله سيود اجتمعت ياء وواو وسبقت احداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت كما قيل ميت وأصله ميوت والمادة في السواد والسؤدد تدل على الجمع واللون الاسود هو الجامع للبصر وقد قال تعالى وسيدا وحصورا * قال أكثر السلف سيدا حليما وكذلك يروى عن الحسن وسعيد بن جبير وعكرمة وعطاء وأبى الشعثاء بن أنس ومقاتل * وقال أبو روق عن الضحاك إنه الحسن الخلق * وروى سالم عن سعيد بن جبير انه التقى ولا يسود الرجل الناس حتى يكون في نفسه مجتمع الخلق ثابتا * وقال عبد الله بن عمر مارأيت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أسود من معاوية فقيل له ولا أبو بكر ولا عمر قال كان أبو بكر وعمر خيرا منه وما رأيت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم اسود من معاوية * قال أحمد بن حنبل يعنى به الحلم أو قال الكرم ولهذا قيل

اذا شئت يوما ان تسود قبيلة * فبالحلم سد لابالتسرع والشتم

ولهذا فسر طائفة من السلف السيد بانه سيد قومه في الدين وقال ابن زيد هو الشريف وقال الزجاج الذى يفوق قومه في الخير وقال ابن الانبارى السيد هنا الرئيس والامام في الخير وعن ابن عباس ومجاهد هو الكريم على ربه وعن سعيد بن المسيب هو الفقيه العالم وقد تقدم انهم يقولون لعفاص القارورة صمادقال الجوهرى العفاص جلد يلبسه رأس القارورة وأما الذى يدخل في فمه فهو الصمام وقد عفصت القارورة شددت عليها العفاص * قلت وفي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم في اللقطة ثم أعرف عفاصها ووكاءها والمراد بالعفاص مايكون فيه الدراهم كالخرقة التى تربط فيها الدراهم والوكاء مثل الخيط الذى يربط به وهذا من جنس عفاص القارورة ولفظ العفص والسد والصمد والجمع والسؤدد معانيها متشابهة فيها الجمع القوة ويقال طعام عفص وفيه عفوصة أى تقبض ومنه العفص الذى يتخذ منه الحبر * وقد قال الجوهرى هو مولد ليس من كلام أهل البادية وهذا لايضر لانه لم يكن عندهم عفص يسمونه بهذا الاسم لكن التسمية به جارية على أصول كلام العرب وكذلك تسميتهم لما يدخل في فمها صمام فان هذه المادة فيها معنى الجمع والسد * قال الجوهرى صمام القارورة سدادها والحجر الاصم الصلب المصمت والرجل الاصم هو الذى لايسمع لانسداد سمعه والرجل الصمة الشجاع والصمة الذكر من الحيات وصميم

Digitized by Google

الشيء خالصه بحيث لم يدخل اليه مايفوقه ويضعفه يقال صميم الحر وصميم البرد وفلان من صميم قومه والصمصام الصارم القاطع الذي لاينثني وصمم في السير وغيره أي مضى ورجل صمصم أى غليظ ومنه في الاشتقاق الاكبر الصوم فان الصوم هو الامساك * قال أبو عبيدة كل ممسك عن طعام أو كلام أو سير فهو صائم لان الامساك فيه اجتماع والصائم لايدخل جوفه شيء * ويقال صام الفرس اذا قام في غير اعتلاف * قال النابغة

خيل صيام وخيل غير صائمة   تحت العجاج وأخرى تعلك اللجما

* وكذلك السد والسداد والسؤدد والسواد * وكذلك لفظ الصمد فيه الجمع والجمع فيه القوة فان الشيء كلما اجتمع بعضه الى بعض ولم يكن فيه خلل كان أقوى مما اذا كان فيه خلو * ولهذا يقال للمكان الغليظ المرتفع صمد لقوته وتماسكه واجتماع أجزائه والرجل الصمد هو السيد المصمود أى المقصود يقال قصدته وقصدت له وقصدت اليه وكذلك هو مصمود ومقصود له واليه والناس انما يقصدون في حوائجهم من يقوم بها وانما يقوم بها من يكون في نفسه مجتمعا قويا ثابتا وهو السيد الكريم بخلاف من يكون هلوعا جزوعا يتفرق ويعلق ويتمزق من كثرة حوائجهم وثقلها فان هذا ليس بسيد صمد يصمدون اليه في حوائجهم فهم انما سموا السيد من الناس صمدا لما فيه من المعنى الذي لاجله يقصده الناس في حوائجهم فليس معنى السيد في لغتهم معنى اضافي فقط كلفظ القرب والبعد بل هو معنى قائم بالسيد لاجله يقصده الناس والسيد من السؤدد والسواد وهذا من جنس السداد في الاشتقاق الاكبر فان العرب تعاقب بين حرف العلة والحرف المضاعف كما يقولون تقضى البازى وتقضض والساد هو الذي يسد غيره فلا يبقى فيه خلوا ومنه سداد القارورة وسداد الثغر بالكسر فيهما وهو مايسد ذلك ومنه السداد بالفتح وهو الصواب ومنه القول السديد قال الله تعالى (اتقوا الله وقولوا قولا سديدا) قالوا قصدا حقا وعن ابن عباس صوابا وعن قتادة ومقاتل عدلا وعن السدى مستقيما وكل هذه الاقوال صحيح فان القول السديد هو المطابق الموافق فان كان خبرا كان صدقا مطابقا لمخبره لايزيد ولا ينقص وان كان أمرا كان أمرا بالعدل الذى لايزيد ولا ينقص ولهذا يفسرون السداد بالقصد والقصد بالعدل قال الجوهرى التسديد التوفيق للسداد وهو الصواب والقصد في القول والعمل ورجل مسدد اذا كان يعمل بالسداد والقصد والمسدد المقوم وسدد رمحه وأمر سديد وأسد أى

Digitized by Google

قاصد وقد استد الشيء استقام قال الشاعر

أعلمه الرماية كل يوم فلما استد ساعده رماني

* وقال الاصمعي اشتد بالشين المعجمة ليس بشيء وتعبيرهم عن السداد بالقصد يدلك على ان لفظ القصد فيه معنى الجمع والقوة والقصد العدل كما أنه السداد والصواب وهو المطابق الموافق الذى لايزيد ولا ينقص وهذا هو الجامع المطابق ومنه قوله تعالى (وعلى الله قصد السبيل) أى السبيل القصد وهو السبيل العدل أى اليه تنتهى السبيل العادلة كما قال تعالى (إِن علينا للهدى) أى الهدى الينا هذا أصح الاقوال في الآيتين وكذلك قوله تعالى (قال هذا صراط علىّ مستقيم) ومنه في الاشتقاق الاوسط الصدق فان حروفه حروف القصد فنه الصدق في الحديث لمطابقته مخبره كما قيل في السديد والصدق بالفتح الصلب من الرماح ويقال المستوى فهو معتدل صلب ليس فيه خلل ولا عوج والصندوق واحد الصناديق فانه يجمع مايوضع فيه ومما ينبغى أن يعرف في باب الاشتقاق أنه اذا قيل هذا مشتق من هذا فله معنيان أحدهما ان بين القولين تناسبا في اللفظ والمعنى سواء كان اهل اللغة تكلموا بهذا بعد هذا أو بهذا بعد هذا وعلى هذا فكل من القولين مشتق من الآخر فان المقصود أنه مناسب له لفظا ومعنى كما يقال هذا الماء من هذا الماء وهذا الكلام من هذا الكلام وعلى هذا فاذا قيل ان الفعل مشتق من المصدر أو المصدر مشتق من الفعل كان كلا القولين صحيحا وهذا هو الاشتقاق الذى يقوم عليه دليل التصريف وأما المعنى الثانى في الاشتقاق وهو أن يكون أحدهما أصلا للآخر فهذا اذا عنى به ان أحدهما تكلم به قبل الآخر لم يقم على هذا دليل في الاكثر من المواضع وان عنى به ان أحدهما متقدم على الآخر في العقل لكون هذا مفردا وهذا مركبا فالفعل مشتق من المصدر والاشتقاق الاصغر اتفاق القولين في الحروف وترتيبها والاوسط اتفاقهما في الحروف لا في الترتيب والاكبر اتفاقهما في أعيان بعض الحروف وفي الجنس في الباقى كاتفاقهما في كونهما من حروف الحلق اذا قيل حزر وعزر وازر فان الجميع فيه معنى القوة والشدة وقد اشتركت الراء والزاى والحاء في ان الثلاثة حروف حلقية وعلى هذا فاذا قيل الصمد بمعنى المصمت وانه مشتق منه بهذا الاعتبار فهو صحيح فان الدال أخت التاء في ان الصمت السكوت وهو امساك واطباق للفم عن الكلام قال أبو عبيد المصمت الذى لاجوف له وقد أصمته أنا وباب مصمت قد أبهم اغلاقه والمصمت من الخيل البهم أى لون كان لايخالط لونه لون

آخر ومنه قول ابن عباس انما حرم من الحرير المصمت فالمصمد والمصمت متفقان في الاشتقاق الاكبر وليست الدال منقلبة عن التاء بل الدال أقوى والمصمد أكمل في معناه من المصمت وكلما قوى الحرف كان معناه أقوى فان لغة العرب في غاية الاحكام والتناسب ولهذا كان الصمت امساكا عن الكلام مع امكانه والانسان أجوف يخرج الكلام من فيه لكنه قد يصمت بخلاف الصمد فانه انما استعمل فيما لاتفرق فيه كالصمد والسيد والصمد من الارض وصماد القارورة ونحو ذلك فليس في هذه الالفاظ المتناسبة أكمل من ألفاظ الصمد فان فيه الصاد والميم والدال وكل من هذه الحروف الثلاثة لها مزية على مايناسبها من الحروف والمعانى المدلول عليها بمثل هذه الحروف أكمل ومما يناسب هذه المعانى معنى الصبر فان الصبر فيه جمع وامساك ولهذا قيل الصبر حبس النفس عن الجزع يقال صبر وصبرته أنا ومنه قوله تعالى (واصبر نفسك) وكذلك معنى السيد الصمد خلاف معنى الجزوع المنوع ومنه الصبرة من الطعام فانها مجتمعة مكومة والصبارة الحجارة وصبر الشئ غلظه وضده الجزع وفيه معنى التقطع والتفرق يقال جزع له جزعة من المال أى قطع له قطعة والجزوعة القطعة من الغنم واجتزعت من الشجر عودا أى اقتطعته واكتسرته وجزعت الوادى اذا قطعته عرضا والجزع منعطف الوادى ومنه الجزع وهو الخرز اليمانى الذى فيه بياض وسواد وكذلك جزع البسر تجزيعا اذا أرطب نصفه ثلثاه وهو خلاف قولهم مصمت للون الواحد لما في ذلك من الاجتماع وفي هذا من التفرق * وقد قال تعالى (ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا) قال الجوهرى الهلع أفحش الجزع وقال غيره هو في اللغة أشد الحرص واسوأ الجزع ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلم شر ما في المرء شح هالع وجبن خالع * وناقة هلواع اذا كانت سريعة السير خفيفة وذئب هلع بع والهلع من الحرص والبلع من الابتلاع ولهذا كان كلام السلف في تفسيره يتضمن هذه المعانى فروى عن ابن عباس قال هو الذى اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا وروى عنه انه قال هو الحريص على مالا يحل له وعن سعيد بن جبير شحيحا وعن عكرمة ضجورا وعن جعفر حريصا وعن الحسن والضحاك بخيلا وعن مجاهد شرها وعن الضحاك أيضا الهلوع الذى لايشبع وعن مقاتل ضيق القلب وعن عطاء عجولا وهذه المعانى كلها تنافي الثبات والقوة والاجتماع والامساك والصبر وقد قال تعالى (لايزال بنيانهم الذى بنوا ريبة في قلوبهم الا أن تقطع قلوبهم) وهذا

Digitized by Google

وان كان قد قيل ان المراد به أنها تتصدع فيموتون فانه كما قيل في مثل ذلك قد انصدع قلبه وقد تفرق قلبي وقد تشتت قلبي وقد تقسم قلبي ومنه يقال للخوف قد فرق قلبه ويقال بازاء ذلك هو ثابت القلب مجتمع القلب مجموع القلب

فصل قال الله تعالى قل هو الله أحد الله الصمد فادخل اللام في الصمد ولم يدخلها في أحد لانه ليس في الموجودات مايسمى أحدا في الاثبات مفردا غير مضاف بخلاف النفى وما في معناه كالشرط والاستفهام فانه يقال هل عندك أحد وما جاءنى أحد الا أكرمته وانما استعمل في العدد المطلق يقال أحد اثنان ويقال احدى عشر وفي أول الايام يقال يوم الاحد فان فيه على أصح القولين ابتدأ الله خلق السموات والارض وما بينهما كما دل عليه القرآن والاحاديث الصحيحة فان القرآن أخبر في غير موضع أنه خلق السموات والارض ومابينهما في ستة أيام وقد ثبت في الحديث الصحيح المتفق على صحته ان آخر المخلوقات كان آدم خلق يوم الجمعة واذا كان آخر الخلق كان يوم الجمعة دل على أن أوله كان يوم الاحد لانها ستة وأما الحديث الذى رواه مسلم في قوله خلق التربة يوم السبت فهو حديث معلول قدح فيه أئمة الحديث كالبخارى وغيره قال البخارى الصحيح انه موقوف على كعب وقد ذكر تعليله البيهقي أيضا وبينوا انه غلط ليس مما رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو مما أنكر الحذاق على مسلم اخراجه اياه كما أنكروا عليه اخراج أشياء يسيرة وقد بسط هذا في موضع آخر وقد ذكر أبو الفرج ابن الجوزى في قوله خلق الارض في يومين قال ابن عباس خلق الارض في يوم الاحد والاثنين وبه قال عبد الله بن سلام والضحاك ومجاهد وابن جريج والسدى والاكثرون وقال مقاتل في يوم الثلاثاء والاربعاء قال وقد أخرج مسلم حديث أبى هريرة خلق التربة يوم السبت قال وهذا الحديث مخالف لما تقدم وهو أصح فصحح هذا لظنه صحة الحديث إذ رواه مسلم ولكن هذا له نظائر روى مسلم أحاديث قد عرف أنها غلط مثل قول أبى سفيان لما أسلم أريد أن أزوجك أم حبيبة ولا خلاف بين الناس انه تزوجها قبل اسلام أبى سفيان ولكن هذا قليل جدا ومثل ماروى في بعض طرق حديث صلاة الكسوف انه صلاها بثلاث ركوعات وأربع والصواب انه لم يصلها الا مرة واحدة بركوعين ولهذا لم يخرج البخارى الا هذا وكذلك الشافعي وأحمد بن حنبل في احدى الروايتين عنه وغيرهما والبخارى سلم من مثل هذا فانه اذا وقع في بعض الروايات غلط ذكر الروايات المحفوظة التي تبين غلط الغالط فانه

Digitized by Google

كان أعرف بالحديث وعلله وأفقه في معانيه من مسلم ونحوه وذكر ابن الجوزى في مواضع أخر ان هذا قول ابن اسحق وقال ابن الانبارى وهذا اجماع أهل العلم وذكر قولا ثالثا في ابتداء الخلق انه يوم الاثنين وقال قال ابن اسحق وهذا تناقض وذكر ان هذا قول أهل الانجيل والابتداء بيوم الاحد قول أهل التوراة وهذا النقل غلط على أهل الانجيل كما غلط من جعل الاول اجماع أهل العلم من المسلمين وكأن هؤلاء ظنوا ان كل أمة تجعل اجتماعها في اليوم السابع من الايام السبعة التى خلق الله فيها العالم وهذا غلط فان المسلمين انما اجتماعهم في آخر يوم خلق الله فيه العالم وهو يوم الجمعة كما ثبت ذلك في الاحاديث الصحيحة والمقصود هنا ان لفظ الاحد لم يوصف به شئ من الاعيان الا الله وحده وانما يستعمل في غير الله في النفى قال أهل اللغة يقول لأحد في الدار ولا تقل فيها أحد ولهذا لم يجيء في القرآن الا في غير الموجب كقوله تعالى (فما منكم من أحد عنه حاجزين) وكقوله (لستن كاحد من النساء) وقوله (وان أحد من المشركين استجارك فأجره) وفي الاضافة كقوله فابعثوا أحدكم وجعلنا لاحدهما جنتين وأما اسم الصمد فقد استعمله أهل اللغة في حق المخلوقين كما تقدم فلم يقل الله صمد بل قال الله الصمد فبين أنه المستحق لان يكون هو الصمد دون ماسواه فانه المستوجب لغايته على الكمال والمخلوق وان كان صمدا من بعض الوجوه فان حقيقة الصمدية منتفية عنه فانه يقبل التفرق والتجزئة وهو أيضا محتاج الى غيره فان كل ماسوى الله محتاج اليه من كل وجه فليس أحد يصمد اليه كل شئ ولا يصمد هو الى شئ الا الله وليس في المخلوقات الا مايقبل أن يتجزأ ويتفرق ويتقسم وينفصل بعضه من بعض والله سبحانه هو الصمد الذى لايجوز عليه شئ من ذلك بل حقيقة الصمدية وكمالها له وحده واجبة لازمة لايمكن عدم صمديته بوجه من الوجوه كما لايمكن تثنية أحديته بوجه من الوجوه فهو أحد لايماثله شئ من الاشياء بوجه من الوجوه كما قال في آخر السورة ولم يكن له كفوا أحد استعملها هنا في النفى أى ليس شئ من الاشياء كفؤا له في شئ من الاشياء لانه أحد وقال رجل للنبى صلى الله عليه وسلم أنت سيدنا فقال السيد الله ودل قوله الاحد الصمد على انه لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد فان الصمد هو الذى لاجوف له ولا أحشاء فلا يدخل فيه شئ فلا يأكل ولا يشرب سبحانه وتعالى كما قال (أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والارض وهو يطعم ولا يطعم) وفي قراءة الاعمش وغيره ولا يطعم بالفتح وقال تعالى (وما خلقت الجن والانس

الا ليعبدون ماأريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ان الله هو الرازق) * ومن مخلوقاته الملائكة وهم صمد لايأكلون ولا يشربون فالخالق لهم جل جلاله أحق بكل غنى وكمال جعله لبعض مخلوقاته فلهذا فسر بعض السلف الصمد بانه الذى لايأكل ولا يشرب والصمد المصمد الذى لاجوف له فلا يخرج منه عين من الاعيان فلا يلد ولذلك قال من قال من السلف هو الذى لايخرج منه شئ ليس مرادهم انه لايتكلم وان كان يقال في الكلام انه خرج منه كما قال في الحديث ماتقرب العباد الى الله بشئ أفضل مما خرج منه يعني القرآن وقال أبو بكر الصديق لما سمع قرآن مسيلمة انهذا لم يخرج من إلّ فخروج الكلام من المتكلم هو بمعنى أنه يتكلم به فيسمع منه ويبلغ الى غيره ليس بمخلوق في غيره كما يقول الجهمية ليس بمعنى انشيأ من الاشياء القائمة به يفارقه وينتقل عنه الى غيره فان هذا ممتنع في صفات المخلوقين ان تفارق الصفة محلها وتنتقل الى غير محلها فكيف بصفات الخالق جل جلاله وقد قال تعالى في كلام المخلوقين (كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون الا كذبا) وتلك الكلمة هى قائمة بالمتكلم وسمعت منه ليس خروجها من فيه ان ماقام بذاته من الكلام فارق ذاته وانتقل الى غيره فخروج كل شئ بحسبه ومن شأن العلم والكلام اذا استفيد من العالم والمتكلم أن لاينقص من محله ولهذا شبه بالنور الذى يقتبس منه كل أحد الضوء وهو باق على حاله لم ينقص فقول من قال من السلف الصمد هو الذى لم يخرج منه شئ كلام صحيح بمعنى أنه لايفارقه شئ منه ولهذا امتنع عليه أن يلد وأن يولد وذلك ان الولادة والمتولد وكل مايكون من هذه الألفاظ لايكون الا من أصلين وما كان من المتولد عينا قائمة بنفسها فلا بد لها من مادة تخرج منها وما كان عرضا قائما بغيره فلا بد له من محل يقوم به فالأول نفاه بقوله أحد فان الاحد هو الذى لا كفؤ له ولا نظير فيمتنع أن تكون له صاحبة والتولد انما يكون بين شيئين قال تعالى (أنى يكون له ولد ولم يكن له صاحبة وخلق كل شئ وهو بكل شئ عليم) فنفى سبحانه الولد بامتناع لازمه عليه فان انتفاء اللازم يدل على انتفاء الملزوم وبانه خالق كل شئ وكل ماسواه مخلوق له ليس فيه شئ مولود له والثانى نفاه بكونه سبحانه الصمد وهذا المتولد من أصلين يكون بجزئين ينفصلان من الأصلين كتولد الحيوان من أبيه وأمه بالمنى الذى ينفصل من أبيه وأمه فهذا التولد يفتقر الى أصل آخر والى أن يخرج منهما شئ وكل ذلك ممتنع في حق الله تعالى فانه أحد فليس له كفؤ يكون صاحبة ونظيرا وهو صمد لايخرج منه شئ فكل

Digitized by Google

واحد من كونه أحدا ومن كونه صمدا يمنع أن يكون والدا ويمنع أن يكون مولودا بطريق الاولى والأحرى وكما أن التوالد من الحيوان لايكون الا من أصلين سواء كان الاصلان من جنس الولد وهو الحيوان المتولد أو من غير جنسه وهو المتولد فكذلك في غير الحيوان كالنار المتولدة من الزندين سواء كانا خشبتين أو كانا حجرا وحديدا أو غير ذلك قال الله تعالى (فالموريات قدحا) وقال تعالى (أفرأيتم النار التى تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشؤن نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين) وقال تعالى (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهى رميم قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فاذا أنتم منه توقدون) قال غير واحد من المفسرين هما شجرتان يقال لاحداهما المرخ والاخرى العفار فمن أراد منهما النار قطع منهما غصنين مثل السواكين وهما خضرا وان يقطر منهما الماء فيسحق المرخ وهو ذكر على العفار وهو أنثى فتخرج منهما النار باذن الله تعالى وتقول العرب في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار وقال بعض الناس في كل شجرة نار الا العناب فاذا أنتم منه توقدون فذلك زنادهم وقد قال أهل اللغة الجوهرى وغيره الزند الذى يقدح به النار وهو أعلى والزندة السفلى فيها ثقب وهى الانثى فاذا اجتمعا قيل زندان وقال أهل الخبرة بهذا أنهم يسحقون الثقب الذى في الانثى بالاعلى كما يفعل ذكر الحيوان في أنثاه فبذلك السحق والحك يخرج منهما أجزاء ناعمة تنقدح منها النار فتتولد النار من مادة الذكر والانثى كما يتولد الولد من مادة الرجل والمرأة وسحق الانثى بالذكر وقدحها به يقتضى حرارة كل منهما ويتحالل من كل منهما مادة تنقدح منها النار كما ان ايلاج ذكر الحيوان في انثاه بقدح وحك فرجها بفرجه فتقوى حرارة كل منهما ويتحلل من كل منهما مادة تمتزج بالأخرى ويتولد منهما الولد ويقال علقت النار في المحل الذى يقدح عليه الذى هو كالرحم للولد وهو الحراق والصوفان ونحو ذلك مما يكون أسرع قبولا للنار من غيره كما علقت المرأة من الرجل وقد لاتعلق النار كما قد لاتعلق المرأة وقد لاتنقدح نار كما لاينزل منى والنار ليست من جنس الزنادين بل تولد النار منهما كتولد حيوان من الماء والطين فان الحيوان نوعان متوالد كالانسان وبهيمة الانعام وغير ذلك مما يخلق من ابوين ومتولد كالذى يتولد من الفاكهة والخل وكالقمل الذى يتولد من وسخ جلد الانسان وكالفار والبراغيث وغير ذلك مما يخلق من الماء والتراب وقد تنازع الناس فيما يخلق الله من الحيوان والنبات

Digitized by Google

والمعدن والمطر والنار التي تورى بالزناد وغير ذلك هل تحدث اعيان هـذه الاجسام فتقلب هذا الجنس الى جنس آخر كما يقلب المنى علقة ثم مضغة أولا تحدث الا اعراض وأما الاعيان التي هي الجواهر فهي باقية بغير صفاتها بما يحدثه فيها من الأكوان الاربعة الاجتماع والافتراق والحركة والسكون على قولين فالقائلون بان الاجسام مركبة من الجواهر المنفردة التي لاتقبل التجزى كما يقوله كثير من أهل الكلام وأما من جواهر لانهاية لها كما يحكي عن النظام فالقائلون بان الاجسام مركبة من الجواهر يقولون ان الله لايحدث شيأ قائما بنفسه وانما يحدث الاعراض التي هي الاجتماع والافتراق والحركة والسكون وغير ذلك من الاعراض ثم من قال منهم بان الجواهر محدثة قال ان الله أحدثها ابتداء ثم جميع مايحدثه انما هو احداث اعراض فيها لايحدث الله بعد ذلك جواهر وهذا قول أكثر المعتزلة والجهمية والاشعرية ونحوهم ومن أكابر هؤلاء من يظن ان هذا دين المسلمين ويذكر اجماع المسلمين عليه وهو قول لم يقل به أحد من سلف الامة ولا جمهور الامة بل جمهور الامة حتى من طوائف أهل الكلام ينكرون الجوهر الفرد وتركب الاجسام من الجواهر وابن كلاب امام اتباعه هو ممن ينكر الجوهر الفرد وقد ذكر ذلك أبو بكر بن فورك في مصنفه الذى صنفه في مقالات ابن كلاب وما بينه وبين الاشعرى من الخلاف وهكذا نفى الجوهر الفرد قول الهشامية والضرارية وكثير من الكرامية والنجارية أيضا وهؤلاء القائلون بان الاجسام مركبة من الجواهر المفردة المشهور عنهم بان الجواهر متماثلة بل ويقولون أو أكثرهم ان الاجسام متماثلة لأنها مركبة من الجواهر المتماثلة وانما اختلفت باختلاف الاعراض وتلك صفات عارضة لها ليست لازمة فلا تنفى التماثل فان حد المثلين أن يجوز على أحدهما مايجوز على الآخر ويجب له مايجب له ويمتنع عليه مايمتنع عليه وكذلك الاجسام المؤلفة من الجواهر ولهذا اذا أثبتوا حكما لجسم قالوا هذا ثابت لجميع الاجسام بناء على التماثل وأكثر العقلاء ينكرون هذا وحذاقهم قد أبطلوا الحجج التي احتجوا بها على التماثل كما ذكر ذلك الرازى والآمدى وغيرهما وقد بسط الكلام على هذا في مواضع والاشعرى في كتاب الابانة جعل القول بتماثل الاجسام من أقوال المعتزلة التي أنكرها وهؤلاء يقولون ان الرب يخص أحد الجسمين المتماثلين باعراض دون الآخر بمجرد المشيئة على أصل الجهمية أو لمعنى آخر مما يقوله القدرية ويقولون يمتنع انقلاب الاجناس فلا ينقلب الجسم عرضا ولا جنسا من

Digitized by Google

الاعراض الى جنس آخر فلو قالوا أن الاجسام مخلوقة وان المخلوق ينقلب من جنس آخر لزم انقلاب الاجناس فهؤلاء يقولون ان التولد الحاصل في الرحم والثمر الحاصل في الشجر والنار الحاصلة في الزناد هي جواهر كانت في المادة التي خلق منها وهي بعينها باقية لكن غيرت صفتها بالاجتماع والافتراق والحركة والسكون ولهذا لما ذكر أبو عبد الله الرازى أدلة أثبات الصانع ذكر أربعة طرق امكان الذوات وحدوثها وامكان الصفات وحدوثها والطرق الثلاثة الاول ضعيفة بل باطلة فان الذوات التي ادعوا حدوثها أو امكانها وامكان صفاتها ذكروها بألفاظ مجملة لايتميز فيها الخالق عن المخلوق ولم يقيموا على مادعوه دليلا صحيحا وأما الطريق الرابع وهو الحدوث لما يعلم حدوثه فهو طريق صحيح وهو طريق القرآن لكن قصروا فيه غاية التقصير فانهم على أصلهم لم يشهدوا حدوث شيء من الذوات بل حدوث الصفات وطريقة القرآن تبين ان كل ماسوى الله مخلوق وانه آية لله وقد بسط الكلام على مافي القرآن من البراهين والآيات التي لم يصل اليها هؤلاء المتكلمة والمتفلسفة وان كل ماعندهم من حق فهو جزء مما دل عليه القرآن في غير موضع والمقصود هنا أن هؤلاء لما كان هذا أصلهم في ابتداء الخلق وهو القول بأثبات الجوهر الفرد كان أصلهم في المعاد مبنيا عليه فصاروا على قولين منهم من يقول بعدم الجواهر ثم تعاد ومنهم من قال تفرق الاجزاء ثم تجتمع فاورد عليهم الانسان الذى يأكله حيوان وذلك الحيوان أكله انسان آخر فان أعيدت تلك الاجزاء من هذا لم تعد من هذا وأورد عليهم ان الانسان يتحلل دائما فماذا الذى يعاد أ هو الذى كان وقت الموت فان قيل بذلك لزم أن يعاد على صورة ضعيفة وهو خلاف ماجاءت به النصوص وان كان غير ذلك فليس بعض الابدان بأولى من بعض فادعى بعضهم أن في الانسان أجزاء أصلية لاتتحلل ولا يكون فيها شيء من ذلك الحيوان الذى أكله الثاني والعقلاء يعلمون ان بدن الانسان نفسه كله يتحلل ليس فيه شيء باق فصار ماذكروه في المعاد مما قوى شبهة المتفلسفة في إنكار معاد الابدان وأوجب ان صار طائفة من النظار الى أن الله يخلق بدنا آخر تعود الروح اليه والمقصود تنعيم الروح وتعذيبها سواء كان في هذا البدن أو في غيره وهذا أيضا مخالف للنصوص الصريحة باعادة هذا البدن وهذا المذكور في كتب الرازى فليس في كتبه وكتب أمثاله في مسائل أصول الدين الكبار القول الصحيح الذى يوافق المنقول والمعقول الذى بعث الله به الرسول وكان عليه سلف الامة وأئمتها بل يذكر بحوث المتفلسفة الملاحدة وبحوث المتكلمين المبتدعة

Digitized by Google

الذين بنوا على أصول الجهمية والقدرية في مسائل الخلق والبعث والمبدأ والمعاد وكلا الطريقين فاسد إذ بنوه على مقدمات فاسدة والقول الذى عليه السلف وجمهور العقلاء من أن الاجسام تنقلب من حال الى حال انما يذكره عن الفلاسفة والاطباء وهـذا القول وهو القول في خلق الله للاجسام التى يشاهد حدوثها انه يقلبها ويحيلها من جسم الى جسم هو الذى عليه السلف والفقهاء قاطبة والجمهور ولهذا يقول الفقهاء في النجاسة هـل تطهر بالاستحالة أم لا كما تستحيل العذرة رمادا والخنزير وغيره ملحا ونحو ذلك والمنى الذى في الرحم يقلبـه الله علقة ثم مضغة وكذلك الثمر يخلق بقلب المـادة التى يخرجها من الشجرة من الرطوبة مع الهواء والماء الذى نزل عليها وغير ذلك من المواد التى يقلبها ثمرة بمشيئته وقدرته وكذلك الحبـة يفلقها وتنقلب المواد التى يخلقها منها سنبلة وشجرة وغير ذلك وهكذا خلقه لما يخلقه سبحانه وتعالى كما خلق آدم من الطين فقلب حقيقة الطين فجعلها عظما ولحما وغـير ذلك من أجزاء البـدن وكذلك المضغة يقلبها عظاما وغير عظام قال الله تعالى (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفـة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقـين ثم انكم بعد ذلك لميتون ثم انكم يوم القيامة تبعثون) وكذلك النار يخلقها بقلب بعض أجزاء الزناد نارا كما قال (الذى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا) فنفس تلك الاجزاء التى خرجت من الشجر الاخضر جعلها الله نارا من غير أن يكون كان في الشجر الاخضر نار أصلا كما لم يكن في الشجرة ثمرة أصلا ولا كان في بطن المرأة جنين أصلا بل خلق هذا الموجود من مادة غيره بقلبه تلك المادة الى هذا وبما ضمه الى هذا من مواد أخر وكذلك الاعادة يعيـده بعد أن يبلى كله الا عجب الذنب كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال كل ابن آدم يبلى الا عجب الذنب منه خلق ابن آدم ومنه يركب وهو اذا أعاد الانسان في النشأة الثانية لم تكن تلك النشأة مماثلة لهذه فان هذه كائنة فاسدة وتلك كائنة لا فاسـدة بل باقية دائمة وليس لاهل الجنة فضلات فاسدة تخرج منهم كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال أهل الجنة لا يبولون ولا يتغوطون ولا يبصقون ولا يتمخطون وانما هو رشح كرشح المسك وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسـلم انه قال يحشر الناس حفاة عراة غرلا ثم قرأ (كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين) فهم يعودون غلفا لا مختونين وقال الحسن

Digitized by Google

البصري ومجاهد كما بدأكم نخلقكم في الدنيا ولم تكونوا شيأ كذلك تعودون يوم القيامة أحياء وقال قتادة بدأهم من التراب والى التراب يعودون كما قال تعالى (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) وقال (فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون) وهو قد شبه سبحانه اعادة الناس في النشأة الثانية باحياء الارض بعد موتها في غير موضع كقوله (وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى اذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون) وقال (والارض مددناها وألقينا فيها رواسى) الى قوله (وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج) وقال تعالى (ياأيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الارحام مانشاء الى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفي ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيأ وترى الارض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بان الله هو الحق وأنه يحي الموتى وانه على كل شئ قدير) وقال تعالى (الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه الى بلد ميت فأحيينا به الارض بعد موتها كذلك النشور) وهو سبحانه مع إخباره أنه يعيد الخلق وأنه يحي العظام وهى رميم وأنه يخرج الناس من الارض تارة أخرى هو يخبر أن المعاد هو المبدأ كقوله تعالى (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده) ويخبر أن الثانى مثل الاول كقوله تعالى (وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا أو لم يروا ان الله الذى خلق السموات والارض قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم أجلا لاريب فيه) وقال تعالى (وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة فسينغضون اليك رؤسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون ان لبثتم الا قليلا) وقال تعالى (أو ليس الذى خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم) وقال تعالى (أو لم يروا ان الله الذى خلق السموات والارض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى انه على كل شئ قدير) وقال (افرأيتم ماتمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل امثالكم وننشئكم فيما لاتعلمون ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون) والمراد بقدرته على خلق مثلهم

Digitized by Google

هو قدرته على اعادتهم كما اخبر بذلك في قوله (أو لم يروا ان الله الذى خلق السموات والارض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى) فان القوم ما كانوا ينازعون في أن الله يخلق في هذه الدار ثانيا امثالهم فان هذا هو الواقع المشاهد يخلق قرنا بعد قرن يخلق الولد من الوالدين وهذه هى النشأة الاولى وقد علموها وبها احتج عليهم على قدرته على النشأة الآخرة كما قال (ولقد علمتم النشأة الاولى فلولا تذكرون) وقال (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهى رميم قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) وقال (ياأيها الناس ان كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم) ولهذا قال (على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون) قال الحسن بن الفضل البجلى الذى عندى في هذه الآية وننشئكم فيما لا تعلمون ولقد علمتم النشأة الاولى بخلقكم للبعث بعد الموت من حيث لا تعلمون كيف شئت وذلك انكم علمتم النشأة الاولى كيف كانت في بطون الامهات وليست الآخرة كذلك ومعلوم أن النشأة الأولى كان الانسان نطفة ثم علقة ثم مضغة مخلقة ثم ينفخ فيه الروح وتلك النطفة من منى الرجل والمرأة وهو يغذيه بدم الطمث الذى يربيه الله به في ظلمات ثلاث ظلمة المشيمة وظلمة الرحم وظلمة البطن والنشأة الثانية لا يكونون في بطن امرأة ولا يغذون بدم ولا يكون أحدهم نطفة رجل وامرأة ثم يصير علقة بل ينشؤن نشأة أخرى وتكون المادة من التراب كما قال (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) وقال تعالى (فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون) وقال (والله أنبتكم من الارض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم اخراجا) وفي الحديث ان الارض تمطر مطرا كمنى الرجال ينبتون في القبور كما ينبت النبات كما قال تعالى كذلك الخروج كذلك النشور وكذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون فعلم ان النشأتين نوعان تحت جنس يتفقان ويتماثلان ويتشابهان من وجه ويفترقان ويتنوعان من وجه آخر ولهذا جعل المعاد هو المبدأ وجعل مثله أيضا فباعتبار اتفاق المبدأ والمعاد فهو هو وباعتبار ما بين النشأتين من الفرق فهو مثله وهكذا كل ما أعيد فلفظ الاعادة يقتضى المبدأ والمعاد سواء في ذلك اعادة الاجسام والاعراض كاعادة الصلاة وغيرها فان النبي صلى الله عليه وسلم مر برجل يصلى خلف الصف وحده فأمره أن يعيد الصلاة ويقال للرجل أعد كلامك وفلان قد أعاد كلام فلان بعينه ويعيد الدرس فالكلام هو الكلام وان كان صوت الثانى غير صوت الأول وحركته ولا يطلق

Digitized by Google

القول عليه انه مثـله بل قد قال تعالى (قل لئن اجتمعت الجن والانس على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله) وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا تكلم بكلمة أعادهـا ثلاثا وان كان يسمى مثلا مقيدا حتى يقال لمن حكى كلام غيره هكذا قال فلان أى مثل هذا قال ويقال فعل هذا عودا على بدء اذا فعله مرة ثانية بعـد أولى ومنه البئر البدى والبئر العادى فالبدى التى ابتدأت والعادى التى أعيدت وليست بنسبة الى عاد كما قيل ويقال استعدته الشئ فأعاده اذا سألته أن يفعله مرة ثانية ومنه سميت العادة يقال عاده واعتاده وتعوده أى صار عادة له وعود كلبه الصيد فتعوده وهو من المعاودة والمعاودة الرجوع الى الأمر الأول ويقال الشجاع معاود لانه لا يمل المراس وعاودته الحمى وعاوده بالمسئلة أى سأله مرة بعد مرة وتعاود القوم في الحرب وغيره اذا عاد كل فريق الى صاحبـه والعواد بالضم ماأعيد من الطعام بعد ماأكل منه مرة أخرى وعواد بمعنى عد مثل نزال بمعنى أنزل ففى جميع هذه المواضع يستعمل لفظ الاعادة باعتبار الحقيقة فان الحقيقة الموجودة في المرة الثانيـة هى الأولى وإن تعدد الشخص ولهذا يقال هو مثـله ويقال هذا هو هـذا وكلاهما صحيح وأعنى بالحقيقة الأمر الذى يختص بذلك الشخص ليس المراد القدر المشـترك بين الفاعلين فان من فعل مثل فعل غيره لا يقال أعاده وانما يقال حاكاه وشابهه بخلاف ماإذا فعل ثانيا مثل مافعل أولا فانه يقال أعاد فعله وكذلك يقال لمن أعاد كلام غيره قد أعاده ولا يقال لمن أنشأ مثله قد أعاده ويقال قرئ على هذا وأعاد على هذا وهذا يقرأ أى يدرس وهذا يعيد ولو كان كلاما آخر مما يماثله لم يقل فيه يعيد وكذلك من كسر خاتما أو غيره من المصوغ يقال أعده كما كان ويقال لمن هدم دارا أعدها كما كانت بخلاف من أنشأ أخرى مثلها فان هذا لا يسمى معيد والمعاد يقال فيه هذا هو الأول بعينه ويقال هذا مثـل الأول من كل وجه ونحو ذلك من العبارات الدالة على أنه هو هو من وجه وهو مثله من وجه وبهـذا تزول الشبهات الواردة على هـذا الموضع كقول من قال الاعادة لا تكون الا مع اعادة ذلك الزمان ونحو ذلك مما يمنع اعادته في صريح العقل وانما يعاد بالاتيان بمثله وان قال بعض المتكلمين انه لامغايرة أصلا بوجه من الوجوه والاعادة التى أخـبر الله بها هى الاعادة المعقولة في هـذا الخطاب وهى الاعادة التى فهمها المشركون والمسلمون عن رسول الله صـلى الله عليه وسلم وهى التى يدل عليها لفظ الاعادة والمعاد هو الأول بعينه وان كان بين لوازم الاعادة ولوازم البداءة فرق فذلك

Digitized by Google

الفرق لايمنع أن يكون قد أعيد الأول لأن الجسد الثانى مباين للاول من كل وجه كما زعم بعضهم ولأن النشأة الثانيـة كالأولى من كل وجه كما ظن بعضهم وكما أنه سبحانه خلق الانسان ولم يكن شيأ كذلك يعيده بعد أن لم يكن شيأ وعلى هذا فالانسان الذى صار ترابا ونبت من ذلك التراب نبات أكله انسان آخر وهلم جرا والانسان الذى أكله انسان أو حيوان وأكل ذلك الحيوان انسانا آخر ففي هـذا كله قد عدم هذا الانسان وهذا الانسان فصار كل منهما ترابا كما كان قبل أن يخلق ثم يعاد هذا ويعاد هذا من التراب انما يبقى عجب الذنب منه خلق ومنه يركب وأما سائره فعدم فيعاد من المادة التى استحال اليها فاذا استحال في القبر الواحـد ألف ميت وصاروا كلهم ترابا فانهم يعادون ويقومون من ذلك القبر وينشئهم الله تعالى بعـد ان كانوا عدما محضا كما أنشأهم أولا بعد أن كانوا عدما محضا واذا صار ألف انسان ترابا في قبر انشأ هؤلاء من ذلك القبر من غير أن يحتاج أن يخلقهم كما خلقهم في النشأة الاولى التى خلقهم منها من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة وجعل نشأتهم بما يستحيل الى أبدانهم من الطعام والشراب كما يستحيل الى بدن أحدهـم مايأكله من نبات وحيوان وكذلك لو أكل انسانا أو أكل حيوانا قد أكل انسانا فالنشأة الثانية لايخلقهم فيها بمثل هذه الاستحالة بل يعيد الاجساد من غـير أن ينقلهم من نطفة الى علقه الى مضغة ومن غـير أن يغذوها بدم الطمث ومن غير أن يغذوها بلبن الأم وبسائر مايأكله من الطعام والشراب فمن ظن ان الاعادة تحتاج الى اعادة الاغذية التى استحالت الى أبدانهـم فقـد غلط وحينئذ فاذا أكل انسان انسانا فانما صار غذاء له كسائر الاغذية وهو لايحتاج الى اعادة الاغذية ومعـلوم ان الغذاء ينزل الى المعدة طعام وشراب ثم يصـير كلوسا كالثردة ثم كيموسا كالحريرة ثم ينطبخ دما فيقسمه الله تعالى في البدن كله ويأخذ كل جزء من البدن نصيبه فيستحيل الدم الى شبيه ذلك الجزء العظم عظما واللحم لحما والعرق عرقا وهذا في الرزق كاستحالتهم في مبـدأ الخلق نطفة ثم علقة ثم مضغة وكما أنه سـبحانه لايحتاج في الاعادة الى أن يحيـل أحدهم نطفة ثم علقة ثم مضغة فكذلك أغذيتهـم لايحتاج أن يجعلها فاكهة ولحما ثم يجعلها كلوسا وكيموسا ثم دما ثم عظما ولحما وعروقا بل يعيد هذا البدن على صفة أخرى لنشأة ثانية ليست مثل هذه النشأة كما قال وننشئكم فيما لاتعلمون ولا يحتاج مع ذلك الى شىء من هذه الاستحالات التى كانت في النشأة الأولى وبهذا يظهر الجواب عن قوله البدن دائما في التحلل فان تحلل البدن ليس

Digitized by Google

بأعجب من انقلاب النطفة علقة والعلقة مضغة وحقيقة كل منهما خلاف حقيقة الأخرى وأما البدن المتحلل فالاجزاء الثانية تشابه الأولى وتماثلها واذا كان في الاعادة لايحتاج الى انقلابه من حقيقة الى حقيقة فكيف بانقلابه بسبب التحلل ومعلوم أن من رأى شخصا وهو شاب ثم رآه وهو شيخ علم أن هذا هو ذاك مع هذه الاستحالة وكذلك سائر الحيوان والنبات كمن غاب عن شجرة مدة ثم جاء فوجدها علم أن هذه هي الأولى مع ان التحلل والاستحالة ثابت في سائر الحيوان والنبات كما هو في بدن الانسان ولا يحتاج عاقل في اعتقاده أن هذه الشجرة هي الأولى وأن هذه الفرس هي التي كانت عنده من سنين ولا أن هذا الانسان هو الذى رآه من عشرين سنة الى أن يقدر بقاء أجزاء أصلية لم تحلل ولا يخطر هذا ببال أحد ولا يقتصر العقلاء في قولهم هذا هو ذاك على تلك الاجزاء التى لاتعرف ولا تتميز عن غيرها بل انما يشيرون الى جملة الشجرة والفرس والانسان مع أنه قد يكون كان صغيرا فكبر ولا يقال انما كان هو ذاك باعتبار ان النفس الناطقة واحدة كما زعمه من ادعى ان البدن الثانى ليس هو الاول ولكن المقصود جزاء النفس بنعيم أو عذاب ففى أى بدن كانت حصل المقصود فان هذا أيضا باطل مخالف للكتاب والسنة واجماع السلف مخالف للمعقول من الاعادة فانا قد ذكرنا أن العقلاء كلهم يقولون هذا الفرس هو ذاك وهذه الشجرة هى تلك التى كانت من سنين مع علم العقلاء ان النبات ليس له نفس ناطقة تفارقه وتقوم بذاتها وكذلك يقولون مثل هذا في الحيوان وفي الانسان مع أنه لم يخطر بقلوبهم ان المشار اليه بهذا وذاك نفس مفارقة بل قد لايخطر هذا بقلوبهم فدل على أن العقلاء كانوا يعلمون أن هذا البدن هو ذاك مع وجود الاستحالة وعلم بذلك أن ماذكر من الاستحالة لاينافي أن يكون البدن الذى يعاد في النشأة الثانية هو هذا البدن ولهذا يشهد البدن المعاد بما عمل في الدنيا كما قال تعالى (اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) وقال تعالى (حتى اذا ماجاؤها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شئ) ومعلوم ان الانسان لو قال أو فعل فعلا أو رأى غيره يفعل أو سمعه يقول ثم بعد ثلاثين سنة شهد على نفسه بما قال أو فعل وهو الاقرار الذى يؤاخذ بموجبه أو شهد على غيره من الاموال وأقر به من الحقوق لكانت الشهادة على عين ذلك المشهود عليه مقبولة مع استحالة بدنه في هذه المدة الطويلة

Digitized by Google

ولا يقول عاقل من العقلاء ان هذه الشهادة على مثله أو على غيره ولو قدر أن المعين حيوان أو نبات وشهد ان هذا الحيوان قبضه هذا من هذا وان هذا الشجر سلمه هذا الى هذا كان كلاما معقولا مع الاستحالة واذا كانت الاستحالة غير مؤثرة فقول القائل يعيده على صفة ماكان وقت موته أو سمنه أو هزاله وغير ذلك جهل منه فان صفة تلك النشأة الثانية ليست مماثلة لصفة هذه النشأة حتى يقال ان الصفات هى المغيرة اذ ليس هناك استحالة ولا استفراغ ولا امتلاء ولا سمن ولا هزال لاسيما أهل الجنة اذا دخلوها فانهم يدخلونها على صورة أبيهم آدم طول أحدهم ستون ذراعا كما ثبت في الصحيحين وغيرهما وروى ان عرضه سبعة أذرع وهم لايبولون ولا يتغوطون ولا يبصقون ولا يتمخطون وليست تلك النشأة من اخلاط متضادة حتى يستلزم مفارقة بعضها بعضا كما هى هذه النشأة ولا طعامهم مستحيلا ولا شرابهم مستحيلا من التراب والماء والهواء كما هى أطعماتهم في هذه النشأة ولهذا أبقى الله طعام الذى مر على قرية وشرابه مائة عام لم يتغير ودلنا سبحانه بهذا على قدرته فاذا كان في دار الكون والفساد يبقى الطعام الذى هو رطب وعنب أو نحو ذلك والشراب الذى هو ماء أو مافيه ماء مائة عام لم يتغير فقدرته سبحانه وتعالى على أن يجعل الطعام والشراب في النشأة الاخرى لايتغير بطريق الاولى والأحرى وهذه الامور لبسطها موضع آخر

﴿ فصل ﴾ والمقصود هنا ان التولد لابد له من أصلين وان ظن ظان ان نفس الهواء الذى بين الزنادين يستحيل نارا بسخونته من غير مادة تخرج منهما تنقلب نارا فقد غلط وذلك لانه لاتخرج نار ان لم يخرج منهما مادة بالحك ولاتخرج النار بمجرد الحك وأيضا فانهم يقدحون على شئ أسفل من الزنادين كالصوفان والحراق فتنزل النار عليه وانما ينزل الثقيل فلولا أن هناك جزأ ثقيلا من الزناد الحديد والحجر لما نزلت النار ولو كان الهواء وحده انقلب نارا لم ينزل لان الهواء طبعه الصعود لاالهبوط لكن بعد أن تنقلب المادة الخارجة نارا قد ينقلب الهواء القريب منها نارا اما دخانا واما لهيبا والمقصود أن المتولدات خلقت من أصلين كما خلق آدم من التراب والماء والا فالتراب المحض الذى لم يختلط به ماء لايخلق منه شئ لاحيوان ولا نبات والنبات جميعه انما يتولد من أصلين أيضا والمسيح خلق من مريم ونفخة جبريل كما قال تعالى (ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا) وقال (والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا) وقال فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا)

Digitized by Google

قالت انى أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا قال انما أنا رسول ربك ليهب لك غلاما زكيا) وقد ذكر المفسرون ان جبريل نفخ في جيب درعها والجيب هو الطوق الذى في العنق ليس هو مايسميه بعض العامة جيبا وهو مايكون في مقدم الثوب لوضع الدراهم ونحوها وموسى لما أمره الله أن يدخل يده في جيبه هو ذلك الجيب المعروف في اللغة وذكر أبو الفرج وغيره قولين هل كانت النفخة في جيب الدرع أو في الفرج فان من قال بالأول قال في فرج درعها وان من قال هو مخرج الولد قال انها كناية عن غير مذكور لأنه انما نفخ في درعها لافي فرجها وهذا ليس بشئ بل هو عدول عن صريح القرآن وهذا النقل ان كان ثابتا لم يناقض القرآن وان لم يكن ثابتا لم يلتفت اليه فان من نقل ان جبريل نفخ في جيب الدرع فمراده انه لم ينكشف بدنها وكذلك جبريل كان اذا أتى النبي صلى الله عليه وسلم وعائشة متجردة لم ينظر اليها متجردة فنفخ في جيب الدرع فوصلت النفخة الى فرجها والمقصود انما هو النفخ في الفرج كما أخبر الله به في آيتين والا فالنفخ في الثوب فقط من غير وصول النفخ الى الفرج مخالف للقرآن مع انه لاتأثير له في حصول الولد ولم يقل ذلك أحد من أئمة المسلمين ولا نقله أحد عن عالم معروف من السلف والمقصود هنا ان المسيح خلق من أصلين من نفخ جبريل ومن أمه مريم وهذا النفخ ليس هو النفخ الذى يكون بعد مضى أربعة أشهر والجنين مضغة فان ذلك نفخ في بدن قد خلق وجبريل حين نفخ لم يكن المسيح خلق بعد ولا كانت مريم حملت وانما حملت به بعد النفخ بدليل قوله (قال انما أنا رسول ربك ليهب لك غلاما زكيا فحملته فانتبذت به مكانا قصيا) فلما نفخ فيها جبريل حملت به ولهذا قيل في المسيح روح منه باعتبار هذا النفخ وقد بين الله سبحانه أن الرسول الذى هو روحه وهو جبريل هو الروح الذى خاطبها وقال انما أنا رسول ربك ليهب لك غلاما زكيا فقوله ونفخنا فيها أو فيه من روحنا أى من هذا الروح الذى هو جبريل وعيسى روح من هذا الروح فهو روح من الله بهذا الاعتبار ومن لابتداء الغاية والمقصود هنا أنه قد يكون الشئ من أصلين بانقلاب المادة التى بينهما اذا التقيا وبينهما مادة فتنقلب وذلك لقوة حك أحدهما بالآخر فلا بد من نقص أجزائها وهذا مثل تولد النار بين الزنادين اذا قدح الحجر بالحديد أو الشجر بالشجر كالمرخ والعفار فانه بقوة الحركة الحاصلة من قدح أحدهما بالآخر يستحيل بعض أجزائهما ويسخن الهواء الذى بينهما فيصير نارا والزندان كما قدح أحدهما بالآخر نقصت احداهما بقوة

Digitized by Google

الحك فهذه النار استحالت عن الهواء وتلك الاجزاء بسبب قدح أحد الزندين بالآخر وكذلك النور الذى يحصل بسبب انعكاس الشعاع على مايقابل المضئ كالشمس والنار فان لفظ النور والضوء يقال تارة على الجسم القائم بنفسه كالنار التى في رأس المصباح وهذه لاتحصل الا بمادة تنقلب نارا كالحطب والدهن ويستحيل الهواء أيضا نارا ولا ينقلب الهواء نارا الا بنقص المادة التى اشتعلت أو نقص الزندين وتارة يراد بلفظ النور والضوء والشعاع الشعاع الذى يكون على الارض والحيطان من الشمس أومن النار فهذا عرض ليس بجسم قائم بنفسه لابد له من محل يقوم به يكون قابلا له فلا بد في الشعاع من جسم مضئ ولا بد من شئ يقابله حتى ينعكس عليه الشعاع وكذلك النار الحاصلة في ذبالة المصباح فاذا وضعت في النار أو وضع فيها حطب فان النار تحل أولا المادة التى هى الدهن أوالحطب فيسخن الهواء المحيط بها فينقلب نارا وانما ينقلب بعد نقص المادة وكذلك الريح التى تحرك النار مثل ماتهب الريح فيشتعل في الحطب ومثل ماينفخ في الكير وغيره تبقى الريح المنفوخة تضرم النار لما في محل النار كالخشب والفحم من الاستعداد لانقلابه نارا وما في حركة الريح القوية من تحريك النار الى المحل القابل له وقد ينقلب أيضا الهواء القريب من النار فان اللهيب هو الهواء انقلب نارا مثل مافي ذبالة المصباح ولهذا اذاطفئت صار دخانا وهو هواء مختلط بنار كالبخار وهو هواء مختلط بماء والغبار هواء مختلط بتراب وقد يسمى البخار دخانا ومنه قوله تعالى (ثم استوى الى السماء وهى دخان) قال المفسرون بخار الماء كما جاءت الآثار ان الله خلق السموات من بخار الماء وهو الدخان فالدخان الهواء المختلط بشئ حار ثم قد لايكون فيه ماء وهو الدخان الصرف وقد يكون فيه ماء فهو دخان وهو بخار كبخار القدر وقد يسمى الدخان بخارا فيقال لمن استجمر بالطيب تبخر وان كان لارطوبة هنا بل دخان الطيب سمى بخارا قال الجوهرى بخار الماء مايرتفع منه كالدخان والبخور بالفتح مايتبخر به لكن انما يصير الهواء نارا بعد أن تذهب المادة التى انقلبت نارا كالحطب والدهن فلم تتولد النار الا من مادة كما لم يتولد الحيوان الا من مادة

﴿ فصل ﴾ والمقصود أن كل مايستعمل فيه لفظ التولد من الاعيان القائمة فلا بد أن يكون من أصلين ومن انفصال جزء من الاصل واذا قيل في الشبع والرى انه متولد أو في زهوق الروح ونحو ذلك من الاعراض انه متولد فلا بد في جميع مايستعمل فيه هذا اللفظ من أصلين لكن العرض يحتاج الى محل لايحتاج الى مادة

Digitized by Google

تتقلب عرضا بخلاف الاجسام فانها انما تخلق من مواد تتقلب أجساما كما تتقلب الى نوع آخر كانقلاب الماء علقة ثم مضغة وغير ذلك من خلق الحيوان والنبات وأما ما كان من أصل واحد كخلق حواء من ضلع القصرى وهو وان كان مخلوقا من مادة أخذت من آدم فلا يسمى هذا تولدا ولهذا لايقال ان آدم ولد حواء ولا يقال انه أبو حواء بل خلق الله حواء من آدم كما خلق آدم من الطين وأما المسيح فيقال انه ولدته مريم ويقال المسيح ابن مريم فكان المسيح جزأ من مريم وخلق بعد نفخ الروح في فرج مريم كما قال تعالى (ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين) وفي الأخرى (فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين) وأما حواء فخلقها الله من مادة أخذت من آدم كما خلق آدم من المادة الارضية وهى الماء والتراب والريح الذى أيبسه حتى صار صلصالا فلهذا لايقال آدم ولد حواء ولا آدم ولده التراب ويقال في المسيح ولدته مريم فانه كان من أصلين من مريم ومن النفخ الذى نفخ فيها جبريل قال الله تعالى (فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا قالت انى أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا قال انما أنا رسول ربك ليهب لك غلاما زكيا قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا قال كذلك قال ربك هو علىّ هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا فحملته فانتبذت به مكانا قصيا) الى آخر القصة فهى انما حملت به بعد النفخ لم تحمل به مدة بلا نفخ ثم نفخت فيه روح الحيات كسائر الآدميين ففرق بين النفخ للحمل وبين النفخ لروح الحياة فتبين ان مايقال انه متولد من غيره من الاعيان القائمة بنفسها فلا يكون الا من مادة تخرج من ذلك الوالد ولا يكون الا من أصلين والرب تعالى صمد فيمتنع أن يخرج منه شئ وهو سبحانه لم يكن له صاحبة فيمتنع أن يكون له ولد وأما مايستعمل من تولد الاعراض كما يقال تولد الشعاع وتولد العلم عن الفكر وتولد الشبع عن الاكل وتولدت الحرارة عن الحركة ونحو ذلك فهذا ليس من تولد الاعيان مع ان هذا لابد له من محل ولا بد له من أصلين ولهذا كان قول النصارى ان المسيح ابن الله مستلزما لئن يقولوا ان مريم صاحبة الله فيجعلون له زوجة وصاحبة كما جعلوا له ولدا بأى معنى فسروا كونه ابنه فانه يفسر الزوجة بذلك المعنى والادلة بتنزيهه عن الصاحبة توجب تنزيهه عن الولد فاذا كانوا يصفونه بما هو أبعد عن اتصافه به كان اتصافه بما هو أقل بعداً لازما لهم وقد بسط هذا في الرد على النصارى

Digitized by Google

﴿ فصل ﴾ وهذا مما يبين ان ما نزه الله نفسه ونفاه عنه بقوله لم يلد ولم يولد وبقوله (ألا انهم من افكهم ليقولون ولد الله وانهم لكاذبون) وقوله (وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون بديع السموات والارض أنى يكون له ولد ولم يكن له صاحبة وخلق كل شئ وهو بكل شئ عليم) يعم جميع الانواع التى تذكر في هذا الباب عن بعض الامم كما ان ما نفاه من اتخاذ الولد يعم أيضا جميع أنواع الاتخاذات لا اصطفاء كما قال تعالى (وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السموات والارض وما بينهما واليه المصير) قال السدى قالوا ان الله أوحى الى اسرائيل ان ولدك بكرى من الولد فادخلهم النار فيكونون فيها أربعين يوما حتى تطهرهم وتأكل خطاياهم ثم ينادى مناد اخرجوا كل مختون من بنى اسرائيل وقد قال تعالى (مااتخذ الله من ولد وما كان معه من اله) وقال (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولى من الذل) وقال (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا الذى له ملك السموات والارض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شئ فقدره تقديرا وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ومن يقل منهم انى اله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين) وقال (وقال الله لا تتخذوا الهين اثنين انما هو اله واحد فاياى فارهبون وله ما في السموات والارض وله الدين واصبا) الى قوله (ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا) الى قوله (ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون) وقال (ولا تجعل مع الله الها آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة أناثا انكم لتقولون قولا عظيما ولقد صرفنا في هذا القرآن ليذكروا وما يزيدهم الا نفورا قل لو كان معه آلهة كما يقولون اذا لابتغوا الى ذى العرش سبيلا) وقال (فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون أم خلقنا الملائكة اناثا وهم شاهدون الا انهم من افكهم ليقولون ولد الله وانهم لكاذبون أصطفى البنات على البنين مالكم كيف تحكمون أفلا تذكرون أم لكم سلطان مبين فأتوا بكتابكم ان كنتم صادقين وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ولقد علمت الجنة انهم لمحضرون سبحان الله عما يصفون الا عباد الله المخلصين فانكم وما تعبدون ما أنتم عليه بفاتنين الا من هو صال

الجحيم وقال (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى تلك اذا قسمة ضيزى ان هى الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى) الى قوله (ان الذين لايؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الانثى) وقال تعالى (وجعلوا له من عباده جزأ) قال بعض المفسرين جزأ أى نصيبا وبعضا وقال بعضهم جعلوا لله نصيبا من الولد وعن قتادة ومقاتل عدلا وكلا القولين صحيح فانهم يجعلون له ولدا والولد يشبه أباه ولهذا قال (واذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا) أى البنات كما قال في الآية الأخرى واذا بشر أحدهم بالانثى فقد جعلوها للرحمن مثلا وجعلوا له من عباده جزأ فان الولد جزء من الوالد كما تقدم قال صلى الله عليه وسلم انما فاطمة بضعة منى وقوله وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم قال الكلبي نزلت في الزنادقة قالوا ان الله وابليس شريكان فالله خالق النور والناس والدواب والأنعام وابليس خالق الظلمة والسباع والحيات والعقارب وأما قوله وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا فقيل هو قولهم الملائكة بنات الله وسمى الملائكة جنا لاجتنانهم عن الابصار وهو قول مجاهد وقتادة وقيل قالوا الحي من الملائكة يقال لهم الجن ومنهم ابليس وهم بنات الله وقال الكلبي قالوا لعنهم الله بل بذور تخرج منها الملائكة وقوله وخرقوا له بنين وبنات بغير علم قال بعض المفسرين كالثعلبي وهم كفار العرب قالوا الملائكة والاصنام بنات الله واليهود قالوا عزير ابن الله

﴿فصل﴾ والذين كانوا يقولون من العرب ان الملائكة بنات الله وما نقل عنهم من انه صاهر الجن فولدت له الملائكة فقد نفاه عنه بامتناع الصاحبة وبامتناع أن يكون منه جزء فانه صمد وقوله ولم تكن له صاحبة وهذا كما تقدم من أن الولادة لاتكون الا من أصلين سواء في ذلك تولد الأعيان التى تسمى الجواهر وتولد الاعراض والصفات بل ولا يكون تولد الاعيان الا بانفصال جزء من الوالد فاذا امتنع أن يكون له صاحبة امتنع أن يكون له ولد وقد علموا كلهم أن لاصاحبة له لامن الملائكة ولا من الجن ولا من الانس فلم يقل أحد منهم أن له صاحبة فلهذا احتج بذلك عليهم وما حكى عن بعض كفار العرب انه صاهر الجن فهذا فيه نظر وذلك ان كان قد قيل فهو مما يعلم انتفاؤه من وجوه كثيرة وكذلك ماقالته النصارى من أن المسيح ابن الله وما قاله طائفة من اليهود ان العزير ابن الله فانه قد نفاه سبحانه بهذا وبهذا فان قيل

Digitized by Google

اما عوام النصارى فلا تنضبط أقوالهم وأما الموجود في كلام علمائهم وكتبهم فانهم يقولون ان أقنوم الكلمة ويسمونها الابن تدرع المسيح أى اتخذه درعا كما يتدرع الانسان قميصه فاللاهوت تدرع الناسوت ويقولون باسم الأب والابن وروح القدس اله واحد قيل قصدهم ان الرب موجود حيّ عليم فالموجود هو الأب والعلم هو الابن والحياة هو روح القدس هذا قول كثير منهم ومنهم من يقول بل موجود عالم قادر ويقول العلم هو الكلمة وهو المتدرع والقدرة هى روح القدس فهم مشتركون في ان المتدرع هو أقنوم الكلمة وهي الابن ثم اختلفوا في التدرع واختلفوا هل هما جوهر أو جوهران وهل هما نسبة أو نسبتان ولهم في الحلول والاتحاد كلام مضطرب ليس هذا موضع بسطه فان مقالة النصارى فيها من الاختلاف بينهم مايتعذر ضبطه فان قولهم ليس مأخوذا عن كتاب منزل ولا نبيّ مرسل ولا هو موافق لعقول العقلاء فقالت اليعقوبية صار جوهرا واحدا وطبيعة واحدة وأقنوما واحدا كالماء في اللبن وقالت النسطورية بل هما جوهران وطبيعتان ومشيئتان لكن حل اللاهوت في الناسوت حلول الماء في الظرف وقالت الملكانية بل هما جوهر واحد له مشيئتان وطبيعتان أو فعلان كالنار في الحديد وقد ذهب بعض الناس الى ان قوله تعالى (لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم) هم اليعقوبية وفي قوله (وقالت النصارى المسيح ابن الله) هم الملكانية وقوله (لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة) هم النسطورية وليس بشيء بل الفرق الثلاث تقول المقالات التى حكاها الله عز وجل عن النصارى فكلهم يقولون انه الله ويقولون انه ابن الله وكذلك في أمانتهم التى هم متفقون عليها يقولون اله حق من اله حق وأما قوله ثالث ثلاثة فانه قال تعالى (واذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله قال سبحانك مايكون لى أن أقول ماليس لى بحق) * قال أبو الفرج ابن الجوزى في قوله لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة قال المفسرون معنى الآية ان النصارى قالوا الالهية مشتركة بين الله وعيسي ومريم كل واحد منهم اله وذكر عن الزجاج الغلو مجاوزة القدر في الظلم وغلو النصارى في عيسى قول بعضهم هو الله وقول بعضهم هو ابن الله وقول بعضهم هو ثالث ثلاثة فعلماء النصارى الذين فسروا قولهم هو ابن الله بما ذكروه من ان الكلمة هو الابن والفرق الثلاثة متفقة على ذلك وفساد قولهم معلوم بصريح العقل من وجوه أحدها انه ليس في شيء من كلام الانبياء تسمية صفة

Digitized by Google

الله ابناً لا كلامه ولا غيره فتسميتهم صفة الله ابناً تحريف لكلام الانبياء عن مواضعه وما نقلوه عن المسيح من قولهم عمدوا الناس باسم الأب والابن وروح القدس لم يرد بالابن صفة الله التى هى كلمته ولا بروح القــدس حياته فانه لايوجد في كلام الانبياء ارادة هذا المعنى كما قد بسط هذا في الرد على النصارى الوجه الثانى أن هذه الكلمة التى هى الابن أهى صفة الله قائمة به أم هى جوهر قائم بنفسه فان كانت صفته بطل مذهبهم من وجوه أحدها أن الصفة لاتكون الها يرزق ويخلق ويحيي ويميت والمسيح عندهم اله يخلق ويرزق ويحيي ويميت فاذا كان الذى تدرعــه ليس باله فهو أولى أن لايكون الها الثانى أن الصفة لاتقوم بغير الموصوف فلا تفارقه وان قالوا نزل عليه كلام الله وقالوا انه الكلمة أو غير ذلك فهذا قدر مشترك بينه وبين سائر الانبياء الثالث أن الصفة لاتحد وتتدرع شيأ الا مع الموصوف فيكون الاب نفسه هو المسيح والنصارى متفقون على انه ليس هو الاب فان قولهم متناقض ينقض بعضه بعضا يجعلونه الها يخلق ويرزق ولا يجعلونه الاب الذى هو الاله ويقولون اله واحد وقد شبهه بعض متكلميهم كيحيي ابن عدى بالرجل الموصوف بانه طبيب وحاسب وكاتب وله بكل صفة حكم فيقال هذا حق لكن قولهم ليس نظير هــذا فاذا قلتم أن الرب موجود حى عالم وله بكل صفة حكم فمعلوم أن المتحد ان كان هو الذات المتصفة فالصفات كلها تابعة لها فانه اذا تدرع زيد الطبيب الحاسب الكاتب درعا كانت الصفات كلها قائمة به وان كان المتــدرع صفة دون صفة عاد المحذور وان قالوا المتدرع الذات بصفة دون صفة لزم افتراق الصفتين وهذا ممتنع فان الصــفات القائمة بموصوف واحد وهى لازمة له لاتفترق وصــفات المخلوقين قد يمكن عدم بعضها مع بقاء الباقى بخلاف صــفات الرب تعالى الرابع ان المسيح نفسه ليس هو كلمة الله ولا شــيأ من صفاته بل هو مخلوق بكلمة الله وسمى كلمة لانه خلق بكن من غير الحبل المعتاد كما قال تعالى (ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) وقال تعالى (ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون) ولو قدر أنه نفسه كلام الله كالتوراة والانجيل وسائر كلام الله لم يكن كلام الله ولا شئ من صــفاته خالقا ولا ربا ولا الها فالنصارى اذا قالوا ان المسيح هو الخالق كانوا ضالين من جهة جعل الصفة خالقة ومن جهة جعله هو نفس الصفة وانمــا هو مخلوق بالكلمة ثم قولهم بالتثليث وان الصفات ثلاث باطل وقولهم أيضا بالحلول والاتحاد باطل

فقولهم يظهر بطلانه من هذه الوجوه وغيرها فلو قالوا ان الرب له صفات قائمة به ولم يذكروا اتحادا ولا حلولا كان هذا قول جماهير المسلمين المثبتين للصفات وان قالوا ان الصفات أعيان قائمة بنفسها فهذا مكابرة فهم يجمعون بين المتناقضين وأيضا فجعلهم عدد الصفات ثلاثة باطل فان صفات الرب أكثر من ذلك فهو سبحانه موجود حي عليم قدير والاقانيم عندهم التى جعلوها الصفات ليست الا ثلاثة ولهذا تارة يفسرونها بالوجود والحياة والعلم وتارة يفسرونها بالوجود والقدرة والعلم واضطرابهم كثير فان قولهم في نفسه باطل ولا يضبطه عقل عاقل ولهذا يقال لو اجتمع عشرة من النصارى لافترقوا على احد عشر قولا وأيضا فكلمات الله كثيرة لانهاية لها كما قال سبحانه وتعالى (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا) وهذا قول جماهير الناس من المسلمين وغير المسلمين وهذا مذهب سلف الأمة الذين يقولون لم يزل سبحانه متكلما بمشيئته وقول من قال أنه لم يزل قادرا على الكلام لكن تكلم بمشيئته كلاما قائما بذاته حادثا وقول من قال كلامه مخلوق في غيره وأما من قال كلامه معناه شئ واحد قديم العين فهؤلاء منهم من يقول انه أمور لانهاية لها مع ذلك ومنهم من يقول بل هو معنى واحد ولكن العبارات عنه متعددة وهؤلاء يمتنع عندهم أن يكون ذلك المعنى قائما بغير الله وانما يقوم بغيره عندهم العبارات المخلوقة ويمتنع أن يكون المسيح شيأ من تلك العبارات فلا يمتنع أن يكون المسيح غير كلام الله على قول هؤلاء وعلى قول الجمهور أشد امتناعا لان كلمات الله كثيرة والمسيح ليس هو جميعها بل ولا مخلوقا بجميعها وانما خلق بكلمة منها وليس هو عين تلك الكلمة فان الكلمة صفة من الصفات والمسيح عين قائم بنفسه ثم يقال لهم تسميتكم العلم والكلمة ولدا وابنا تسمية باطلة باتفاق العلماء والعقلاء ولم ينقل ذلك عن أحد من الانبياء قالوا لان الذات يتولد عنها العلم والكلام كما يتولد ذلك عن نفس الرجل العالم منها فيتولد من ذاته العلم والحكمة والكلام فلهذا سميت الكلمة ابنا قيل هذا باطل من وجوه أحدها ان صفاتنا حادثة تحدث بسبب تعلمنا ونظرنا وفكرنا واستدلالنا وأما كلمة الرب وعلمه فهو قديم لازم لذاته فيمتنع أن يوصف بالتولد الا أن يدعى المدعى ان كل صفة لازمة لموصوفها متولدة عنه وهى ابن له ومعلوم ان هذا من أبطل الامور في العقول واللغات فان حياة الانسان ونطقه وغير ذلك من صفاته اللازمة له لايقال انها متولدة عنه وانها ابن له وأيضا فيلزم أن تكون حياة

الرب أيضا ابنه ومتولدة وكذلك قدرته والا فما الفرق بين تولد العلم وتولد الحياة والقدرة وغير ذلك من الصفات وثانيهما أن هذا ان كان من باب تولد الجواهر والاعيان القائمة بنفسها فلا بد له من أصلين ولا بد أن يخرج من الاصل جزء وأما علمنا وقولنا فليس عينا قائما بنفسه وان كان صفة قائمة بموصوف وعرضا قائما في محل كعلمنا وكلامنا فذاك أيضا لايتولد الا عن أصلين ولا بد له من محل يتولد فيه والواحد منا لايحدث له العلم والكلام الا بمقدمات تتقدم على ذلك وتكون أصلا للفرع ويحصل العلم والكلام في محل لم يكن حاصلا فيه قبل ذلك فان قلتم ان علم الرب كذلك لزم أن يصير عالما بالاشياء بعد أن لم يكن عالما بها وأن تصير ذاته متكلمة بعد أن لم يكن متكلما وهذا مع انه كفر عند جماهير الامم من المسلمين والنصارى وغيرهم فهو باطل في صريح العقل فان الذات التى لاتكون عالمة يمتنع أن تجعل نفسها عالمة بلا أحد يعلمها والله تعالى يمتنع عليه أن يكون متعلما من خلقه وكذلك الذات التى تكون عاجزة عن الكلام يمتنع أن تصير قادرة عليه بلا احد يجعلها قادرة والواحد منها لايولد جميع علومه بل ثم علوم خلقت فيه لايستطيع دفعها فاذا نظر فيها حصلت له علوم أخرى فلا يقول أحد من بنى آدم ان الانسان يولد علومه كلها ولا يقول أحد انه يجعل نفسه متكلمة بعد أن لم تكن متكلمة بل الذى يقدر على النطق هو الذى أنطق كل شئ فان قالوا ان الرب يولد بعض علمه وكلامه دون بعض بطل تسمية العلم الذى هو الكلمة مطلقا الابن وصار لفظ الابن انما يسمى به بعض علمه أو بعض كلامه وهم يدعون ان المسيح هو الكلمة وهو أقنوم العلم مطلقا وذلك ليس متولدا عنه كله ولا يسمى كله ابنا باتفاق العقلاء وثالثها أن يقال تسمية علم العالم وكلامه ولدا له لايعرف في شئ من اللغات المشهورة وهو باطل بالعقل فان علمه وكلامه كقدرته وعلمه فان جاز هذا جاز تسمية صفات الانسان كلها الحادثة متولدات عنه له وتسميتها أبناءه ومن قال من أهل الكلام القدرية ان العلم الحاصل بالنظر متولد عنه فهو كقوله ان الشبع والرى متولد عن الاكل والشرب ثم لايقول ان العلم ابنه وولده كما لايقول ان الشبع والرى ابنه ولا ولده لان هذا من باب تولد الاعراض والمعانى القائمة بالانسان وتلك لايقال انها أولاده وأبناؤه ومن استعار فقال بنيات فكره فهو كما يقال بنيات الطريق ويقال ابن السبيل ويقال لطير الماء ابن ماء وهذه تسمية مقيدة قد عرف أنها ليس المراد بها ماهو المعقول من الاب والابن والوالد والولد وأيضا فكلام الانبياء ليس في

Digitized by Google

شيء منه تسمية شيء من صفات الله ابنا فمن حمل شيأ من كلام الأنبياء على ذلك فقد كذب عليهم وهذا مما يقربه علماء النصارى وما وجد عندهم من لفظ الابن في حق المسيح واسرائيل وغيرهما هو اسم للمخلوق لا للشيء من صفات الخالق والمراد به انه مكرم معظم ورابعها أن يقال فاذا قدر ان الامر كذلك فالذى حصل للمسيح ان كان هو ماعلمه الله اياه من علمه وكلامه فهذا موجود لسائر النبيين فلامعنى لتخصيصه بكونه ابن الله وان كان هو ان العلم والكلام اله اتحد به فيكون العلم والكلام جوهرا قائما بنفسه فان كان هو الاب فيكون المسيح هو الاب وان كان العلم والكلام جوهرا آخر فيكون الهان قائمان بأنفسهما فتبين فساد ماقالوه بكل وجه • وخامسها أن يقال من المعلوم عند الخاصة والعامة ان المعنى الذى خص به المسيح انما هو ان خلق من غير أب فلما لم يكن له أب من البشر جعل النصارى الرب أباه وبهذا ناظر نصارى نجران النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا ان لم يكن هو ابن الله فقل لنا فمن أبوه فعلم ان النصارى انما ادعوا فيه البنوة الحقيقية وان ماذكر من كلام علمائهم هو تأويل منهم للمذهب ليزيلوا به الشناعة التى لايبلغها عاقل والا فليس في جعله ابن الله وجه يختص به معقول فعلم ان النصارى جعلوه ابن الله وان الله أحبل مريم والله هو أبوه وذلك لايكون الا بانزال جزء منه فيها وهو سبحانه الصمد ويلزمهم أن تكون مريم صاحبة وزوجة له ولهذا يتولونها كما أخبر الله عنهم وأى معنى ذكروه في بنوة عيسى غير هذا لم يكن فيه فرق بين عيسى وبين غيره ولاصار فيه معنى البنوة بل قالوا كما قال بعض مشركى العرب انه صاهر الجن فولدت له الملائكة واذا قالوا اتخذه ابنا على سبيل الاصطفاء فهذا هو المعنى الفعلى وسيأتى ان شاء الله تعالى ابطاله وقوله تعالى (وروح منه) ليس فيه ان بعض الله صار في عيسى بل من لابتداء الغاية كما قال (وسخر لكم مافي السموات وما في الارض جميعا منه) وقال (وما بكم من نعمة فمن الله) وما أضيف الى الله أو قيل هو منه فعلى وجهين ان كان عينا قائمة بنفسها فهو مملوك له ومن لابتداء الغاية كما قال تعالى (فأرسلنا اليها روحنا) وقال في المسيح (وروح منه) وما كان صفة لايقوم بنفسه كالعلم والكلام فهو صفة له كما يقال كلام الله وعلم الله وكما قال (نزله روح القدس من ربك بالحق) وقال (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق) وألفاظ المصادر يعبر بها عن المفعول فيسمى المأمور به أمرا والمقدور قدرة والمرحوم به رحمة والمخلوق بالكلمة كلمة فاذا قيل في المسيح انه كلمة الله فالمراد به انه خلق

Digitized by Google

بكلمته ثم بقوله كن ولم يخلق على الوجه المعتاد من البشر والا فعيسى بشر قائم بنفسه ليس هو كلاما صفة للمتكلم يقوم به وكذلك اذا قيل عن المخلوق انه أمر الله فالمراد ان الله كونه بأمره كقوله (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) وقوله (فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل) فالرب تعالى أحد صمد لايجوز أن يتبعض ويتجزأ فيصير بعضه في غيره سواء سمى ذلك روحا أو غيره فبطل مايتوهمه النصارى من كونه ابنا له وتبين انه عبد من عباد الله وقد قيل منشأ ضلال القوم انه كان في لغة من قبلنا يعبر عن الرب بالاب وبالابن عن العبد المربى الذى يربه الله ويربيه فقال المسيح عمدوا الناس باسم الاب والابن وروح القدس فأمرهم أن يؤمنوا بالله ويؤمنوا بعبده ورسوله المسيح ويؤمنوا بروح القدس جبريل فكانت هذه الاسماء لله ولرسوله الملكى ورسوله البشرى قال الله تعالى (الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس) وقد أخبر تعالى في غير آية انه أيد المسيح بروح القدس وهو جبريل عند جمهور المفسرين كقوله تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس) فعند جمهور المفسرين ان روح القدس هو جبريل هذا قول ابن عباس وقتادة والضحاك والسدى وغيرهم ودليل هذا قوله (واذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا انما أنت مفتر بل أكثرهم لايعلمون قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين) وروى الضحاك عن ابن عباس انه الاسم الذى كان يحيي به الموتى وعن عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم انه الانجيل وقال تعالى (أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه) وقال تعالى (وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ماكنت تدرى ماالكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا) وقال تعالى (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده) فما ينزله الله في قلوب أنبيائه ماتحيي به قلوبهم من الايمان الخالص يسميه روحا وهو مايؤيد الله به المؤمنين من عباده فكيف بالمرسلين والمسيح من أولى العزم فهو أحق بهذا من جمهور الرسل والانبياء وقال تعالى (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم فوق بعض درجات وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس) وقد ذكر الزجاج في تأييده ثلاثة أوجه أحدها انه أيده به لاظهار أمره ودينه الثانى لدفع بنى اسرائيل عنه اذ أرادوا قتله الثالث انه أيد في جميع أحواله ومما يبين ذلك ان لفظ الابن في

Digitized by Google

لغتهم ليس مختصا بالمسيح بل عندهم ان الله قال في التوراة لاسرائيل أنت ابنى بكرى والمسيح كان يقول أبى وأبيكم فيجعله أبا للجميع ويسمى غيره ابنا له كما يسمى هو ابنا له فعلم أنه لا اختصاص للمسيح بذلك ولكن النصارى يقولون هو ابنه بالطبع وغيره ابنه بالوضع فيفرقون فرقا لا دليل عليه ثم قولهم هو ابن بالطبع يلزم عليه من المحالات عقلا وسمعا مايبين بطلانه

﴿ فصل ﴾ وأما مايقوله الفلاسفة القائلون بان العالم قديم صدر عن علة موجبة بذاته وانه صدر عنه عقل ثم عقل ثم عقل الى تمام عشرة عقول وتسعة أنفس وقد يجعلون العقل بمنزلة الذكر والنفس بمنزلة الانثى فهؤلاء قولهم أفسد من قول مشركى العرب وأهل الكتاب عقلا وشرعا ودلالة القرآن على فساده أبلغ وذلك من وجوه أحدها ان هؤلاء يقولون بقدم الافلاك وقدم هذه الروحانيات التى يثبتونها ويسمونها المجردات والمفارقات والجواهر العقلية وان ذلك لم يزل قديما أزليا وما كان قديما أزليا امتنع أن يكون مفعولا بوجه من الوجوه ولا يكون مفعولا الا ما كان حادثا وهذه قضية بديهية عند جماهير العقلاء وعليها الأولون والآخرون من الفلاسفة وسائر الامم ولهذا كان جماهير الامم يقولون كل ممكن أن يوجد وأن لا يوجد فلا يكون الا حادثا وانما ادعى وجود ممكن قديم معلول طائفة من المتأخرين كابن سينا ومن وافقه زعموا ان الفلك قديم معلول لعلة قديمة وأما الفلاسفة القدماء فمن كان منهم يقول بحدوث الفلك وهم جمهورهم ومن كان قبل ارسطو فهؤلاء موافقون لاهل الملل ومن قال بقدم الفلك كارسطو وشيعته فانما يثبتون له علة غائية يتشبه الفلك بها لا يثبتون له علة فاعلة وما يثبتونه من العقول والنفوس فهو من جنس الفلك كل ذلك قديم واجب بنفسه وان كان له علة غائية وهؤلاء أكفر من هؤلاء المتأخرين لكن الغرض أن يعرف ان قول هؤلاء ليس قول أولئك الثانى ان هؤلاء يقولون الرب واحد والواحد لا يصدر عنه الا واحد ويعنون بكونه واحدا انه ليس له صفة ثبوتية أصلا ولا يعقل فيه معان متعددة لان ذلك عندهم تركيب ولهذا يقولون لا يكون فاعلا وقابلا لان جهة الفعل غير جهة القبول وذلك يستلزم تعدد الصفة المستلزم للتركيب ومع هذا يقولون انه عاقل ومعقول وعقل وعاشق ومعشوق وعشق ولذيذ وملتذ ولذة الى غير ذلك من المعانى المتعددة ويقولون ان كل واحد من هذه الصفات هى الصفة الأخرى والصفة هى الموصوف والعلم هو القدرة وهو الارادة والعلم هو العالم وهو

القادر ومن المتأخرين منهم من قال العلم هو المعلوم فاذا تصور العاقل أقوالهم حق التصور تبين له ان هذا الواحد الذى أثبتوه لا يتصور وجوده الا في الاذهان لا في الاعيان وقد بسط الكلام عليه وبين فساد مايقولونه في التوحيد والصفات وبين فساد شبه التركيب من وجوه كثيرة في مواضع غير هذا واذا كان كذلك فالاصل الذى بنوا عليه قولهم ان الواحد لا يصدر عنه الا واحد أصل فاسد الثالث أن يقال قولهم بصدور الاشياء معما فيها من الكثرة والحدوث عن واحد بسيط في غاية الفساد * الرابع أنه لا يعلم في العالم واحد بسيط صدر عنه شيء لا واحد ولا اثنان فهذه الدعوة الكلية لا يعلم ثبوتها في شيء أصلا الخامس أنهم يقولون صدر عنه واحد وعن ذلك الواحد عقل ونفس وفلك فيقال ان كان الصادر عنه واحدا من كل وجه فلا يصدر عن هذا الواحد الا واحد أيضا فيلزم أن يكون كل مافي العالم انما هو واحد عن واحد فهو مكابرة وان كان في الصادر الاول كثرة مابوجه من الوجوه فقد صدر عن الأول مافيه كثرة ليس واحدا من كل وجه فقد صدر عن الواحد ماليس بواحد ولهذا اضطرب متأخروهم فأبو البركات صاحب المعتبر أبطل هذا القول ورده غاية الرد وابن رشد الحفيد زعم ان الفلك بما فيه صادر عن الاول والطوسى وزير الملاحدة يقرب من هذا فجعل الاول شرطا في الثانى والثانى شرطا في الثالث وهم مشتركون في الضلال وهو اثبات جواهر قائمة بنفسها أزلية مع الرب لم تزل ولا تزال معه لكن مسبوقة بعدم وجعل الفلك أيضا قديما أزليا وهذا وحده فيه من مخالفة صريح المعقول والكفر بما جاءت به الرسل مافيه كفاية فكيف اذا ضم اليه غير ذلك من أقاويلهم المخالفة للعقل والنقل * الوجه السادس ان الصوادر المعلومة في العالم انما تصدر عن اثنين وأما واحد وحده فلا يصدر عنه شيء كما تقدم التنبيه عليه في المتولدات من الاعيان والاعراض وكل مايذكرونه من صدور الحرارة عن الحار والبرودة عن البارد والشعاع عن الشمس وغير ذلك فانما هو صدور اعراض ومع هذا فلا بد لها من أصلين وأما صدور الاعيان عن غيرها فهذا لا يعلم الا بالولادة المعروفة وتلك لا تكون الا بانفصال جزء من الاصل وهذا الصدور والتولد والمعلولية التى يدعونها في العقول والنفوس والافلاك يقولون انها جواهر قائمة بأنفسها صدرت عن جوهر واحد بسيط فهذا من أبطل قول قيل في الصدور والتولد لان فيه صدور جواهر عن جوهر واحد وهذا لا يعقل وفيه صدوره من غير جزء منفصل من الاصل وهذا

Digitized by Google

لا يعقل وهم غاية ماعندهم أن يشبهوا هذا بحدوث بعض الاعراض كالشعاع عن الشمس وحركة الخاتم عن حركة اليد وهذا تمثيل باطل لان تلك ليست علة فاعلة وانما هو شرط فقط والصادر هناك لم يكن عن أصل واحد بل عن أصلين والصادر عرض لاجوهر قائم بنفسه فتبين ان ماذكره هؤلاء من التولد العقلي الذي يدعونه من أبعد الامور عن التولد والصدور وهو أبعد من قول النصارى ومشركي العرب وهم جعلوا مفعولاته بمنزلة صفة أزلية لازمة لذاته وقد ذكرنا أن هذا مما يمتنع أن يقال فيه انه متولد عنه وحينئذ فهم في دعواهم الهية العقول والنفوس والكواكب أكفر من هؤلاء ومن جعل من المنتسبين الى الملل منهم هؤلاء هم الملكية فقوله في جعل الملائكة متولدين عن شيء من قول العرب وعوام النصارى فان أولئك أثبتوا ولادة حسية وكونه صمدا يبطلها لكن ماأثبتوه معقول وهؤلاء ادعوا تولدا عقليا باطلا من كل وجه أبطل مما ادعته النصارى من تولد الكلمة عن الذات فكان نفي ماادعوه أولى من نفي ماادعاه أولئك لان المحال الذي يعلم امتناعه في الخارج لايمكن تصوره موجودا في الخارج فانه يمتنع وجوده في الخارج وذلك انما يمكن اذا كان له نظير من بعض الوجوه فيقدر له في الوجود الخارجي مايشبهه كما اذا قدر مع الله الها آخر وقدر أن له ولدا فانه يشبه من له ولد من العباد ومن له شريك من العباد ثم يبين امتناع ذلك عليه فكل ماكان المحال أبعد عن مشابهة الموجود كان أعظم استحالة والولادة التي ادعتها النصارى ثم هؤلاء الفلاسفة أبعد عن مشابهة الولادة المعلومة من الولادة التي ادعاها بعض مشركي العرب وعوام النصارى واليهود فكانت هذه الولادة العقلية أشد استحالة من تلك الولادة الحسية اذ الولادة الحسية تعقل في الاعيان القائمة بنفسها وأما الولادة العقلية فلا تعقل في الاعيان أصلا وأيضا فأولئك أثبتوا ولادة من أصلين وهذا هو الولادة المعقولة وهؤلاء أثبتوا ولادة من أصل واحد وأولئك أثبتوا ولادة بانفصال جزء وهذا معقول وهؤلاء أثبتوا ولادة بدون ذلك وهو لايعقل وأولئك أثبتوا ولادة قاسوها على ولادة الاعيان للاعيان وهؤلاء أثبتوا ولادة قاسوها على تولد الاعراض عن الاعيان فعلم ان قول أولئك أقرب الى المعقول وهو باطل كما بين الله فساده وأنكره فقول هؤلاء أولى بالبطلان وهذا كما ان الله اذا كفر من أثبت مخلوقا يتخذ شفيعا معبودا من دون الله فمن أثبت قديما دون الله يعبد ويتخذ شفيعا كان أولى بالكفر ومن أنكر المعاد مع قوله بحدوث هذا العالم

فقد كفره الله فمن أنكره مع قوله بقدم هذا العالم فهو اعظم كفرا عند الله وهذا كما
ان النبي صلى الله عليه وسلم لما نهى أمته عن مشابهة فارس والروم النصارى فنهيه عن
عن مشابهة اليونان المشركين والهند المشركين أعظم وأعظم واذا كان مادخل في بعض
المسلمين من مشابهة اليهود والنصارى وفارس والروم مذموما عندالله ورسوله فما
دخل من مشابهة اليونان والهند والترك المشركين وغيرهم من الامم الذين هم أبعد
عن الاسلام من أهل الكتاب ومن فارس والروم أولى أن يكون مذموما عند الله
تعالى وأن يكون ذمه أعظم من ذاك فهؤلاء الامم الذين ابتلى بهم أواخر المسلمين شر
من الامم الذين ابتلي بهم أوائل المسلمين وذلك لأن الاسلام كان أهله أعظم علما ودينا
فاذا ابتلى بمن هو أرجح من هؤلاء غلبهم المسلمون لفضل علمهم ودينهم وأما هؤلاء
المتأخرون المسلمون وان كانوا أنقص من سلفهم فانه يظهر رجحانهم على هؤلاء
لعظم بعدهم عن الاسلام ولكن لما كثرت البدع من متأخرى المسلمين استطال عليهم
من استطال من هؤلاء ولبسوا عليهم دينهم وصارت شبه الفلاسفة أعظم عند هؤلاء
من غيرهم كما صار قتال الترك الكفار أعظم من قتال من كان قبلهم عند أهل الزمان
لانهم انما ابتلوا بسيوف هؤلاء وألسنة هؤلاء وكان فيهم من نقص الايمان ماأورث
ضعفا في العلم والجهاد كما كان كثير من العرب في زمن النبي صلى الله عليه وسلم فهذا
هذا ومما يبين هذا أن مشركى العرب واليهود والنصارى يقولون ان الله خلق
السموات والارض بمشيئته وقدرته بل يقولون انه خالق ذلك في ستة أيام وهؤلاء
المتفلسفة عندهم لم يحدثها بعد ان لم تكن فضلا عن أن يكون ذلك في ستة أيام ثم
يلبسون على المسلمين فيقولون العالم محدث يعنون بحدوثه انه معلول علة قديمة فهو
بمنزلة قولهم متولد عن الله لكن هو أمر لاحقيقة له ولا يعقل وأيضا فمشركوا العرب
وأهل الكتاب يقرون بالملائكة وان كان كثير منهم يجعلون الملائكة والشياطين
نوعا واحدا فمن خرج منهم عن طاعة الله أسقطه وصار شيطانا وينكرون أن يكون
ابليس كان أبا الجن وأن يكون الجن ينكحون ويولدون ويأكلون ويشربون فهؤلاء
النصارى الذين ينكرون هذا مع كفرهم هم خير من هؤلاء المتفلسفة فان هؤلاء
لاحقيقة للملائكة عندهم الا مايثبتونه من العقول والنفوس أو من اعراض تقوم
بالاجسام كالقوى الصالحة وكذلك الجن جمهور أولئك يثبتونها فان العرب كانت تثبت
الجن وكذلك أكثر أهل الكتاب وهؤلاء لايثبتونها ويجعلون الشياطين القوى

الفاسدة وأيضا فمشركوا العرب مع أهل الكتاب يدعون الله ويقولون انه يسمع دعاءهم ويجيبهم وهؤلاء عندهم لايعلم شيأ من جزئيات العالم ولا يسمع دعاء أحد ولا يجيب أحدا ولا يحدث في العالم شيأ ولا سبب للحدوث عندهم الا حركات الفلك والدعاء عندهم يؤثر لانه تصرف النفس الناطقة في هيولى العالم وقد ثبت في الصحيح من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال يقول الله عزوجل شتمنى ابن آدم وما ينبغى له ذلك وكذبنى ابن آدم وما ينبغى له ذلك فاما شتمه اياى فقوله انى اتخذت ولدا وأنا الاحد الصمد الذى لم ألد ولم أولد ولم يكن لى كفوا أحد وأما تكذيبه اياى فقوله لن يعيدنى كما بدأنى وليس أول الخلق بأهون علىّ من اعادته وهذا وان كان متناولا قطعا لكفار العرب الذين قالوا هذا وهذا كما قال تعالى (ويقول الانسان ائذا مامت لسوف أخرج حيا) الى قوله (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيأ ادّا تكاد السموات يتفطرن منه) فذكر هذا وهذا فتناول النصوص لهؤلاء بطريق الاولى فان هؤلاء ينكرون الاعادة والابتداء أيضا فلا يقولون ان الله ابتدأ خلق السموات والارض ولا كان للبشر ابتداء أولهم آدم وأما شتمهم اياه بقولهم اتخذ ولدا فهؤلاء هم عندهم الفلك كله لازم له معلول له أعظم من لزوم الولد والده والوالد له اختيار وقدرة في حدوث الولد منه وهؤلاء عندهم ليس لله مشيئة وقدرة في لزوم الفلك له بل ولا يمكنه ان يدفع لزومه عنه فالتولد الذى يثبتونه أبلغ من التولد الموجود في الخلق ولا يقولون انه اتخذ ولدا بقدرته فانه لايقدر عندهم على تغيير شئ من العالم بل ذلك لازم له لزوما حقيقته انه لم يفعل شيأ بل ولا هو موجود وان سموه علة ومعلولا فعند التحقيق لايرجعون الى شئ محصل فان في قولهم من التناقض والفساد أعظم مما في قول النصارى وقد ذكر طائفة من أهل الكلام ان قولهم بالعلة والمعلول من جنس قول غيرهم بالوالد والولد وأرادوا بذلك أن يجعلوهم من جنسهم في الذم وهذا تقصير عظيم بل أولئك خير من هؤلاء وهؤلاء اذا حققت مايقوله من هو أقربهم الى الاسلام كابن رشد الحفيد وجدت غايته ان يكون الرب شرطا في وجود العالم لافاعلا له وكذلك من سلك مسلكهم من المدعين للتحقيق من ملاحدة الصوفية كابن عربى وابن سبعين حقيقة قولهم ان هذا العالم موجود واجب أزلى ليس له صانع غير نفسه وهم يقولون الوجود واحد وحقيقة قولهم انه ليس في الوجود خالق خلق موجودا آخر وكلامهم في المعاد والنبوات شر من كلام اليهود

Digitized by Google

والنصارى وعباد الاصنام فان هؤلاء يجوزون عبادة كل صنم في العالم لايخصون بعض الاصنام بالعبادة

﴿ فصل ﴾ وقد احتج بسورة الاخلاص من أهل الكلام المحدث من يقول الرب تعالى جسم كبعض الذين وافقوا هشام بن الحكم ومحمد بن كرّام وغيرهما ومن ينفي ذلك يقول ليس بجسم ممن وافق جهم بن صفوان وأبا الهذيل العلاف ونحوهما فأولئك قالوا هو صمد والصمد لاجوف له وهذا انما يكون في الاجسام المصمتة فانها لاجوف لها كما في الجبال والصخور وما يصنع من عواميد الحجارة فكما قيل ان الملائكة صمد ولهذا قيل انه لايخرج منه شئ ولا يدخل فيه شئ ولا يأكل ولا يشرب ونحو ذلك ونفي هذا لايعقل الا عما هو جسم وقالوا أصل الصمد الاجتماع ومنه تصميد المال وهذا انما يعقل في الجسم المجتمع وأما النفاة فقالوا الصمد الذى لايجوز عليه التفرق والانقسام وكل جسم في العالم يجوز عليه التفرق والانقسام وقالوا أيضا الاحد الذى لايقبل التجزى والانقسام وكل جسم في العالم يجوز عليه التفرق والتجزى والانقسام وقالوا اذا قلتم هو جسم كان مركبا مؤلفا من الجواهر الفردة أو من المادة والصورة وما كان مركبا مؤلفا من غيره كان مفتقرا اليه وهو سبحانه صمد والصمد الغنى عما سواه فالمركب لايكون صمدا فيقال أما القول بانه سبحانه مركب مؤلف من أجزاء وانه يقبل التجزى والانقسام والانفصال فهذا باطل شرعا وعقلا فان هذا ينافي كونه صمدا كما تقدم وسواء أريد بذلك انه كانت الاجزاء متفرقة ثم اجتمعت أو قيل انها لم تزل مجتمعة لكن يمكن انفصال بعضها عن بعض كما في بدن الانسان وغيره من الاجسام فان الانسان وان كان لم يزل مجتمع الاعضاء لكن يمكن أن يفرق بين بعضه وبعض والله منزه عن ذلك ولهذا قدمنا ان كمال الصمدية له فان هذا انما يجوز على مايجوز أن يفنى بعضه أو يعدم وما قبل العدم لم يكن واجب الوجود بذاته ولا قديما أزليا فان ماوجب قدمه امتنع عدمه وكذلك صفاته التى لم يزل موصوفا بها وهى من لوازم ذاته فيمتنع أن يعدم اللازم الا مع عدم الملزوم وهذا قال من قال من السلف الصمد هو الدائم وهو الباقى بعد فناء خلقه فان هذا من لوازم الصمدية اذ لو قبل العدم لم تكن صمديته لازمة له بل جاز عدم صمديته فلا يبقى صمدا ولا تنتفى عنه الصمدية الا بجواز العدم عليه وذلك محال فلا يكون مستوجبا للصمدية الا اذا كانت لازمة له وذلك ينافي عدمه وهو مستوجب للصمدية لم يصر صمدا بعد ان لم

Digitized by Google

يكن تعالى وتقدس * فان ذلك يقتضى انه كان متفرقا فجمع وانه مفعول محدث مصنوع وهذه صفة مخلوقاته وأما الخالق القديم الذى يمتنع عليه أن يكون معدوما أو مفعولا أو محتاجا الى غيره بوجه من الوجوه فلا يجوز عليه شئ من ذلك فعلم أنه لم يزل صمدا ولا يزال صمدا فلا يجوز أن يقال كان متفرقا فاجتمع ولا أنه يجوز أن ينفرق بل ولا ان يخرج منه شئ ولا يدخل فيه شئ وهذا مما هو متفق عليه بين طوائف المسلمين سنيهم وبدعيهم وان كان أحد من الجهال أو من لا يعرف قد يقول خلاف ذلك فمثل هؤلاء لا تنضبط خيالاتهم الفاسدة كما أنه ليس في طوائف المسلمين من يقول أنه مولود ووالد وان كان هذا قد قاله بعض الكفار وقد قال المتفلسفة المنسوبون الى الاسلام من التولد والتعليل ماهو شر من قول أولئك وأما اثبات الصفات له وانه يرى في الآخرة وانه يتكلم بالقرآن وغيره وكلامه غير مخلوق فهذا مذهب الصحابة والتابعين لهم باحسان وأئمة المسلمين وأهل السنة والجماعة من جميع الطوائف والخلاف في ذلك مشهور مع الجهمية والمعتزلة وكثير من الفلاسفة والباطنية * وهؤلاء يقولون ان اثبات الصفات يوجب أن يكون جسما وليس بجسم فلا تثبت له الصفات قالوا لان المعقول من الصفات اعراض قائمة بجسم لا تعقل صفته الا كذلك قالوا والرؤية لا تعقل الا مع المداينة فالمعاينة لا تكون الا اذا كان المرئى بجهة ولا يكون بجهة الا ماكان جسما قالوا ولانه لو قام به كلام أو غيره للزم أن يكون جسما فلا يكون الكلام المضاف اليه الا مخلوقا منفصلا عنه وهذه المعانى مما ناظروا بها الامام أحمد في المحنة وكان ممن احتج على ان القرآن مخلوق بنفى التجسيم أبو عيسى محمد بن عيسى برغوث تلميذ حسين النجار وهو من أكابر المتكلمين فان ابن أبى داود كان قد جمع للامام أحمد من أمكنه من متكلمى البصرة وبغداد وغيرهم ممن يقول ان القرآن مخلوق * وهذا القول لم يكن مختصا بالمعتزلة كما يظنه بعض الناس فان كثيرا من أولئك المتكلمين أو أكثرهم لم يكونوا معتزلة وبشر المريسى لم يكن من المعتزلة بل فيهم نجارية ومنهم برغوث * وفيهم ضرارية وحفص الفرد الذى ناظر الشافعى كان من الضرارية اتباع ضرار بن عمرو * وفيهم مرجئة ومنهم بشر المريسى * ومنهم جهمية محضة * ومنهم معتزلة * وابن أبى داود لم يكن معتزليا بل كان جهميا ينفى الصفات والمعتزلة تنفى الصفات فنفاة الصفات الجهمية أعم من المعتزلة فلما احتج عليه برغوث بانه لو كان يتكلم ويقوم به الكلام لكان جسما وهذا منفى عنه * وأحمد وأمثاله من السلف

كانوا يعلمون ان هذه الالفاظ التي ابتدعها المتكلمون كلفظ الجسم وغيره ينفيها قوم ليتوصلوا بنفيها الى نفي ماأثبته الله تعالى ورسوله ويثبتها قوم ليتوصلوا باثباتها الى اثبات مانفاه الله ورسوله فالأول طريقة الجهمية من المعتزلة وغيرهم ينفون الجسم حتى يتوهم المسلمون ان قصدهم التنزيه ومقصودهم بذلك ان الله لايرى في الآخرة وانه لم يتكلم بالقرآن ولا غيره بل خلق كلاما في غيره وانه ليس له علم يقوم به ولا قدرة ولا حياة ولا غير ذلك من الصفات قال الامام أحمد في خطبته في الرد على الجهمية والزنادقة الحمد لله الذى جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايامن أهل العلم يدعون من ضل الى الهدى ويصبرون منهم على الأذى يحيون بكتاب الله الموتى ويبصرون بنوره أهل العمى فكم من قتيل لابليس قد أحيوه وكم ضال تائه قدهدوه فما أحسن أثرهم على الناس وأقبح أثر الناس عليهم ينفون عن كتاب الله تحريف الضالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين الذين عقدوا ألوية البدعة وأطلقوا عنان الفتنة فهم مختلفون في كتاب مجتمعون على مخالفة الكتاب يقولون على الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علم يتكلمون بالمتشابه من الكلام ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم فنعوذ بالله من فتن الضالين *والثانية طريقة هشام وأتباعه يحكي عنهم انهم أثبتوا ماقد نزه الله نفسه عنه من اتصافه بالنقائص ومماثلته للمخلوقات فأجابهم الامام أحمد بطريقة الانبياء وأتباعهم وهو الاعتصام بكتاب الله الذى قال فيه (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا) وقال (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ماجاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم) وقال تعالى (المص كتاب أنزل اليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين اتبعوا ماأنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ماتذكرون) وقال تعالى (فاما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك اتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) وقال تعالى (ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون

Digitized by Google

بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) وقال (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله ان الله سميع عليم يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) وقال (ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا فكيف اذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاؤك يحلفون بالله ان أردنا الا احسانا وتوفيقا أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله ولو انهم اذ ظلموا أنفسهم جاؤك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) وقوله تعالى (وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) وقوله تعالى (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شئ انما أمرهم الى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون) وقوله تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون منيبين اليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون) وقوله (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) فهذه النصوص وغيرها تبين ان الله أرسل الرسل وأنزل الكتب لبيان الحق من الباطل وبيان ما اختلف فيه الناس وأن الواجب على الناس اتباع ما أنزل اليهم من ربهم ورد ما يتنازعون فيه الى الكتاب والسنة وان من لم يتبع ذلك كان منافقا وان من اتبع الهدى الذى جاءت به الرسل فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذلك حشر ضالا شقيا معذبا وأن الذين فارقوا دينهم قد برئ الله ورسوله منهم فاتبع الامام أحمد طريقة سلفه من ائمة السنة والجماعة المعتصمين بالكتاب والسنة المتبعين ما أنزل اليهم من ربهم وذلك أن ننظر فما وجدنا الرب قد أثبته لنفسه في كتابه أثبتناه وما وجدناه قد نفاه عن نفسه نفيناه وكل لفظ وجد في الكتاب والسنة بالاثبات أثبت ذلك اللفظ وكل لفظ وجد منفيا نفي ذلك

Digitized by Google

اللفظ وأما الالفاظ التي لاتوجد في الكتاب والسنة بل ولا في كلام الصحابة والتابعين لهم باحسان وسائر أئمة المسلمين لااثباتها ولا نفيها وقد تنازع فيها الناس فهذه الالفاظ لاتثبت ولا تنفى الا بعد الاستفسار عن معانيها فان وجدت معانيها مما أثبته الرب لنفسه أثبتت وان وجدت مما نفاه الرب عن نفسه نفيت وان وجدنا اللفظ أثبت به حق وباطل أو نفي به حق وباطل أو كان مجملا يراد به حق أو باطل وصاحبه أراد به بعضها لكنه عند الاطلاق يوهم الناس أو يفهمهم ماأراد وغير ماأراد فهذه الالفاظ لايطلق الى اثباتها ولا نفيها كلفظ الجوهر والجسم والتحيز والجهة ونحو ذلك من الالفاظ التي تدخل في هذا المعنى فقل من تكلم بها نفياأواثباتا الا وأدخل فيها باطلا وان أراد بها حقا والسلف والائمة كرهوا هذا الكلام المحدث لاشتماله على باطل وكذب وقول على الله بلا علم وكذلك ذكر أحمد في رده على الجهمية أنهم يفترون على الله فيما ينفونه عنه ويقولون عليه بغير علم وكل ذلك مما حرمه الله ورسوله ولم يكره السلف هذه لمجرد كونها اصطلاحية ولا كرهوا الاستدلال بدليل صحيح جاء به الرسول بل كرهوا الاقوال الباطلة المخالفة للكتاب والسنة ولا يخالف الكتاب والسنة الا ماهو باطل لايصح بعقل ولا سمع ولهذا لما سئل أبو العباس بن سريج عن التوحيد فذكر توحيد المسلمين وقال وأما توحيد أهل الباطل فهو الخوض في الجوهر والاعراض وانما بعث النبي صلى الله عليه وسلم بانكار ذلك ولم يرد بذلك انه أنكر هذين اللفظين فانهما لم يكونا قد أحدثا في زمنه وانما أنكر مايعنى بهما من المعاني الباطلة فان أول من أحدثها الجهمية والمعتزلة وقصدهم بذلك انكار صفات الله تعالى أو أن يرى أو أن يكون له كلام يتصف به وأنكرت الجهمية أسماءه أيضا وأول من عرف عنه انكار ذلك الجعد بن درهم فضحى به خالد بن عبد الله القسري بواسط وقال ياأيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم فاني مضح بالجعد بن درهم انه زعم ان الله لم يتخذ ابراهيم خليلا ولم يكلم موسى تكليما تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا ثم نزل فذبحه وكلام السلف والائمة في ذم هذا الكلام وأهله مبسوط في غير هذا الموضع والمقصود هنا ان أئمة السنة كأحمد بن حنبل وغيره كانوا اذا ذكرت لهم أهل البدع الالفاظ المجملة كلفظ الجسم والجوهر والحيز ونحوها لم يوافقهم لاعلى اطلاق الاثبات ولا على اطلاق النفي وأهل البدع بالعكس ابتدعوا ألفاظا ومعاني اما في النفي وأما في الاثبات وجعلوها هي الاصل المعقول المحكم الذي يجب اعتقاده والبناء عليه

Digitized by Google

ثم نظروا في الكتاب والسنة فما أمكنهم أن يتأولوه على قولهم تأولوه وإلا قالوا هذا من الالفاظ المتشابهة المشكلة التي لاندرى ماأريد بها فجعلوا بدعهم أصلا محكما وما جاء به الرسول فرعا له ومشكلا اذا لم يوافقه وهذا أصل الجهمية والقدرية وأمثالهم وأصل الملاحدة من الفلاسفة الباطنية جميع كتبهم توجد على هذا الطريق ومعرفة الفرق بين هذا وهذا من أعظم مايعلم به الفرق بين الصراط المستقيم الذى بعث الله به رسوله وبين السبيل المخالفة له وكذلك الحكم في المسائل العلمية الفقهية ومسائل أعمال القلوب وحقائقها وغير ذلك كل هذه الامور قد دخل فيها ألفاظ ومعان محدثة وألفاظ ومعان مشتركة فالواجب أن يجعل ماأنزله الله من الكتب والحكمة أصلا في جميع هذه الأمور ثم يرد ماتكلم فيه الناس الى ذلك ويبين مافي الالفاظ المجملة من المعانى الموافقة للكتاب والسنة فتقبل وما فيها من المعانى المخالفة للكتاب والسنه فترد ولهذا كل طائفة أنكر عليهاماابتدعت احتجت بما ابتدعته الأخرى كما يوجد في ألفاظ أهل الرأى والكلام والتصوف وأن يجوز أن يقال في بعض الآيات انه مشكل ومتشابه اذا ظن أنه يخالف غيره من الآيات المحكمة البينة فاذا جاءت نصوص بينة محكمة بأمر وجاء نص آخر يظن أن ظاهره يخالف ذلك يقال في هذا أنه يرد به المتشابه الى المحكم اما اذا نطق الكتاب أو السنة بمعنى واحد لم يجز أن يجعل مايضاد ذلك المعنى هو الاصل ويجعل مافي القرآن والسنة مشكلا متشابها فلا يقبل مادل عليه نعم قد يشكل على كثير من الناس نصوص لايفهمونها فتكون مشكلة بالنسبة اليهم لعجز فهمهم عن معانيها ولايجوز أن يكون في القرآن مايخالف صريح العقل أو الحس الا وفي القرآن بيان معناه فان القرآن جعله الله شفاء لما في الصدور وبيانا للناس فلا يجوز أن يكون بخلاف ذلك لكن قد تخفى آثار الرسالة في بعض الامكنة والازمنة حتى لايعرفون ماجاء به الرسول صلى الله عليه وسلم اما أن لايعرفوا اللفظ واما أن يعرفوا اللفظ ولا يعرفوا معناه فحينئذ يصيرون في جاهلية بسبب عدم نور النبوة ومن هاهنا يقع الشرك وتفريق الدين شيعا كالفتن التي تحدث بالسيف فالفتن القولية والعملية هى من الجاهلية بسبب خفاء نور النبوة عنهم كما قال مالك بن أنس اذا قل العلم ظهر الجفاء واذا قلت الآثار ظهرت الاهواء ولهذا شبهت الفتن بقطع الليل المظلم ولهذا قال أحمد في خطبته الحمد لله الذى جعل في كل زمان فترة بقايا من أهل العلم فالهدى الحاصل لاهل الارض انما هو من نور النبوة كما قال تعالى (فاما يأتينكم

Digitized by Google

منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى) فأهل الهدى والفلاح هم المتبعون للانبياء وهم المسلمون المؤمنون في كل زمان ومكان وأهل العذاب والضلال هم المكذبون للانبياء بنى أهل الجاهلية الذين لم يصل اليهم ماجاءت به الانبياء فهؤلاء في ضلال وجهل وشرك وشر لكن الله يقول (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وقال(رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) وقال (وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكى القرى الا وأهلها ظالمون)فهؤلاء لايهلكهم الله ويعذبهم حتى يرسل اليهم رسولا وقد رويت آثار متعددة في ان من لم تبلغه الرسالة في الدنيا فانه يبعث اليه رسول يوم القيامة في عرصات القيامة وقد زعم بعضهم ان هذا يخالف دين المسلمين فان الآخرة لاتكليف فيها وليس كما قال انما ينقطع التكليف اذا دخلوا دار الجزاء الجنة والنار والا فهم في قبورهم ممتحنون ومفتونون يقال لأحدهم من ربك وما دينك ومن نبيك وكذلك في عرصات القيامة يقال ليتبع كل قوم ماكانوا يعبدون فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ومن كان يعبدالقمر القمر ومن كان يعبد الطواغيت الطواغيت وتبقى هذه الامة فيها منافقوها فيأتيهم الله في صورة غير الصورة التى رأوه فيها أول مرة ويقول أنا ربكم فيقولون نعوذ بالله منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا وفي رواية فيسألهم ويثبتهم وذلك امتحان لهم هل يتبعون غير الرب الذى عرفوا أنه الله الذى تجلى لهم أول مرة فيثبتهم الله تعالى عند هذه المحنة كما يثبتهم في فتنة القبر فاذا لم يتبعوه لكونه أتى في غير الصورة التى يعرفون أتاهم حينئذ في الصورة التى يعرفون فيكشف عن ساق فاذا رأوه خروا له سجدا الا من كان منافقا فانه يريد السجود فلا يستطيعه يبقى ظهره مثل الطبق وهذا المعنى مستفيض عن النبي صلى الله عليه وسلم في عدة أحاديث ثابتة من حديث أبى هريرة وأبى سعيد وقد أخرجاهما في الصحيحين ومن حديث جابر وقد رواه مسلم وفي حديث ابن مسعود وأبى موسى وهو معروف من رواية أحمد وغيره فدل ذلك على أن المحنة انما تنقطع اذا دخلوا دار الجزاء وما قبل دار الجزاء دار امتحان وابتلاء فاذا انقطع عن الناس نور النبوة وقعوا في ظلمة البدع وحدثت البدع والفجور ووقع الشر بينهم كما في الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال سألت ربى ثلاثا فأعطانى اثنتين ومنعنى الثالثة سألته أن لايهلك أمتى بسنة عامة فأعطانيها وسألته أن لايسلط عليهم عدوا من غيرهم فيجتاحهم فأعطانيها وسألته

Digitized by Google

أن لا يجعل بأسهم بينهم فنعنيها والبأس مشتق من البؤس قال تعالى (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض) وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه لما نزل قوله تعالى (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم) قال أعوذ بوجهك (أو من تحت أرجلكم) قال أعوذ بوجهك (أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض) قال هاتان أهون فدل على أنه لابدان يلبسهم شيعا ويذيق بعضهم بأس بعض مع براءة الرسول في هذه الحال وهم فيها في جاهلية ولهذا قال الزهري وقعت الفتنة وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم متوافرون فأجمعوا على أن كل دم أو مال أو فرج أصيب بتأويل القرآن فهو هدر أنزلوهم منزلة الجاهلية وقد روى مالك باسناده الثابت عن عائشة رضى الله عنها انها كانت تقول ترك الناس العمل بهذه الآية قوله تعالى (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما) فان المسلمين لما اقتتلوا كان الواجب الاصلاح بينهم كما أمر الله تعالى فلما لم يعمل بذلك صارت فتنة وجاهلية وهكذا مسائل النزاع التى تنازع فيها الأمة في الاصول والفروع اذا لم ترد الى الله والرسول لم يتبين فيها الحق بل يصير فيها المتنازعون على غير بينة من أمرهم فان رحمهم الله أقر بعضهم بعضا ولم يبغ بعضهم على بعض كما كان الصحابة في خلافة عمر وعثمان يتنازعون في بعض مسائل الاجتهاد فيقر بعضهم بعضا ولا يعتدى عليه وان لم يرحموا وقع بينهم الاختلاف المذموم فبغى بعضهم على بعض اما بالقول مثل تكفيره وتفسيقه وأما بالفعل مثل حبسه وضربه وقتله وهذه حال أهل البدع والظلم كالخوارج وأمثالهم يظلمون الأمة ويعتدون عليهم اذا نازعوهم في بعض مسائل الدين وكذلك سائر أهل الاهواء فانهم يبتدعون بدعة ويكفرون من خالفهم فيها كما يفعل الرافضة والمعتزلة والجهمية وغيرهم والذين امتحنوا الناس بخلق القرآن كانوا من هؤلاء ابتدعوا بدعة وكفروا من خالفهم فيها واستحلوا منع حقه وعقوبته فالناس اذا خفى عليهم بعض مابعث الله به الرسول اما عادلون واما ظالمون فالعادل فيهم الذى يعمل بما وصل اليه من آثار الانبياء ولا يظلم غيره والظالم الذى يعتدى على غيره وهؤلاء يظلمون مع علمهم بانهم يظلمون كما قال تعالى (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب الامن بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم) والا فلو سلكوا ماعلموه من العدل أقر بعضهم بعضا كالمقلدين لأئمة الفقه الذين يعرفون من أنفسهم انهم عاجزون عن معرفة حكم الله ورسوله في تلك

Digitized by Google

المسائل فجعلوا أئمتهم نوابا عن الرسول وقالوا هذا غاية ماقدرنا عليه فالعادل منهم لايظلم الآخر ولا يعتدى عليه بقول ولا فعل مثل أن يدعى أن قول متبوعه هو الصحيح بلا حجة يبديها ويذم من يخالفه مع أنه معذور وكان الذين امتحنوا أحمد وغيره من هؤلاء الجاهلين فابتدعوا كلاما متشابها نفوا به الحق فأجابهم أحمد لما ناظروه في المحنة وذكروا الجسم ونحو ذلك وأجابهم بأنى أقول كما قال الله تعالى (الله أحد الله الصمد) وأما لفظ الجسم فلفظ مبتدع محدث ليس على أحد أن يتكلم به البتة والمعنى الذى يراد به مجمل ولم تبينوا مرادكم حتى نوافقكم على المعنى الصحيح فقال ماأدرى ماتقولون لكن أقول (الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) يقول ماأدرى ماتعنون بلفظ الجسم فانا لاأوافقكم على اثبات لفظ ونفيه اذا لم يرد الكتاب والسنة باثباته ولا نفيه ان لم يدر معناه الذى عناه المتكلم فان عنى في النفى أو الاثبات مايوافق الكتاب والسنة وافقناه وان عنى مايخالف الكتاب والسنة في النفى والاثبات لم نوافقه ولفظ الجسم والجوهر ونحوهما لم يأت في كتاب ولا سنة ولا كلام أحد من الصحابة والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين وسائر أئمة المسلمين التكلم بهما في حق الله تعالى لابنفى ولا اثبات ولهذا قال أحمد في رسالته الى المتوكل لاأحب الكلام في شئ من ذلك الا ماكان في كتاب الله أو في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عن الصحابة والتابعين وأما غير ذلك فان الكلام فيه غير محمود وذكر أيضا فيما حكاه عن الجهمية أنهم يقولون ليس فيه كذا ولا كذا وهو كما قال فان للفظ الجسم في اللغة التى نزل بها القرآن معنى كما قال تعالى (واذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وأن يقولوا تسمع لقولهم) وقال تعالى (وزادهم بسطة في العلم والجسم) قال ابن عباس كان طالوت أعلم بنى اسرائيل بالحرب وكان يفوق الناس بمنكبيه وعنقه ورأسه والبسطة السعة قال ابن قتيبة هو من قولك بسطت الشئ اذا كان مجموعا ففتحته ووسعته قال بعضهم والمراد بتعظيم الجسم فضل القوة اذ العادة أن من كان أعظم جسما كان أكثر قوة فهذا لفظ الجسم في لغة العرب التى نزل بها القرآن

* قال الجوهرى قال أبو زيد الانصارى الجسم الجسد وكذلك الجسمان والجثمان وقال الاصمعى الجسم والجسمان والجسد والجثمان واحد وقال جماعة جسم الانسان يقال له الجسمان وقد جسم الشئ أى عظم فهو جسيم وجسام والجسام بالكسر جمع جسيم قال أبو عبيدة تجسمت فلانا من بين القوم أى اخترته كأنك قصدت جسمه كما تقول

Digitized by Google

تأتيته أى قصدت أتيه وشخصه وأنشد أبو عيدة

تجسمته من بينهن بمرهف

وتجسمت الارض اذا أخذت نحوها تريدها وتجسم من الجسم وقال ابن السكيت تجسمت الأمر أى ركبت أجسمه وجسيمه أى معظمه قال وكذلك تجسمت الرمل والجبل أى ركبت أعظمه والأجسم الأضخم قال عامر بن الطفيل

لقد علم الحى من عامر بأن لنا الذروة الاجسما

فهذا الجسم في لغة العرب وعلى هذا فلا يقال للهواء جسم ولا للنفس الخارج من الانسان جسم ولا لروحه المنفوخة فيه جسم ومعلوم أن الله سبحانه لايماثل شيأ من ذلك لابدن الانسان ولا غيره فلا يوصف الله بشئ من خصائص المخلوقين ولايطلق عليه من الاسماء مايختص بصفات المخلوقين فلا يجوز أن يقال هو جسم ولا جسد وأما أهل الكلام فالجسم عندهم أعم من هذا وهم مختلفون في معناه اختلافا كثيرا عقليا واختلافا لفظيا اصطلاحيا فهم يقولون كلما يشار اليه اشارة حسية فهو جسم ثم اختلفوا بعد هذا فقال كثير منهم كلما كان كذلك فهو مركب من الجواهر الفردة ثم منهم من قال الجسم أقل مايكون جوهراً بشرط أن ينضم اليه غيره وقيل بل الجوهران والجواهر فصاعدا وقيل بل أربعة فصاعدا وقيل بل ستة وقيل بل ثمانية وقيل بل ستة عشر وقيل بل اثنان وثلاثون وهذا قول من يقول ان الاجسام كلها مركبة من الجواهر التى لاتنقسم * وقال آخرون من أهل الفلسفة كل الاجسام مركبة من الهيولى والصورة لامن الجواهر الفردة وقال كثير من أهل الكلام وغير أهل الكلام ليست مركبة لامن هذا ولا من هذا وهذا قول الهشامية والكلابية والضرارية وغيرهم من الطوائف الكبار لايقولون بالجوهر الفرد ولا بالمادة والصورة وآخرون يدعون اجماع المسلمين على اثبات الجوهر الفرد كما قال أبو المعالى وغيره اتفق المسلمون على أن الاجسام تتناهى في تجزئها وانقسامها حتى تصير افرادا ومع هذا فقد شك هو فيه وكذلك شك فيه أبو الحسين البصرى وأبو عبد الله الرازى ومعلوم ان هذا القول لم يقله أحد من أئمة المسلمين لامن الصحابة ولا التابعين لهم باحسان ولا أحد من أئمة العلم المشهورين بين المسلمين وأول من قال ذلك في الاسلام طائفة من الجهمية والمعتزلة وهذا من الكلام الذى ذمه السلف وعابوه ولكن حاكى هذا الاجماع لما لم يعرف أصول الدين الا مافي كتب الكلام ولم يجد الا من يقول بذلك

Digitized by Google

اعتقد هذا اجماع المسلمين والقول بالجوهر الفرد باطل والقول بالهيولى والصورة باطل وقد بسط الكلام على هذه المقالات في موضع آخر * وقال آخرون الجسم هو القائم بنفسه وكل قائم بنفسه جسم وكل جسم فهو قائم بنفسه وهو مشار اليه واختلفوا في الاجسام هل هي متماثلة أم لا على قولين مشهورين واذا عرف ذلك فمن قال إنه جسم وأراد أنه مركب من الاجزاء فهذا قوله باطل وكذلك ان أراد أنه يماثل غيره من المخلوقات فقد علم بالشرع والعقل ان الله ليس كمثله شئ في شئ من صفاته فمن أثبت لله مثلا في شئ من صفاته فهو مبطل ومن قال إنه جسم بهذا المعنى فهو مبطل ومن قال ليس بجسم بمعنى أنه لايرى في الآخرة ولا يتكلم بالقرآن وغيره من الكلام ولا يقوم به العلم والقدرة وغيرهما من الصفات ولا ترفع الأيدى اليه في الدعاء ولا عرج بالرسول اليه ولا يصعد اليه الكلم الطيب ولا تعرج الملائكة والروح اليه فهذا قول باطل وكذلك كل من نفى ماأثبته الله ورسوله وقال ان هذا تجسيم فنفيه باطل وتسمية ذلك تجسيما تلبيس منه فانه ان أراد أن هذا يقتضى ان يكون جسما مركبا من الجواهر الفردة أو من المادة والصورة أو ان هذا يقتضى ان يكون جسما والاجسام متماثلة قيل له أكثر العقلاء يخالفونك في تماثل الاجسام المخلوقة وفي أنها مركبة فلا يقولون ان الهواء مثل الماء ولا أبدان الحيوان مثل الحديد والجبال فكيف يوافقونك على أن الرب يكون مماثلا لخلقه اذا أثبتوا له ماأثبت الكتاب والسنة والله قد نفى المماثلات في بعض المخلوقات وكلاهما جسم كقوله (وأن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لايكونوا أمثالكم) مع ان كلاهما بشر فكيف يجوز أن يقال اذا كان لرب السموات علم وقدرة انه يكون مماثلا لخلقه والله تعالى ليس كمثله شئ لافي ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ونكتة الأمر ان الجسم في اعتقاد هذا النافي يستلزم مماثلة سائر الاجسام ويستلزم أن يكون مركبا من الجواهر الفردة أو من المادة والصورة وأكثر العقلاء يخالفونه في التلازم وهذا التلازم منتف باتفاق الفريقين وهو المطلوب فاذا اتفقوا على انتفاء النقص المنفى عن الله شرعا وعقلا بقى بحثهم في الجسم الاصطلاحى هل هو مستلزم لهذا المحذور وهو بحث عقلى كبحث الناس في الارض هل تبقى أو لاتبقى وهذا البحث العقلى لم يرتبط به دين المسلمين بل لم ينطق كتاب ولا سنة ولا أثر من السلف بلفظ الجسم في حق الله لانفيا ولا اثباتا فليس لأحد أن يبتدع اسما مجملا يحتمل معان مختلفة لم ينطق به الشرع ويعلق به دين المسلمين ولو كان قد نطق باللغة العربية فكيف

اذا أحدث للفظ معنى آخر والمعنى الذى يقصده اذا كان حقا عبر عنه بالعبارة التى لالبس فيها فاذا كان معتقده ان الاجسام متماثلة وأن الله ليس كمثله شئ وهو سبحانه لاسمى له ولا كفؤ له ولا ندله فهذه عبارات القرآن تؤدى هذا المعنى بلا تلبيس ولا نزاع وان كان معتقده ان الاجسام غير متماثلة وان كل مايرى ويقوم به من الصفات فهو جسم فان عليه أن يثبت ماأثبته الله ورسوله من علمه وقدرته وسائر صفاته كقوله (ولا يحيطون بشئ من علمه الا بما شاء) وقوله (ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين) وقوله عليه السلام في حديث الاستخارة اللهم انى استخيرك بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق ويقول كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انكم ترون ربكم يوم القيامة عيانا كما ترون الشمس والقمر لاتضامون في رؤيته فشبه الرؤية بالرؤية وان لم يكن المرئى كالمرئى فهذه عبارات الكتاب والسنة عن هذا المعنى الصحيح بلا تلبيس ولا نزاع بين أهل السنة المتبعين للكتاب والسنة وأقوال الصحابة ثم بعد هذا من كان تبين له معنى من جهة العقل انه لازم للحق لم يدفعه عن عقله فلازم الحق حق لكن ذلك المعنى لابد أن يدل الشرع عليه فيثبته بالألفاظ الشرعية وان قدر ان الشرع لم يدل عليه لم يكن مما يجب على الناس اعتقاده وحينئذ فليس لأحد ان يدعو الناس اليه وان قدر أنه في نفسه حق (ومسئلة) تماثل الاجسام وتركيبها من الجواهر الفردة قد اضطرب فيها جماهير أهل الكلام وكثير منهم يقول بهذا تارة وبهذا تارة وأكثر ذلك لاجل الالفاظ المجملة والمعانى المتشابهة وقد بسط الكلام عليه في غير هذا الموضع لكن المقصود هنا أنه لو قدر ان الانسان تبين له ان الاجسام ليست متماثلة ولا مركبة لامن هذا ولا من هذا لم يكن له أن يبتدع في دين الاسلام قوله ان الله جسم ويناظر على المعنى الصحيح الذى دل عليه الكتاب والسنة بل يكفيه اثبات ذلك المعنى بالعبارات الشرعية ولو قدر انه تبين له ان الاجسام متماثلة وان الجسم مركب لم يكن له أن يبتدع القول بهذا الاسم ويناظر على معناه الذى اعتقده بعقله بل ذلك المعنى المعلوم بالشرع والعقل يمكن اظهاره بعبارة لااجمال فيها ولا تلبيس والذين يقولون ان الجسم مركب من الجواهر يدعى كثير منهم انه كذلك في لغة العرب لأن العرب يقولون هذا أجسم من هذا يريدون به انه أكثر أجزاء منه ويقولون هذا جسيم أى كثير الاجزاء قال والتفضيل بصيغة أفعل انما يكون لما يدل عليه الاسم فاذا قيل هذا أعلم وأحلم كان ذلك دالا على الفضيلة فيما دل عليه لفظ العلم والحلم فلما قالوا أجسم

لما كان أكثر أجزاء دل على أن لفظ الجسم عندهم المراد به المركب فمن قال جسم
وليس بمركب فقد خرج عن لغة العرب قالوا وهذه تخطئة في اللفظ وان كنا لا نكفره
اذا لم يثبت خصائص الجسم من التركيب والتأليف وقد نازعهم بعضهم في قولهم هذا
أجسم من هذا وقالوا ليس هذا اللفظ من لغة العرب كما يحكى عن أبى زيد فيقال له
لاريب ان العرب تقول هذا جسيم أى عظيم الجثة وهذا أجسم من هذا أى أعظم جثة
لكن كون العرب تعتقد ان ذلك لكثرة الاجزاء التى هى الجواهر الفردة انما يكون
اذا كان أهل اللغة قاطبة يعتقدون ان الجسم مركب من الجواهر الفردة والجوهر
الفرد هو شئ قد بلغ من الصغر والحقارة الى أنه لا يتميز يمينه من يساره ومعلوم ان
أكثر العقلاء من بنى آدم لا يتصور الجوهر الفرد والذين يتصورنه أكثرهم لا يثبتونه
والذين أثبتوه انما يثبتونه بطرق خفية طويلة بعيدة فيمتنع أن يكون اللفظ الشائع في
اللغة التى ينطق بها خواصها وعوامها أرادوا به هذا وقد علم بالاضطرار ان أحدا من
الصحابة والتابعين لهم باحسان لم ينطق باثبات الجوهر الفرد ولا بما يدل على ثبوته
عنده بل ولا العرب قبلهم ولا سائر الامم الباقين على الفطرة ولا اتباع الرسل فكيف
يدعى عليهم أنهم لم يقولوا لفظ جسم الا لما كان مركبا مؤلفا ولو قلت لمن شئت من
العرب الشمس والقمر والسماء مركب عندك من أجزاء صغار كل منها لا يقبل التجزى
أو الجبال أو الهواء أو الحيوان أو النبات لم يتصور هذا المعنى الا بعد كلفة ثم اذا
تصوره قد يكذبه بفطرته ويقول كيف يمكن أن يكون شئ لا يتميز منه جانب عن
جانب وأكثر العقلاء من طوائف المسلمين وغيرهم ينكرون الجوهر الفرد فالفقهاء
قاطبة تنكره وكذلك أهل الحديث والتصوف ولهذا كان الفقهاء متفقين على استحالة
بعض الاجسام الى بعض كاستحالة العذرة رمادا والخنزير ملحا ثم تكلموا في هذه
الاستحالة هل تظهر أم لا تظهر والقائلون بالجوهر الفرد لا تستحيل الذوات عندهم
بل تلك الجواهر التى كانت في الأول هى بعينها في الثانى وانما اختلف التركيب ولهذا
يتكلم بلفظ التركيب في الماء ونحوه من الفقهاء المتأخرين من كان قد أخذ هذا التركيب
عن المتكلمين ويقول ان الماء يفارق غيره في التركيب فقط وكذلك القائلون بالجوهر
الفرد عندهم انا لم نشاهد قط احداث الله لشئ من الاعيان القائمة بنفسها وان جميع
مايخلقه من الحيوان والنبات والمعدن والثمار والمطر والسحاب وغير ذلك انما هو جمع
الجواهر وتفريقها وتغيير صفاتها من حال الى حال لانه يبدع شيأ من الجواهر

Digitized by Google

والاجسام القائمة بأنفسها وهذا القول أكثر العقلاء ينكره ويقول هو مخالف للحس والعقل والشرع فضلا عن أن يكون الجسم في لغة العرب مستلزما لهذا المعنى ثم الجسم قد يراد به الغلظ نفسه وهو عرض قائم بغيره وقد يراد به الشيء الغليظ وهو القائم بنفسه فتقول هذا الثوب له جسم أى غلظ وقوله وزاده بسطة في العلم والجسم قد يحتج به على هذا فانه قرن الجسم بالعلم الذى هو مصدر فتقول المعنى زاده بسطة في قدره فجعل قدر بدنه أكبر من بدن غيره فيكون الجسم هو القدر نفسه لانفس المقدر * وكذلك قوله تعجبك أجسامهم أى صورهم القائمة بأبدانهم كما تقول أعجبني حسنه وجماله ولونه وبهاؤه فقد يراد صفة الابدان وقد يراد نفس الابدان وهم اذا قالوا هذا أجسم من هذا أرادوا به أغلظ وأعظم منه اما كونهم يريدون بذلك ان ذلك العظم والغلظ كان لزيادة الاجزاء فهذا مما يعلم قطعا انه لم يخطر ببال أهل اللغة الا من أخذ ذلك عمن اعتقده من أهل الكلام المحدث الذى أحدث في الاسلام بعد انقراض عصر الصحابة وأكثر التابعين فان هذا لم يعرف في الاسلام من تكلم به أو بمعناه الا في أواخر الدولة الأموية لما ظهر جهم بن صفوان والجعد بن درهم ثم ظهر في المعتزلة فقد تبين ان من قال الجسم هو المؤلف المركب واعتقد ان الاجسام مركبة من الجواهر الفردة فقد ادعى معنى عقليا ينازعه فيه أكثر العقلاء من بنى آدم ولم ينقل عن أحد من السلف انه وافقه عليه وجعل لفظ الجسم في اصطلاحه يدل على معنى لايدل عليه اللفظ في اللغة فقد غير معنى اللفظ في اللغة وادعى معنى عقليا فيه نزاع طويل وليس معه من الشرع مايوافق ماادعاه من معنى اللفظ ولا ماادعاه من المعنى العقلى فاللغة لاتدل على ماقال والشرع لايدل على ماقال والعقل لم يدل على مسميات الالفاظ وانما يدل على المعنى المجرد وذلك فيه نزاع طويل ونحن نعلم بالاضطرار ان ذلك المعنى الذى وجب نفيه عن الله لايحتاج نفيه الى ماأحدثه هذا من دلالة اللفظ ولا ماادعاه من المعنى العقلى بل الذين جعلوا هذا عمدتهم في تنزيه الرب على نفى مسمى الجسم لايمكنهم أن ينزهوه عن شيء من النقائص البتة فانهم اذا قالوا هذا من صفات الاجسام فكل مايثبتونه هو أيضا من صفات الاجسام مثل كونه حيا عليما قديرا بل كونه موجودا قائما بنفسه فانهم لايعرفون هذا في الشاهد الا جسما فاذا قال المنازع أنا أقول فيما نفيتموه نظير قولكم فيما أثبتموه انقطعوا ثم هؤلاء لهم في استحقاق الرب لصفات الكمال عندهم هل تعلمه بالاجماع فقط أو علمه بالعقل أيضا فيه قولان

فمن قال ان ذلك لم نعلمه بالعقل كأبى المعالى والرازى وغيرهما لم يبق معهم دليل عقلى ينزهون به الرب عن كثير من النقائص هذا اذا لم ينف الا مايجب نفيه عن الله مثل نفيه للنقائص فانه يجب تنزيه الرب عنها وينفى عنه مماثلة المخلوقات فانه كما يجب تنزيه الرب عن كل نقص وعيب يجب تنزيهه عن أن يماثله شئ من المخلوقات في شئ من صفات الكمال الثابتة له وهذان النوعان يجمعان التنزيه الواجب لله وقل هو الله أحد دلت على النوعين فقوله أحد من قوله لم يكن له كفوا أحد ينفى المماثلة والمشاركة وقوله صمد يتضمن جميع صفات الكمال فالنقائص جنسها منفى عن الله تعالى وكل مااختص به المخلوق فهو من النقائص التى يجب تنزيه الرب عنها بخلاف مايوصف به الرب ويوصف العبد بما يليق به مثل العلم والقدرة والرحمة ونحو ذلك فان هذه ليست نقائص بل ماثبت لله من هذه المعانى فانه يثبت لله على وجه لايقاربه فيه أحد من المخلوقات فضلا عن أن يماثله فيه بل ماخلقه الله في الجنة من المآكل والمشارب والملابس لايماثل ماخلقه في الدنيا وان اتفقا في الاسم وكلاهما مخلوق قال ابن عباس ليس في الدنيا مما في الجنة الا الاسماء فقد أخبر الله ان في الجنة لبنا وخمرا وعسلا وماء وحريرا وذهبا وفضة وتلك الحقائق ليست مثل هذه وكلاهما مخلوق فالخالق تعالى أبعد من مماثلة المخلوقات من المخلوقات الى المخلوق وقد سمى الله نفسه عليما حليما رؤفا رحيما سميعا بصيرا عزيزا ملكا جبارا متكبرا مؤمنا عظيما كريما غنيا شكورا كبيرا حفيظا شهيدا حقا وكيلا وليا وسمى أيضا بعض مخلوقاته بهذه الاسماء فسمى الانسان سميعا بصيرا وسمى نبيه رؤفا رحيما وسمى بعض عباده ملكا وبعضهم شكورا وبعضهم عظيما وبعضهم حليما وعليما وسائر ماذكر من الاسماء مع العلم انه ليس المسمى بهذه الاسماء من المخلوقين مماثلا للخالق جل جلاله في شئ من الاشياء وكذلك النزاع في لفظ التحيز والجهة ونحو ذلك فمن الناس من يقول هو متحيز وهو في جهة ومنهم من يقول ليس بمتحيز وليس في جهة ومنهم من يقول هو فى جهة وليس بمتحيز ولفظ المتحيز يتناول الجسم والجوهر الفرد ولفظ الجوهر قد يراد به المتحيز وقد يراد به الجوهر الفرد ومن الفلاسفة من يدعى اثبات جواهر قائمة بأنفسها غير متحيزة ومتأخرو أهل الكلام كالشهرستانى والرازى والآمدى ونحوهم يقولون ليس في العقل مايحيل ذلك ولهذا كان من سلك سبيل هؤلاء وهو انما يثبت حدوث العالم بحدوث الاجسام يقول بتقدير وجود جواهر عقلية فليس في هذا الدليل مايدل على

حدوثها ولهذا صار طائفة ممن خلط الكلام بالفلسفة الى قدم الجواهر العقلية وحدوث الاجسام وان السبب الموجب لحدوثها هو حدوث تصور من تصورات النفس وكان يقول بهذا بعض أعيان المصريين وكذلك الأموى صاحب اللباب الذى أجاب عن شبهة الفلاسفة على دوام الفاعلية المتضمنة انه لابد للحدوث من سبب فأجاب بالجواب الباهر الذى أخذه من كلام الرازى في المطالب العالية فانه أجاب به وهو في المطالب العالية يخلط كلام الفلاسفة بكلام المتكلمين وهو في مسئلة الحدوث والقدم جائر وهذا الجواب من أفسد الاجوبة فانه يقال ماالموجب لحدوث تلك التصورات دائما ثم ان النفس عندهم لابد أن تكون متصلة بالجسم فيمتنع وجود نفس بدون جسم وأيضا فالذى علم بالاضطرار من دين الرسل ان كل ماسوى الله مخلوق محدث كان بعدان لم يكن وأيضا فما تثبته الفلاسفة من الجواهر العقلية انما يوجد في الذهن لافي الخارج وأما أكثر المتكلمين فقالوا انتفاء هذه معلوم بضرورة العقل وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع فبين أن ماتدعى الفلاسفة اثباته من الجواهر العقلية التى هى العقل والنفس والمادة والصورة فلا حقيقة لها في الخارج وانما هى أمور معقولة في الذهن يجردها العقل من الامور المعينة كما يجرد العقل الكليات المشتركة بين الاصناف كالحيوانية الكلية والانسانية الكلية والكليات انما تكون كليات في الاذهان لافي الاعيان ومن هؤلاء من يظن أنها تكون في الخارج كليات وان في الخارج ماهيات كلية مقارنة للاعيان غير الموجودات المعينة وكذلك منهم من يثبت كليات مجردة عن الاعيان يسمونها المثل الافلاطونية ومنهم من يثبت دهرا مجردا عن المتحرك والحركة ويثبت خلاء مجردا ليس هو متحيزا ولا قائما بمتحيز ويثبت هيولى مجردة عن جميع الصور والهيولى في لغتهم بمعنى المحل يقال الفضة هيولى الخاتم والدرهم والخشب هيولى الكرسى أى هذا المحل الذى تصنع فيه هذه الصورة وهذه الصورة الصناعية عرض من الاعراض ويدعون ان الجسم هيولى محل الصورة الجسمية وغير نفس الجسم القائم بنفسه وهذا غلط وانما هذا يقدر في النفس كما يقدر امتداد مجرد عن كل ممتد وعدد مجرد عن كل معدود ومقدار مجرد عن كل مقدر وهذه كلها أمور مقدرة في الاذهان لاوجود لها فى الاعيان وقد اعترف بذلك من عادته نصر الفلاسفة من أهل النظر كما قد بسط هذا في غير هذا الموضع فالجواهر العقلية التى يثبتها هؤلاء الفلاسفة يعلم بصريح العقل بعد التصور التام انتفاؤها في الخارج

Digitized by Google

وأما الملائكة الذين أخبر الله عنهم فهذه لايعرفها هؤلاء الفلاسفة أتباع ارسطو ولا يذكرونها بنفي ولا اثبات كما لايعرفون النبوات ولا يتكلمون عليها بنفي ولا اثبات انما تكلم في ذلك متأخروهم كابن سينا وأمثاله الذين أرادوا أن يجمعوا بين النبوات وبين الفلسفة فلبسوا ودلسوا وكذلك العلة الاولى التي يثبتونها لهذا العالم انما أثبتوا علة غائية يتحرك الفلك للتشبه بها وتحريكها للفلك من جنس تحريك الامام المقتدى به المؤتم المقتدى اذا كان يحب أن يتشبه بامامه ويقتدي بامامه ولفظ الاله في لغتهم يراد به المتبوع الامام الذي يتشبه به فالفلك عندهم يتحرك للتشبه بالاله ولهذا جعلوا الفلسفة العليا والحكمة الاولى انما هي التشبه بالاله على قدر الطاقة وكلام ارسطو في علم مابعد الطبيعة في مقالة اللام التي هي منتهى فلسفته وفي غيرها كله يدور على هذا وتارة يشبه تحريكه للفلك بتحريك المعشوق للعاشق لكن التحريك هنا قد يكون لمحبة العاشق ذات المعشوق أو لغرض يناله منه وحركة الفلك عندهم ليست كذلك بل يتحرك ليتشبه بالعلة الاولى فهو يحبها أي يحب التشبه بها لايحب أن يعبدها ولا يحب شيأ يحصل منها ويشبه ذلك ارسطو بحركة النواميس لاتباعها أي اتباع الناموس قائمون بما في الناموس ويقتدون به والناموس عندهم هي السياسة الكلية للمدائن التي وضعها لهم ذوو الرأي والعقل لمصلحة دنياهم لئلا يتظالموا ولا تفسد دنياهم ومن عرف النبوات منهم يظن أن شرائع الانبياء من جنس نواميسهم وان المقصود بها مصلحة الدنيا بوضع قانون عدلي ولهذا أوجب ابن سينا وأمثاله النبوة وجعلوا النبوة لابد منها لاجل وضع هذا الناموس ولما كانت الحكمة العملية عندهم هي الخلقية والمنزلية والمدنية جعلوا ماجاءت به الرسل من العبادات والشرائع والاحكام هي جنس الحكمة الخلقية المنزلية والمدنية فان القوم لايعرفون الله بل هم أبعد عن معرفته من كفار اليهود والنصارى بكثير وارسطو المعلم الاول من أجهل الناس برب العالمين الى الغاية لكن لهم معرفة جيدة بالامور الطبيعية وهذا بحر علمهم وله تفرغوا وفيه ضيعوا زمانهم وأما معرفة الله تعالى فحظهم منها مبخوس جدا وأما ملائكته وكتبه ورسله فلا يعرفون ذلك البتة ولم يتكلموا فيه لابنفي ولا اثبات وانما يتكلم في ذلك متأخروهم الداخلون في الملل وأما قدماء اليونان فكانوا مشركين من أعظم الناس شركا وسحرا يعبدون الكواكب والاصنام ولهذا عظمت عناياتهم بعلم الهيئة والكواكب لاجل عبادتها وكانوا يبنون لها الهياكل وكان آخر ملوكهم بطليموس صاحب المجسطي لما دخلت الروم

Digitized by Google

في النصرانية فجاء دين المسيح صلوات الله عليه وسلامه فأبطل ماكانوا عليه من الشرك
ولهذا بدل من بدل دين المسيح فوضع دينا مركبا من دين الموحدين ودين المشركين
فان أولئك كانوا يعبدون الشمس والقمر والكواكب ويصلون لها ويسجدون فجاء
قسطنطين ملك النصارى ومن اتبعه فابتدعوا الصلاة الى الشرق وجعلوا السجود الى
الشمس بدلا عن السجود لها وكان أولئك يعبدون الاصنام المجسدة التي لها ظل فجاءت
النصارى وصورت تماثيل القداديس في الكنائس وجعلوا الصور المرقومة في
الحيطان والسقوف بدل الصور المجسدة القائمة بأنفسها التي لها ظل وأرسطو كان وزير
الاسكندر بن فيلبس المقدونى نسبة الى مقدونيه وهى جزيرة هؤلاء الفلاسفة اليونانيين
الذين يسمون المشائين وهى اليوم خراب أو غمرها الماء وهو الذى يؤرخ له النصارى
واليهود التاريخ الرومى وكان قبل المسيح بنحو ثلاثمائة سنة فيظن من يعظم هؤلاء
الفلاسفة انه كان وزير ذى القرنين المذكور في القرآن ليعظم بذلك قدره وهذا جهل
فان ذا القرنين كان قبل هذا بمدة طويلة جدا وذو القرنين بنى سد يأجوج ومأجوج
وهذا المقدونى ذهب الى بلاد فارس لم يصل الى بلا الصين فضلا عن السد والملائكة
التى أخبر الله ورسوله بها لايحصى عددهم الا الله ليسوا عشرة ولا تسعة وهم عباد
الله احياء ناطقون ينزلون الى الارض ويصعدون الى السماء ولا يفعلون الا بأذن ربهم
كما أخبر الله عنهم بقوله (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون لايسبقونه
بالقول وهم بأمره يعملون يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون الا لمن ارتضى
وهم من خشيته مشفقون) وقال تعالى (وكم من ملك في السموات لاتغنى شفاعتهم
شيأ الا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) وأمثال هذه النصوص وهؤلاء يدعون
أن العقول قديمة أزلية وان العقل الفعال هو رب كل ماتحت هذا الفلك والعقل الأول
هو رب السموات والارض وما بينهما والملاحدة الذين دخلوا معهم من اتباع بنى عبيد
كأصحاب رسائل اخوان الصفا وغيرهم وكملاحدة المتصوفة مثل ابن عربى
وابن سبعين وغيرهما يحتجون لمثل ذلك بالحديث الموضوع أول ماخلق الله العقل
وفي كلام أبى حامد الغزالى في الكتب المضنون بها على غير أهلها وغير ذلك من معانى
هؤلاء قطعة كبيرة ويعبر عن مذاهبهم بلفظ الملك والملكوت والجبروت ومراده بذلك
الجسم والنفس والعقل فيأخذ هؤلاء تلك العبارات الاسلامية ويودعونها معانى هؤلاء
وتلك العبارات مقبولة عند المسلمين فاذا سمعوها قبلوها ثم اذا عرفوا المعانى التى

Digitized by Google

قصدها هؤلاء ضل بها من لم يعرف حقيقة دين الاسلام وأن هذه معانى هؤلاء الملاحدة ليست هى المعانى التى عناها محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم واخوانه المرسلون مثل موسى وعيسى صلوات الله عليهم أجمعين ولهذا ضل كثير من المتأخرين بسبب هذا الالتباس وعدم المعرفة بحقيقة ماجاء به الرسول وما يقوله هؤلاء حتى يضل بهم خلق من أهل العلم والعبادة والتصوف ومن ليس له غرض في مخالفة محمد صلى الله عليه وسلم بل يحب اتباعه مطلقا ولو عرف أن هذا مخالف لما جاء به لم يقبله لكن لعدم كمال علمه بمعانى ماأخبر به الرسول ومقاصد هؤلاء يقبل هذا لاسيما اذا كان المتكلم به ممن له نصيب وافر في العلم والكلام والتصوف والزهد والفقه والعبادة ورأى الطالب أن هذا مرتبته فوق مرتبة الفقهاء الذين انما يعرفون الشرع الظاهر وفوق مرتبة المحدث الذى غايته النقل لألفاظ لايعلم معانيها وكذلك المقرى والمفسر ورأى من يعظمه من أهل الكلام اما موافق لهم أو خائف منهم ورأى بحوث المتكلمين معهم في مواضع كثيرة لم يأتوا بتحقيق تبين فساد قولهم بل تارة يوافقونهم على أصول لهم تكون فاسدة وتارة يخالفونهم في أمر قالته الفلاسفة ويكون حقا مثل مايرى كثير من المتكلمين يخالفهم في أمور طبيعية ورياضية ظانا أنه ينصر الشرع ويكون الشرع موافقا لما علم بالعقل مثل استدارة الافلاك فانه لم يعلم بين السلف خلاف في أنها مستديرة والآثار بذلك معروفة والكتاب والسنة قد دلا على ذلك وكذلك استحالة الاجسام بعضها الى بعض هو مما اتفق عليه الفقهاء كما قال هؤلاء الى أمور أخر لكن كثير من المتكلمين أو أكثرهم لاخبرة لهم بما دل عليه الكتاب والسنة وآثار الصحابة والتابعين لهم باحسان بل ينصر مقالات يظنها دين المسلمين بل اجماع المسلمين ولا يكون قد قالها أحد من السلف بل الثابت عن السلف مخالف لها فلما وقع بين المتكلمين تقصير وجهل كثير بتحقيق العلوم الشرعية وهم في العقليات تارة يوافقون الفلاسفة على باطلهم وتارة يخالفونهم في حقهم صارت المناظرات بينهم دولا وان كان المتكامون أصح مطلقا في العقليات الالهية والكلية كما أنهم أقرب الى الشرعيات من الفلاسفة فان الفلاسفة كلامهم في الالهيات والكليات العقلية كلام قاصر جدا وفيه تخليط كثير وانما يتكلمون جيدا في الامور الحسية الطبيعية وفي كلياتها فكلامهم فيها في الغالب جيد وأما الغيب الذى تخبر به الانبياء والكليات العقلية التى تعم الموجودات كلها وتقسم الموجودات قسمة صحيحة فلا يعرفونها البتة فان هذا لايكون الا ممن أحاط

بانواع الموجودات وهم لايعرفون الا الحساب وبعض لوازمها وهذا معرفة بقليل الموجودات جدا فان مالا يشهده الآدميون من الموجودات أعظم قدرا وصفة مما يشهدونه بكثير ولهذا كان هؤلاء الذين عرفوا ماعرفته الفلاسفة اذا سمعوا اخبار الانبياء بالملائكة والعرش والكرسى والجنة والنار وهم يظنون أن لاموجود الا ماعلموه هم والفلاسفة يصيرون حائرين متأولين لكلام الانبياء على ماعرفوه وان كان هذا لادليل عليه وليس لهم بهذا النفى علم فان عدم العلم ليس علما بالعدم لكن نفيهم هذا كنفى الطبيب للجن لانه ليس في صناعة الطب مايدل على ثبوت الجن والا فليس في علم الطب ماينفى وجود الجن وهكذا تجد من عرف نوعا من العلم وامتاز به على العامة الذين لايعرفونه فيبقى بجهله نافيا لما لايعلمه وبنو آدم ضلالهم فيما جحدوه ونفوه بغير علم أكثر من ضلالهم فيما أثبتوه وصدقوا به قال تعالى (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله) وهذا لان الغالب على الآدميين صحة الحس والعقل فاذا أثبتوا شيأ وصدقوا به كان حقا ولهـذا كان التواتر مقبولا من جميع أجناس بنى آدم لانهم يخبرون عما شاهدوه وسمعوه وهذا أمر لايشترك الخلق العظيم في الغلط فيه ولا في تعمد الكذب فيه فاذا علم أنهم لم يتواطؤا عليه ولم يأخذه بعضهم عن بعض كما يؤخذ المذهب والآراء التى يتلقاها المتأخر عن المتقدم وقد علم أن هذا مما لايغلط فيه عادة علم قطعا صدقهم فان المخبر اما أن يتعمد الكذب واما أن يغلط وكلاهما مأمون في المتواترات بخلاف مانفوه وكذبوا به فان غالبهم أو كثير منهم ينفون مالا يعلمون ويكذبون بما لم يحيطوا بعلمه فصار هؤلاء الذين ظنوا الموجودات ماعرفه هؤلاء المتفلسفة اذا سمعوا ماأخبرت به الانبياء من العرش والكرسى قالوا العرش هو الفلك التاسع والكرسى هو الثامن وقد تكلمنا على ذلك في مسئلة الاحاطة وبينا جهل من قال هذا عقلا وشرعا واذا سمعهم يذكرون الملائكة ظن أنهم العقول والنفوس التى يثبتها المتفلسفة والقوى التى في الاجسام وكذلك الجن والشياطين يظن أنها اعراض قائمة بالنفوس حيث كان هذا مبلغه من العلم وكذلك يظن ماذكره ابن سينا وأمثاله من أن الغرائب في هذا العالم سببها قوة فلكية أو طبيعية أو نفسانية ويجعل معجزات الانبياء من باب القوى النفسانيـة وهى من جنس السحر لكن الساحر قصده الشر والنبى قصده الخير وهذا كله من الجهل بالامور الكلية المحيطة بالموجودات وأنواعها ومن الجهل بما جاء به الرسول فلا يعرفون من العلوم الكلية ولا العلوم الالهية الا

Digitized by Google

مايعرفه الفلاسفة المتقدمون وزيادات تلقوها عن بعض أهل الكلام أو عن أهل الملة فلهذا صار كلام المتأخرين كابن سينا وأمثاله في الالهيات والكليات أجود من كلام سلفه ولهذا قربت فلسفة اليونان الى أهل الالحاد والمبتدعة من أهل الملل لما فيها من شوب الملة ولهذا دخل فيها بنو عبيد الملاحدة فأخذوا عن هؤلاء الفلاسفة الصابئة المشركين العقل والنفس وعن المجوس النور والظلمة وسموهم السابق والتالي وكذلك الملاحدة المنتسبون الى التصوف والتأله كابن سبعين وأمثاله سلكوا مسلكا جمعوا فيه بزعمهم بين الشرع والفلسفة وهم ملاحدة ليسوا من الثنتين وسبعين فرقة وقد بسط الكلام على هؤلاء وهؤلاء في غير هذا الموضع وانما ذكروا هنا لان أهل الكلام المحدث صاروا لعدم علمهم بما علمه السلف وأئمة السنة من الكتاب والسنة وآثار الصحابة ولما وقعوا فيه من الكلاميات الباطلة يدخل بسببهم هؤلاء الفلاسفة في الاسلام أمورا باطلة ويحصل بهم من الضلال والغي مالا يتسع هذا الموضع لذكره ولما أحدثت الجهمية محنتهم ودعوا الناس اليها وضرب أحمد بن حنبل في سنة عشرين ومائتين كان مبدأ حدوث القرامطة الملاحدة الباطنية من ذلك الزمان فصارت البدع باب الالحاد كما أن المعاصي بريد الكفر ولبسط هذا موضع آخر والمقصود هنا الكلام على لفظ التحيز والجهة وهؤلاء المتكلمون المتفلسفة صار بينهم نزاع في الملائكة هل هي متحيزة أم لا فمن مال الى الفلسفة ورأى ان الملائكة هي العقول والنفوس التي يثبتها الفلاسفة وان تلك ليست متحيزة قال ان الملائكة ليست متحيزة لاسيما وطائفة من الفلاسفة لم تجعل عددها عشرة عقول وتسعة نفوس كما هو المشهور عن المشائين بل لادليل على نفي الزيادة ورأى النبوات قد أخبرت بكثرة الملائكة فأراد أن يثبت كثرتهم بطريقة فلسفية كما فعل ذلك أبو البركات صاحب المعتبر والرازي في المطالب العالية وغيرهما وأما المتكلمون فانهم يقولون ان كل ممكن أو كل محدث أو كل مخلوق فهو اما متحيز واما قائم بمتحيز وكثير منهم يقول كل موجود اما متحيز واما قائم بمتحيز ويقول لايعقل موجود الا كذلك كما قال طوائف من أهل الكلام والنظر ثم الفلاسفة كابن سينا وأتباعه والشهرستاني والرازي وغيرهم لما أرادوا اثبات موجود ليس كذلك كان أكبر عمدتهم اثبات الكليات كالانسانية المشتركة والحيوانية المشتركة واذا كانت هذه لاتكون كليات الا في الذهن فلم ينازعهم الناس في ذلك وانما نازعوهم في اثبات موجود خارج الذهن قائم بنفسه لايمكن الاحساس به بحال بل لايكون الا

معقولا وقالوا لهم المعقول ما كان في العقل وأما ما كان موجودا قائما بنفسه فلا بد أن يمكن الاحساس به وان لم نحس نحن به في الدنيا كما لانحس بالجن والملائكة وغير ذلك فلا بد أن يحس به غيرنا كالملائكة والجن وأن يحس به بعد الموت أو في الدار الآخرة أو يحس به بعض الناس دون بعض في الدنيا كالانبياء الذين رأوا الملائكة وسمعوا كلامهم وهذه الطريقة وهو ان كل قائم بنفسه يمكن رؤيته هي التي سلكها أئمة النظار كابن كلاب وغيره وسلكها ابن الزاغوني وغيره وأما من قال ان كل موجود يجوز رؤيته أو يجوز أن يحس بسائر الحواس الخمس كما يقوله الاشعري وموافقوه كالقاضي أبي يعلى وأبي المعالي وغيرهما فهذه الطريقة مردودة عند جماهير العقلاء بل يقولون فسادها معلوم بالضرورة بعد التصور التام كما بسط في موضعه وكذلك نزاعهم في روح الانسان التي تفارقه بالموت على قول الجمهور الذين يقولون هي عين قائمة بنفسها ليست عرضا من اعراض البدن كالحياة وغيرها ولاجزأ من أجزاء البدن كالهواء الخارج منه فان كثيرا من المتكلمين زعموا أنها عرض قائم بالبدن أو جزء من أجزاء البدن لكن هذا مخالف للكتاب والسنة واجماع السلف والخلف ولقول جماهير العقلاء من جميع الامم ومخالف للادلة وهذا مما استطال به الفلاسفة على كثير من أهل الكلام قال القاضي أبو بكر أكثر المتكلمين على أن الروح عرض من الاعراض وبهذا نقول اذا لم يعن بالروح النفس فانه قال الروح الكائن في الجسد ضربان أحدهما الحياة القائمة به والآخر النفس والنفس ريح ينبث به والمراد بالنفس مايخرج بنفس المتنفس من أجزاء الهواء المتحلل من المسام وهذا قول الاسفرائيني وغيره وقال ابن فورك هو مايجرى في تجاويف الاعضاء وأبو المعالي خالف هؤلاء وأحسن في مخالفتهم فقال ان الروح أجسام لطيفة مشابكة للاجسام المحسوسة أجرى الله العادة بحياة الاجساد مااستمرت مشابكتها لها فاذا فارقتها تعقب الموت الحياة في استمرار العادة ومذهب الصحابة والتابعين لهم باحسان وسائر سلف الامة وأئمة السنة ان الروح عين قائمة بنفسها تفارق البدن وتنعم وتعذب ليست هي البدن ولاجزأ من أجزائه كالنفس المذكور ولما كان الامام أحمد ممن نص على ذلك كما نص عليه غيره من الائمة لم يختلف أصحابه في ذلك لكن طائفة منهم كالقاضي أبي يعلى زعموا أنها جسم وأنها الهواء المتردد في مخاريق البدن موافقة لاحد المعنيين الذين ذكرهما الباقلاني وهذه الاقوال لما كانت من أضعف الاقوال تسلط بها عليهم خلق كثير والمقصود هنا أن الذين قالوا انها عين

Digitized by Google

قائمة بنفسها غير البدن وأجزائه وأعراضه تنازعوا هل هى جسم متحيز على قولين كتنازعهم في الملائكة فالمتكلمون منهم يقولون جسم والمتفلسفة يقولون جوهر عقلى ليس بجسم وقد أشرنا فيما تقدم الى أن ماتسميه المتفلسفة جواهر عقلية لاتوجد الا في الذهن وأصل تسميتهم المجردات والمفارقات هو مأخوذ من نفس الانسان فانها لما كانت تفارق بدنه بالموت وتجرد عنه سموها مفارقة مجردة ثم أثبتوا ماأثبتوه من العقول والنفوس وسموها مفارقات ومجردات لمفارقتها المادة التى هى عندهم الجسم وهذه المفارقات عندهم مالا يكون جسما ولا قائما بجسم لكن النفس متعلقة بالجسم تعلق التدبير والعقل لاتعلق له بالاجسام أصلا ولا ريب أن جماهير العقلاء على أثبات الفرق بين البدن والروح التى تفارق والجمهور يسمون ذلك روحا وهذا جسما لكن لفظ الجسم في اللغة ليس هو الجسم في اصطلاح المتكلمين بل الجسم هو الجسد كما تقدم وهو الجسم الغليظ أو غلظه والروح ليست مثل البدن في الغلظ والكثافة ولذلك لاتسمى جسما فمن جعل الملائكة والارواح ونحو ذلك جسما بالمعنى اللغوى فقد أصاب في ذلك ورب العالمين أولى أن لايكون جسما فانه من المشهور في اللغة الفرق بين الارواح والاجسام وأما أهل الاصطلاح من المتكلمة والمتفلسفة فيجعلون مسمى الجسم أعم من ذلك وهو ماأمكنت الاشارة الحسية اليه وما قيل أنه هنا وهناك وما قبل الابعاد الثلاثة ونحو ذلك وكذلك المتحيز في اصطلاح هؤلاء هو الجسم ويدخل فيه الجوهر الفرد عند من أثبته وقد تقدم معنى الجسم في اللغة وأما المتحيز فقد قال تعالى (ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله) وقال الجوهرى الحوز الجمع وكل من ضم الى نفسه شيأ فقد حازه حوزا وحيازة واحتازه أيضا والحوز والحيز السوق اللين وقد حاز الابل يحوزها ويحيزها وحوز الابل ساقها الى الماء وقال الاصمعى اذا كانت الابل بعيدة المرعى عن الماء فأول ليلة يوجهها الى الماء ليلة الحوز وتحوزت الحية وتحيزت تلوت يقال مالك تحوز تحوز الحية وتحيز تحيز الحية قال سيبويه هو من تفعل من حزت الشئ قال القطامى

تحيز منى خشية أن أضيفها ... كما انحازت الافعى مخافة ضارب

يقول تتنحى عنى هذه العجوز وتتأخر خشية أن أنزل عليها ضيفا والحيز ماانضم الى الدار من مرافقها وكل ناحية حيز وأصله في الدار والحيز تخفيف حيز مثل هين وهين ولين ولين والجمع أحياز والحوزة الناحية وانحاز عنه انعدل وانحاز

Digitized by Google

القوم تركوا مركزهم الى آخر يقال للاولياء انحازوا عن العدو وحاصوا والاعداء انهزموا وولوا مدبرين وتحاوز الفريقان في الحرب انحاز كل فريق عن الآخر فهذا المذكور عن أهل اللغة في هذا اللفظ ومادته تقضى ان التحيز والانحياز والتحوز ونحو ذلك تضمن عدولا من محل الى محل وهذا أخص من كونه يحوزه أمر موجود فهم يراعون في معنى الحوز ذهابه من جهة الى جهة ولهذا يقولون حزت المال وحزت الابل وذلك يتضمن نقله من جهة الى جهة فالشيء المستقر في موضعه كالجبل والشمس والقمر لايسمونه متحيزا وأعم من هذا أن يراد بالمتحيز مايحيط به حيز موجود فيسمى كل ماأحاط به غيره انه متحيز وعلى هذا فما بين السماء والارض متحيز بل مافي العالم متحيز الاسطح العالم الذى لايحيط به شيء فان ذلك ليس بمتحيز وكذلك العالم جملة ليس بمتحيز بهذا الاعتبار فانه ليس في عالم آخر أحاط به والمتكلمون يريدون بالمتحيز ماهو أعم من هذا والحيز عندهم أعم من المكان فالعالم كله في حيز وليس هو في مكان والمتحيز عندهم لايعتبر فيه انه يحوزه غيره ولا يكون له حيز وجودى بل كل ماأشير اليه وامتاز منه شيء عن شيء فهو متحيز عندهم ثم هم مختلفون بعد هذا في المتحيز هل هو مركب من الجواهر الفردة أو من المادة والصورة أو هو غير مركب لامن هذا ولا من هذا كما تقدم نزاعهم في الجسم فالجسم عندهم متحيز ولا يخرج عنه الا الجوهر الفرد عند من أثبته وهؤلاء يعتقد كثير منهم أو أكثرهم أن كل متحيز فهو مركب يقبل الانقسام الى جزء لايتجزى بل يظن بعضهم أن هذا اجماع المسلمين وأكثرهم يقولون المتحيزات متماثلة في الحد والحقيقة ومن كان معنى المتحيز عنده هذا فعليه أن ينزه الله تعالى أن يكون متحيزا بهذا الاعتبار واذا قال الملائكة متحيزون بهذا الاعتبار أو الروح متحيزة بهذا الاعتبار نازعه في ذلك جمهور العقلاء من المسلمين وغيرهم بل لايعرف أحد من سلف الأمة وأئمتها يقول ان الملائكه متحيزة بهذا الاعتبار ولا قالوا لفظا يدل على هذا المعنى وكذلك روح بنى آدم التى تفارقه بالموت لم يقل أحد من السلف أنها متحيزة بهذا الاعتبار ولا قال فيها لفظا يدل على هذا المعنى فاذا كان أثبات هذا التحيز للملائكة والروح بدعة في الشرع وباطلا في الشرع فلأن يكون ذلك بدعة و باطلا في رب العالمين بطريق الأولى والأحرى ومن هنا يتبين ان عامة مايقوله المتفلسفة وهؤلاء المتكلمة في نفوس بنى آدم وفي الملائكة باطلة فكيف بما يقولونه في رب العالمين ولهذا توجد الكتب المصنفة

Digitized by Google

التى يذكر فيها مقالات هؤلاء وهؤلاء في هذه المسائل الكبار في رب العالمين وفي ملائكته وفي أرواح بنى آدم وفي المعاد وفي النبوات ليس فيها قول يطابق العقل والشرع ولا يعرفون ماقاله السلف والأئمة في هذا الباب ولا مادل عليه الكتاب والسنة فلهذا يغلب على فضلائهم الحيرة فانهم اذا أنهوا النظر لم يصلوا الى علم لأن مانظروا فيه من كلام الطائفتين مشتمل على باطل من الجانبين ولهذا قال أبو عبدالله الرازى في آخر عمره لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفى عليلا ولا تروى غليلا ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن . اقرأ في الاثبات اليه يصعد الكلم الطيب والرحمن على العرش استوى واقرأ في النفي ليس كمثله شيء ولا يحيطون به علما ومن جرب مثل تجربتى عرف مثل معرفتى وأما من اعتقد أن المتحيز هو مابابن غيره فانحاز عنه وليس من شرطه ان يكون مركبا من الاجزاء الفردة ولا أنه يقبل التفريق والتقسيم فاذا قال ان الرب متحيز بهذا المعنى أى انه بائن عن مخلوقاته فقد أراد معنى صحيحا لكن اطلاق هذه العبارة بدعة وفيها تلبيس فان هذا الذى أراده ليس معنى المتحيز في اللغة وهو اصطلاح له ولطائفته وفي المعنى المصطلح نزاع بين العقلاء فصار يحتمل معنى فاسدا يجب تنزيه الرب عنه وليس للانسان ان يطلق لفظا يدل عند غيره على معنى فاسد ويفهم ذلك الغير ذلك المعنى الفاسد من غير بيان مراده بل هؤلاء المتكلمون الذين أرادوا بالمتحيز ماكان مؤلفا من أجزاء لاتقبل القسمة وهو ماكان قابلا للقسمة اذا قالوا ان كل ممكن أو كل محدث أو كل مخلوق فهو اما متحيز واما قائم بمتحيز كان جماهير العقلاء يخالفونهم في هذا التقسيم ولم يكن أحدمن أئمة المسلمين لامن الصحابة ولا من التابعين لهم باحسان الى يوم الدين ولا سائر أئمة المسلمين موافقا لهم على هذا التقسيم فكيف اذا قال من قال منهم كل موجود فهو اما متحيز واما قائم بمتحيز وأراد بالمتحيز ماأراده هؤلاء فان قوله حينئذ يكون أبعد عن الشرع والعقل من قول أولئك ولهذا طالبهم متأخروهم بالدليل على هذا الحصر وليس خطأ هؤلاء من جهة ماأثبته المتفلسفة من الجواهر العقلية فان تلك قد علم بطلانها بصريح العقل أيضا وما يقوله هؤلاء المتفلسفة في النفس الناطقة من أنها لايشار اليها ولا توصف بحركة ولاسكون ولاصعود ولا نزول وليس داخل العالم ولا خارجه وهو أيضا كلام أبطل من كلام أولئك المتكلمين عند جماهير العقلاء ولا سيما من يقول منهم كابن سينا وأمثاله انها لاتعرف شيأ من الأمور الجزئية وانما تعرف الامور

Digitized by Google

الكلية فان هذا مكابرة ظاهرة فانها تعرف بدنها وتعرف كل ماتراه بالبدن وتشمه وتسمعه وتذوقه وتقصده وتأمر به وتحبه وتكرهه الى غير ذلك مما تتصرف فيه بعلمها وعملها فكيف يقال انها لاتعرف الأمور المعينة وانما تعرف أمورا كلية وكذلك قولهم ان تعلقها بالبدن ليس الا مجرد تعلق التدبير والتصريف كتدبير الملك لمملكته من أفسد الكلام فان الملك يدبر أمر مملكته فيأمر وينهى ولكن لايصرفهم هو بمشيئته وقدرته ان لم يتحركوا هم بارادتهم وقدرتهم والملك لايلتذ بلذة أحدهم ولا يتألم بتألمه وليس كذلك الروح والبدن بل قد جعل الله بينهما من الاتحاد والائتلاف مالا يعرف له نظير يقاس به ولكن دخول الروح فيه ليس هو مماثلا لدخول شئ من الاجسام المشهودة فليس دخولها فيه كدخول الماء ونحوه من المائعات في الاوعية فان هذه انما تلاقى السطح الداخل في الاوعية لابطونها ولا ظهورها وانما يلاقى الأوعية منها أطرافها دون أوساطها وليس كذلك الروح والبدن بل الروح متعلقة بجميع أجزاء البدن باطنه وظاهره وكذلك دخولها فيها ليس كدخول الطعام والشراب في بدن الآكل فان ذلك له مجار معروفة وهو مستحيل الى غير ذلك من صفاته ولا جريانها في البدن كجريان الدم فان الدم يكون في بعض البدن دون بعض ففي الجملة كل مايذكر من النظائر لايكون كل شئ منه متعلقا بالآخر بخلاف الروح والبدن لكن هي مع هذا في البدن قد ولجت فيه وتخرج منه وقت الموت وتسل منه شيأفشيأ فتخرج من البدن شيأ فشيأ لاتفارقه كما يفارق الملك مدينته التى يدبرها والناس لما لم يشهدوا لها نظيرا عسر عليهم التعبير عن حقيقتها وهذا تنبيه لهم على رب العالمين حيث لم يعرفوا حقيقته ولا تصوروا كيف هو سبحانه وتعالى وان مايضاف اليه من صفاته هو على مايليق به جل جلاله فان الروح التي هي بعض عبيده توصف بأنها تعرج اذانام الانسان وتسجد تحت العرش وهي مع هذا في بدن صاحبها لم تفارقه بالكلية والانسان في نومه يحس بتصرفات روحه تصرفات توثر في بدنه فهذا الصعود الذى توصف به الروح لايماثل صعود المشهودات فانها اذا صعدت الى مكان فارقت الاول بالكلية وحركتها الى العلو حركة انتقال من مكان الى مكان وحركة الروح بعروجها وسجودها ليس كذلك فالرب سبحانه اذا وصفه رسوله بانه ينزل الى سماء الدنيا كل ليلة وانه يدنو عشية عرفة الى الحجاج وانه كلم موسى في الوادى الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة وانه استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللارض ائتيا

طوعا أو كرها لم يلزم من ذلك أن تكون هذه الافعال من جنس ما نشاهده من نزول هذه الأعيان المشهودة حتى يقال ذلك يستلزم تفريغ مكان وشغل آخر فان نزول الروح وصعودها لا يستلزم ذلك فكيف برب العالمين وكذلك الملائكة لهم صعود ونزول من هذا الجنس فلا يجوز نفي ما أثبته الله ورسوله من الاسماء والصفات ولا يجوز تمثيل ذلك بصفات المخلوقات لاسيما مالا نشاهده من المخلوقات فان ما ثبت لما لا نشاهده من المخلوقات من الاسماء والصفات ليس مماثلا لما نشاهده منها فكيف برب العالمين الذى هو أبعد عن مماثلة كل مخلوق من مماثلة مخلوق لمخلوق وكل مخلوق فهو أشبه بالمخلوق الذى لا يماثله من الخالق بالمخلوق سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا وهذا الذى نبهنا عليه مما يظهر به ان مايذكره صاحب المحصل وأمثاله من تقسيم الموجودات على رأى المتفلسفة والمتكلمة كله تقسيم غير حاصر وكل من الفريقين مقصر عن سلفه اما المتكلمون فلم يسلكوا من التقسيم المسلك الذى دل عليه الكتاب والسنة وكان عليه سلف الأمة وكذلك هؤلاء المتفلسفة أتباع ارسطو لم يسلكوا مسلك الفلاسفة الاساطين المتقدمين فان أولئك كانوا يقولون بحدوث هذا العالم وكانوا يقولون ان فوق هذا العالم عالما آخر يصفونه ببعض ماوصف النبي صلى الله عليه وسلم الجنة وكانوا يثبتون معاد الابدان كما يوجد هذا في كلام سقراط وتاليس وغيرهما من أساطين الفلاسفة وقد ذكروا أن أول من قال منهم بقدم العالم ارسطو وهذه الالفاظ المحدثة المجملة النافية مثل لفظ المركب والمؤلف والمنقسم ونحو ذلك قد صار كل من أراد نفي شيء مما أثبته الله لنفسه من الاسماء والصفات عبر بها عن مقصوده فيتوهم من لا يعرف مراده ان المراد تنزيه الرب الذى ورد به القرآن وهو اثبات أحديته وصمديته ويكون قد أدخل في تلك الالفاظ مارآه هو منفيا وعبر عنه بتلك العبارة وضعا له واصطلاحا اصطلح عليه هو ومن وافقه على ذلك المذهب وليس ذلك من لغة العرب التى نزل بها القرآن ولا من لغة أحد من الامم ثم يجعل ذلك المعنى هو مسمى الاحد والصمد والواحد ونحو ذلك من الاسماء الموجودة في الكتاب والسنة ويجعل مانفاه من المعانى التى أثبتها الله ورسوله من تمام التوحيد واسم التوحيد اسم معظم جاءت به الرسل ونزلت به الكتب فاذا جعل تلك المعانى التى نفاها من التوحيد ظن من لم يعرف مخالفة مراده لمراد الرسول انه يقول بالتوحيد الذى جاءت به الرسل ويسمى طائفته الموحدين كما يفعل ذلك الجهمية والمعتزلة ومن وافقهم على نفي شيء من الصفات

ويسمون ذلك توحيدا ويسمون علمهم علم التوحيد كما تسمى المعتزلة ومن وافقهم على نفى القدر عدلا ويسمون أنفسهم العدلية وأهل العدل ومثل هذه البدع كثير جدا يعبر بألفاظ الكتاب والسنة عن معان مخالفة لما أراد الله ورسوله بتلك الالفاظ ولا يكون أصحاب تلك الاقوال تلقوها ابتداء عن الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم بل عن شبه حصلت لهم وأئمة لهم وجعلوا التعبير عنها بألفاظ الكتاب والسنة حجة ولهم عمدة لهم ليظهر بذلك أنهم متابعون للرسول لامخالفون له وكثير منهم لا يعرفون ان ماذكروه مخالف للرسول بل يظن ان هذا المعنى الذى أراده هو الذى أراده الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه فلهذا يحتاج المسلمون الى شيئين أحدهما معرفة ماأراد الله ورسوله بألفاظ الكتاب والسنة بان يعرفوا لغة القرآن التى بها نزل وماقاله الصحابة والتابعون لهم باحسان وسائر علماء المسلمين في معانى تلك الالفاظ فان الرسول لما خاطبهم بالكتاب والسنة عرفهم ماأراد بتلك الالفاظ وكانت معرفة الصحابة لمعانى القرآن أكمل من حفظهم لحروفه وقد بلغوا تلك المعانى الى التابعين أعظم مما بلغوا حروفه فان المعانى العامة التى يحتاج اليها عموم المسلمين مثل معنى التوحيد ومعنى الواحد والاحد والايمان والاسلام ونحو ذلك كان جميع الصحابة يعرفون ماأحب الله ورسوله من معرفتها ولا يحفظ القرآن كله الا قليل منهم وان كان شئ من القرآن يحفظه منهم أهل التواتر والقرآن مملوء من ذكر وصف الله بانه أحد وواحد ومن ذكر أن إلهكم واحد ومن ذكر أنه لااله الا الله ونحو ذلك فلا بد أن يكون الصحابة يعرفون ذلك فان معرفته أصل الدين وهو أول مادعى الرسول اليه الخلق وهو أول مايقاتلهم عليه وهو أول ماأمر رسله ان تأمر الناس به وقد تواتر عنه انه أول مادعى الخلق الى أن يقولوا لااله الا الله ولما أمر بالجهاد بعد الهجرة قال أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لااله الا الله وأنى رسول الله وفي الصحيحين انه لما بعث معاذا الى اليمن قال له انك تأتى قوما أهل كتاب فليكن أول ماتدعوهم اليه شهادة أن لااله الا الله وأنى رسول الله فانهم أطاعوا لك بذلك فأعلمهم ان الله قد افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم فان هم أطاعوا لك بذلك فاياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب فقال لمعاذ ليكن أول ماتدعوهم اليه التوحيد ومع هذا كانوا من أهل الكتاب كانوا يهودا فان اليهود كانوا كثيرين بأرض اليمن وهذا الذي أمر به معاذا موافق لقوله تعالى (فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين

Digitized by Google

حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) وفي الآية الأخرى (فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم في الدين) وهذا مطابق لقوله تعالى (وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة) وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال الايمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة أفضلها قول لااله الا الله وأدناها اماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الايمان فالمقصود ان معرفة ماجاء به الرسول وما أراده بألفاظ القرآن والحديث هو أصل العلم والايمان والسعادة والنجاة ثم معرفة ماقال الناس في هذا الباب لينظر المعانى الموافقة للرسول والمعانى المخالفة لها والالفاظ نوعان نوع يوجد في كلام الله ورسوله ونوع لايوجد في كلام الله ورسوله فيعرف معنى الاول ويجعل ذلك المعنى هو الاصل ويعرف مايعنيه الناس بالثانى ويرد الى الاول هذا طريق أهل الهدى والسنة وطريق أهل الضلال والبدع بالعكس يجعلون الالفاظ التى أحدثوها ومعانيها هى الاصل ويجعلون ماقاله الله ورسوله تبعا لهم ويردونها بالتأويل والتحريف الى معانيهم ويقولون نحن نفسر القرآن بالعقل واللغة يعنون أنهم يعتقدون معنى بعقلهم ورأيهم ثم يتأولون القرآن عليه بما يمكنهم من التأويلات والتفسيرات المتضمنة لتحريف الكلم عن مواضعه ولهذا قال الامام أحمد أكثر مايخطىء الناس من جهة التأويل والقياس وقال يجتنب المتكلم في الفقه هذين الاصلين المجمل والقياس وهذه الطريق يشترك فيها جميع أهل البدع الكبار والصغار فهي طريق الجهمية والمعتزلة ومن دخل في التأويل من الفلاسفة والباطنية الملاحدة وأما حذاق الفلاسفة فيقولون ان المراد بخطاب الرسول انما هو أن يخيل الى الجمهور ماينتفعون به من مصالح دنياهم وان لم يكن ذلك مطابقا للحق قالوا وليس مقصود الرسول بيان الحق وتعريفه بل مقصوده ان يخيل اليهم مايعتقدون ويجعلون خاصية النبوة قوة التخييل فهم يقولون أن الرسول لم يبين ولم يفهم بل ولم يقصد ذلك وهم متنازعون هل كان يعلم الامور على ماهى عليه على قولين منهم من قال كان يعلمها لكن ماكان يمكنه بيانها وهؤلاء قد يجعلون الرسول أفضل من الفيلسوف ومنهم من يقول بل ما كان يعرفها أوما كان حاذقا في معرفتها وانما كان يعرف الامور العلمية وهؤلاء يجعلون الفيلسوف أكمل من النبي لان الامور العملية أكمل من العملية فهؤلاء يجعلون خبر الله وخبر الرسول انما فيه التخييل وأولئك يقولون لم يقصد

Digitized by Google

به التخييل ولكن قصد معنى يعرف بالتأويل وكثير من أهل الكلام الجهمية يوافق أولئك على انه ما كان يمكنه أن يبوح بالحق في باب التوحيد فخاطب الجمهور بما خيل لهم كما يقولون انه لو قال ان ربكم ليس بداخل العالم ولا خارجه ولا يشار اليه ولا هو فوق العالم ولا كذا ولا كذا لنفرت قلوبهم عنه وقالوا هذا لايعرف قالوا فخاطبهم بالتجسيم حتى يثبت لهم رب يعبدونه وان كان يعرف ان التجسيم باطل وهذا يقوله طوائف من أعيان الفقهاء المتأخرين المشهورين الذين ظنوا ان مذهب النفاة هو الصحيح واحتاجوا أن يعتذروا عما جاء به الرسول من الاثبات كما يوجد في كلام غير واحد وتارة يقولون انما عدل الرسول عن بيان الحق ليجتهدوا في معرفة الحق من غير تعريفه ويجتهدوا في تأويل ألفاظه فتعظم أجورهم على ذلك وهو اجتهادهم في عقلياتهم وتأويلاتهم ولا يقولون انه قصد به افهام العامة الباطل كما يقول أولئك المتفلسفة وهذا قول أكثر المتكلمين النفاة من الجهمية والمعتزلة ومن سلك مسلكهم حتى ابن عقيل وأمثاله وأبو حامد وابن رشد الحفيد وأمثالهما يوجد في كلامهم المعنى الاول وأبو حامد انما ذم التأويل في آخر عمره وصنف الجام العوام عن علم الكلام محافظة على هذا الاصل لانه رأى مصلحة الجمهور لاتقوم الا بابقاء الظواهر على ماهي عليه وان كان هو يرى ماذكره في كتبه المضنون بها ان النفي هو الثابت في نفس الامر فلم يجعلوا مقصوده بالخطاب البيان والهدى كما وصف الله كتابه ونبيه حيث قال (هدى للمتقين) وقال (هذا بيان للناس) وقال (انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) وقال (وما على الرسول الا البلاغ المبين) وقال (كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور) وأمثال ذلك وقال النبي صلى الله عليه وسلم تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لايزيغ عنها بعدي الا هالك وقال تعالى (وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) وقال (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم) وقال (ما كنت تدري ماالكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وانك لتهدي الى صراط مستقيم) وقال (فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون) وثم طائفة ثالثة كثرت في المتأخرين المنتسبين الى السنة يقولون مايتضمن ان الرسول لم يكن يعرف معاني ماأنزل عليه من القرآن كآيات الصفات بل لازم قولهم أيضا أنه كان

Digitized by Google

يتكلم بأحاديث الصفات ولا يعرف معناها وهؤلاء مساكين لما رأوا المشهور عن جمهور السلف من الصحابة والتابعين ان الوقف التام عد قوله (وما يعلم تأويله الا الله) وافقوا السلف وأحسنوا في هذه الموافقة لكن ظنوا أن المراد بالتأويل هو تأويل معنى اللفظ وتفسيره أو هو التأويل الاصطلاحى الذى يجرى في كلام كثير من متأخرى أهل الفقه والاصول وهو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح الى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن به فهم قد سمعوا كلام هؤلاء وهؤلاء فصار لفظ التأويل عندهم هذا معناه ولما سمعوا قول الله تعالى (وما يعلم تأويله الا الله) ظنوا أن لفظ التأويل في القرآن معناه هو معنى لفظ التأويل في كلام هؤلاء فلزم من ذلك انه لا يعلم أحد معنى هذه النصوص الا الله لا جبريل ولا محمد ولا غيرهما بل كل من الرسولين على قولهم يتلو أشرف ما في القرآن من الاخبار عن الله بأسمائه وصفاته وهو لا يعرف معنى ذلك أصلا ثم كثير منهم يذمون ويبطلون تأويلات أهل البدع من الجهمية والمعتزلة وغيرهما وهذا جيد لكن قد يقولون تجرى على ظواهرها وما يعلم تأويلها الا الله فان عنوا بظواهرها ما يظهر منها من المعانى كان هذا مناقضا لقولهم ان لها تأويلا يخالف ظاهرها لا يعلمه الا الله وان عنوا بظواهرها مجرد الالفاظ كان معنى كلامهم انه يتكلم بهذه الالفاظ ولها باطن يخالف ما ظهر منها وهو التأويل وذلك لا يعلمه الا الله وفيهم من يريد باجرائها على ظواهرها هذا المعنى وفيهم من يريد الاول وعامتهم يريدون بالتأويل المعنى الثالث وقد يريدون به الثانى فانه أحيانا قد يفسر النص بما يوافق ظاهره ويبين من هذا ليس من التأويل الثالث فيأتون ذلك ويكرهون تدبر النصوص والنظر في معانيها أعنى النصوص التى يقولون انه لم يعلم تأويلها الا الله ثم هم في هذه النصوص بحسب عقائدهم فان كانوا من القدرية قالوا النصوص المثبتة لكون العبد فاعلا محكمة والنصوص المثبتة لكون الله تعالى خالق أفعال العباد أو مريد الكل ما وقع نصوص متشابهة لا يعلم تأويلها الا الله اذا كانوا ممن لا يتأولها فان عامة الطوائف منهم من يتأول ما يخالف قوله ومنهم من لا يتأوله وان كانوا من الصفاتية المثبتين من الصفات التى زعموا أنهم يعلمونها بالعقل دون الصفات الخبرية مثل كثير من متأخرى الكلابية كأبى المعالى في آخر عمره وابن عقيل في كثير من كلامه قالوا عن النصوص المتضمنة للصفات التى لا تعلم عندهم بالعقل هذه نصوص متشابهة لا يعلم تأويلها الا الله وكثير منهم يكون له قولان وحالان تارة يتأول ويوجب التأويل أو يجوزه وتارة

بحرمه كما يوجد لأبي المعالي ولابن عقيل ولامثالهما من اختلاف الاقوال ومن أثبت العلو بالعقل وجعله من الصفات العقلية كأبي محمد بن كلاب وأبي الحسن بن الزاغوني ومن وافقه وكالقاضي أبي يعلى في آخر قوليه وأبي محمد أثبتوا العلو وجعلوا الاستواء من الصفات الخبرية التي يقولون لايعلم تأويلها الا الله وان كانوا ممن يرى الفوقية والعلو أيضا من الصفات الخبرية كقول القاضي أبي بكر وأكثر الاشعرية وقول القاضي أبي يعلى في أول قوليه وابن عقيل في كثير من كلامه وأبي بكر البيهقي وأبي المعالي وغيرهم سلك مسلك أولئك وهذه الامور مبسوطة في موضعها والمقصود هنا ان كل طائفة تعتقد من الآراء ماينافض مادل عليه القرآن يجعلون تلك النصوص من المتشابهة ثم ان كانوا ممن يرى الوقف عند قوله الا الله قالوا لايعلم معناها الا الله فيلزم أن لايكون محمد وجبريل ولا أحد علم معاني تلك الآيات والاخبار وان رأوا الوقف على قوله والراسخون في العلم جعلوا الراسخين يعلمون مايسمونه هم تأويلا ويقولون ان الرسول انما لم يبين الحق بخطابه ليجتهد الناس في معرفة الحق من غير جهته بعقولهم وأذهانهم ويجتهدون في تخريج ألفاظه على اللغات العربية فيجتهدون في معرفة غرائب اللغات التي يتمكنون بها من التأويل وهذا ان قالوا انه قصد بالقرآن والحديث معنى حقا في نفس الامر وان قالوا بقول الفلاسفة والباطنية الذين لايرون التأويل قالوا لم يقصد بهذه الالفاظ الا مايفهمه العامة والجمهور وهو باطل في نفس الأمر لكن أراد أن يخيل لهم ماينتفعون به ولم يمكنه أن يعرفهم الحق فانهم كانوا ينفرون عنه ولايقبلونه وأما من قال من الباطنية الملاحدة وفلاسفتهم بالتأويل فانه يتأول كل شيء مما أخبرت به الرسل من أمر الايمان واليوم الآخر ثم يؤلون العبارات كما هو معروف من تأويلات القرامطة الباطنية وأبي حامد في الاحياء ذكر قول هؤلاء المتأولين من الفلاسفة وقال انهم أسرفوا في التأويل وأسرفت الحنابلة في الجمود وذكر عن أحمد بن حنبل كلاما لم يقله أحمد فانه لم يكن يعرف ماقاله أحمد ولا ماقاله غيره من السلف في هذا الباب ولا ماجاء به القرآن والحديث وقد سمع مضافا الى الحنابلة مايقوله طائفة منهم ومن غيرهم من المالكية والشافعية وغيرهم في الحرف والصوت وبعض الصفات مثل قولهم ان الاصوات المسموعة من القراء قديمة أزلية وان الحروف المتعاقبة قديمة أزلية وأنه ينزل الى سماء الدنيا ويخلو منه العرش حتى يبقى بعض المخلوقات فوقه وبعضها تحته الى غير ذلك من المنكرات فانه مامن طائفة الا وفي بعضهم من يقول أقوالا ظاهرها

Digitized by Google

الفساد وهي التي يحفظها من ينفر عنهم ويشنع بها عليهم وان كان أكثرهم ينكرها ويدفعها كما في هذه المسائل المنكرة التي يقولها بعض أصحاب أحمد ومالك والشافعي فان جماهير هذه الطوائف ينكرها وأحمد وجمهور أصحابه منكرون لها وكلامهم في انكارها وردها كثير جدا لكن يوجد في أهل الحديث مطلقا من الحنبلية وغيرهم من الغلط في الاثبات أكثر مما يوجد في أهل الكلام ويوجد في أهل الكلام من الغلط في النفي أكثر مما يوجد في أهل الحديث لان الحديث انما جاء باثبات الصفات ليس فيه شيء من النفي الذى انفرد به أهل الكلام والكلام المأخوذ عن الجهمية والمعتزلة مبني على النفي المناقض لصرائح القرآن والحديث بل والعقل الصريح أيضا لكنهم يدعون أن العقل دل على النفي وقد ناقضهم طوائف من أهل الكلام وزادوا في الاثبات كالهشامية والكرامية وغيرهم لكن النفي في جنس الكلام المبتدع الذى ذمه السلف أكثر والمنتسبون الى السنة من الحنبليين وغيرهم الذين جعلوا لفظ التأويل يعم القسمين يتمسكون بما يحدثونه في كلام الائمة في المتشابه مثل قول أحمد في رواية حنبل ولا كيف ولا معنى ظنوا أن مراده انا لانعرف معناها وكلام أحمد صريح بخلاف هذا في غير موضع وقد بين انه انما ينكر تأويلات الجهمية ونحوهم الذين يتأولون القرآن على غير تأويله وصنف كتابه في الرد على الزنادقة والجهمية فيما أنكرته من متشابه القرآن وتأولته على غير تأويله فأنكر عليهم تأويل القرآن على غير مراد الله ورسوله وهم اذا تأولوه يقولون معنى هذه الآية كذا والمكيفون يثبتون كيفية يقولون انهم علموا كيفية ما أخبروا به من صفات الرب فنفى أحمد قول هؤلاء وهؤلاء قول المكيفة الذين يدعون أنهم علموا الكيفية وقول المحرفة الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون معناه كذا وكذا وقد كتبت كلام أحمد بألفاظه كما ذكره الخلال في كتاب السنة وكما ذكره من نقل كلام أحمد باسناده في الكتب المصنفة في ذلك في غير هذا الموضع وبين أن لفظ التأويل في الآية انما أريد به التأويل في لغة القرآن كقوله تعالى (هل ينظرون الا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل) وعن ابن عباس في قوله (هل ينظرون الا تأويله) تصديق ماوعد في القرآن وعن قتادة تأويله ثوابه وعن مجاهد جزاءه وعن السدى عاقبته وعن ابن زيد حقيقته قال بعضهم تأويله مايؤول اليه أمرهم من العذاب وورود النار

Digitized by Google

وقوله تعالى (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله) قال بعضهم تصديق ماوعدوا به من الوعيد والتأويل مايؤول اليه الأمر وعن الضحاك يعني عاقبة ماوعد الله في القرآن انه كان من الوعيد والتأويل مايؤول اليه الامر وقال الثعلبي تفسيره وليس بشيء وقال الزجاج لم يكن معهم علم تأويله وقال يوسف الصديق عليه السلام (ياأبت هذا تأويل رؤياى من قبل) فجعل نفس سجود أبويه له تأويل رؤياه وقال قبل هذا (لايأتيكما طعام ترزقانه ألا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما)أى قبل أن يأتيكما التأويل والمعنى لايأتيكما طعام ترزقانه في المنام كما قال أحدهما انى أرانى أعصر خمرا وقال الآخر انى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا الا نبأتكما بتأويله في اليقظة قبل أن يأتيكما التأويل هذا قول أكثر المفسرين وهو الصواب وقال بعضهم لايأتيكما طعام ترزقانه تطعمانه وتأكلانه ألا نبأتكما بتأويله بتفسيره وألوانه أى طعام أكلتم وكم أكلتم ومتى أكلتم فقالوا هذا فعل العرافين والكهنة فقال ماأنا بكاهن وانما ذلك العلم مما يعلمنى ربى وهذا القول ليس بشيء فانه قال الا نبأتكما بتأويله وقد قال أحدهما انى أرانى أعصر خمرا وقال الآخر انى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا أنبئنا بتأويله فطلبا منه تأويل مارأياه وأخبرهما بتأويل ذاك ولم يكن تأويله طعام في اليقظة ولا في القرآن انه أخبرهما بما يرزقانه في اليقظة. فكيف يقول قولا عاما لايأتيكما طعام ترزقانه وهذا الاخبار العام لايقدر عليه الا الله والانبياء يخبرون ببعض ذلك لايخبرون بكل هذا وأيضا فصفة الطعام وقدره ليس تأويلا له وأيضا فالله انما أخبر أنه علمه تأويل الرؤيا قال يعقوب عليه السلام (وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الاحاديث) وقال يوسف عليه السلام (رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث) وقال (هذا تأويل رؤياى) من قبل ولما رأى الملك قال له الذى ادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فارسلون والملك قال ياأيها الملأ أفتونى في رؤياى ان كنتم للرؤيا تعبرون قالوا أضغاث أحلام ومانحن بتأويل الأحلام بعالمين فهذا لفظ التأويل في مواضع متعددة كلها بمعنى واحد وقال تعالى (فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) وقال مجاهد وقتادة جزاء وثوابا وقال السدى وابن زيد وابن قتيبة والزجاج عاقبة وعن ابن زيد أيضا تصديقا كقوله هذا تأويل رؤياى من قبل وكل هذه الاقوال صحيحة والمعنى واحد وهذا تفسير السلف أجمعين ومنه قوله(سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبرا) فلما

Digitized by Google

ذكر له ماذكر قال (ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبرا) وهـذا تأويل فعل ليس هو
تأويل قوله والمراد به عاقبة هذه الافعال بما يؤل اليه مافعلته من مصلحة أهل السفينة
ومصلحة أبوى الغلام ومصلحة أهل الجدار وأما قول بعضهم ردكم الى الله والرسول
أحسن من تأويلكم فهذا قد ذكره الزجاج عن بعضهم وهـذا من جنس ماذكر من
تلك الآية في لفظ التأويل وهو تفسير له بالاصطلاح الحادث لا بلغة العرب فاما قدماء
المفسرين فلفظ التأويل والتفسير عندهم سواء كما يقول ابن جرير القول في تأويل
هذه الآية أى في تفسيرها ولما كان هـذا معنى التأويل عند مجاهد وهو امام التفسير
جعل الوقف على قوله والراسخون في العـلم فان الراسخين في العلم يعلمون تفسـيره
وهذا القول اختيار ابن قتيبة وغيره من أهل السنة وكان ابن قتيبة يميل الى مذهب
أحمد واسحق وقد بسط الكلام على ذلك في كتابه في المشكل وغيره وأما متأخرو
المفسرين كالثعلبي فيفرقون بين التفسير والتأويل قال فمعنى التفسـير هو التنوير
وكشف المغلق من المراد بلفظه والتأويل صرف الآية الى معنى تحتمله يوافق ماقبلها
وما بعدها وتكلم في الفرق بينهما بكلام ليس هذا موضعه الا أن التأويل الذى ذكره
هو المعنى الثالث المتأخر وأبو الفرج ابن الجوزى يقول اختلف العلماء هل التفسـير
والتأويل بمعنى واحد أم يختلفان فذهب قوم يميلون الى العربية الى أنهما بمعنى وهذا
قول جمهور المفسرين المتقدمـين وذهب قوم يميلون الى الفقه الى اختـلافهما فقالوا
التفسـير اخراج الشئ عن مقام الخفاء الى مقام التجلى والتأويل نقـل الكلام عن
وضعه الى مايحتاج في اثباته الى دليل لولاه ماترك ظاهر اللفظ فهو مأخوذ من قولك
آل الشئ الى كذا أى صار اليه فهؤلاء لايذكرون للتأويل الا المعنى الاول والثانى
وأما التأويل في لغة القرآن فلا يذكرونه وقد عرف ان التأويل في القرآن هو الموجود
الذى يؤل اليه الكلام وان كان ذلك موافقا للمعنى الذى يظهر من اللفظ بل لا يعرف
في القرآن لفظ التأويل مخالفا لما يدل عليه اللفظ خلاف اصطلاح المتأخرين والكلام
نوعان انشاء واخبار فالانشاء الأمر والنهى والاباحـة وتأويل الامر والنهى نفس
فعل المأمور ونفس ترك المحظور كما في الصحيح عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت
كان رسول الله صـلى الله عليه وسـلم يقول في ركوعه وسجوده سبحانك اللهم ربنا
وبحمدك اللهـم اغفر لى يتأول القرآن فكأن هذا الكلام تأويل قوله فسبح بحمد
ربك واسـتغفره قال ابن عيينة السنة تأويل الأمر والنهي وقال أبو عبيد لمـا ذكر

Digitized by Google

اختلاف الفقهاء وأهل اللغة في نهيه عن اشتمال الصماء قال والفقهاء اعلم بالتأويل
يقول هم أعلم بتأويل ماأمر الله به وما نهى عنه فيعرفون أعيان الافعال الموجودة
التى أمر بها وأعيان الافعال المحظورة التى نهى عنها وتفسير كلامه ليس هو نفس
مايوجد في الخارج بل هو بيانه وشرحه وكشف معناه فالتفسير من جنس الكلام
يفسر الكلام بكلام يوضحه وأما التأويل فهو فعل المأمور به وترك المنهى عنه ليس
من جنس الكلام والنوع الثانى الخبر كاخبار الرب عن نفسه تعالى باسمائه وصفاته
واخباره عما ذكره لعباده من الوعد والوعيد وهذا هو التأويل المذكور في قوله (ولقد
جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون هل ينظرون الا تأويله يوم يأتى
تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق) وهذا كقولهم (ياويلنا
من بعثنا من مرقدنا هذا ماوعد الرحمن وصدق المرسلون)ومثله (انطلقوا الى ما كنتم
به تكذبون)وقوله(ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين قل انما العلم عند الله
وانما أنا نذير مبين فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا وقيل هذا الذى كنتم به
تدعون) ونظائره متعددة في القرآن وكذلك قوله(أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة
مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه
ولما يأتهم تأويله) فان ماوعدوا به في القرآن لما يأتهم بعد وسوف يأتيهم فالتفسير هو
الاحاطة بعلمه والتأويل هو نفس ماوعدوا به اذا أتاهم فهم كذبوا بالقرآن الذى لم
يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله وقد يحيط الناس بعلمه ولما يأتهم تأويله فالرسول صلى الله
عليه وسلم يحيط بعلم ماأنزل الله عليه وان كان تأويله لم يأت بعد وفي الحديث عن النبي
صلى الله عليه وسلم لما نزل قوله (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم)
الآية قيل انها كائنة ولم يأت تأويلها بعد قال تعالى (وكذب به قومك وهو الحق
قل لست عليكم بوكيل لكل نبأ مستقر) قال بعضهم موضع قرار وحقيقة ومنتهى
ينتهى اليه فيبين حقه من باطله وصدقه من كذبه وقال مقاتل لكل خبر يخبر به الله
وقت ومكان يقع فيه من غير خلف ولا تأخير وقال ابن السائب لكل قول وفعل
حقيقة ما كان منه في الدنيا فستعرفونه وماكان في الآخرة فسوف يبدو لكم وسوف
تعلمون وقال الحسن لكل عمل جزاء فمن عمل عملا من الخير جوزى به في الجنة
ومن عمل عملا سوأ جوزى به في النار وسوف تعلمون ومعنى قول الحسن ان
الاعمال قد وقع عليها الوعد والوعيد فالوعد والوعيد عليها هو النبأ الذى له المستقر

Digitized by Google

فبين المعنى ولم يرد أن نفس الجزاء هو نفس النبأ وعن السدى قال لكل نبا مستقر أى ميعاد وعدتكموه فسيأتيكم حتى تعرفونه وعن عطاء لكل نبأ مستقر تؤخر عقوبته ليعمل ذنبه فاذا عمل ذنبه عاقبه أى لايعاقب بالوعيد حتى يفعل الذنب الذى توعد عليه ومنه قول كثير من السلف في آيات هذه ذهب تأويلها وهذه لم يأت تأويلها مثل ماروى أبو الاشهب عن الحسن والربيع عن أبى العالية أن هذه الآية قرئت على ابن مسعود (ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم الآية) فقال ابن مسعود ليس هذا بزمانها قولوها ماقبلت منكم فاذا ردت عليكم فعليكم أنفسكم ثم قال ان القرآن نزل حيث نزل فمنه آى قد مضى تأويلهن قبل أن ينزلن ومنه آى وقع تأويلهن على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ومنه آى وقع تأويلهن بعد النبى صلى الله عليه وسلم بيسير ومنه آى يقع تأويلهن بعد اليوم ومنه آى يقع تأويلهن في آخر الزمان ومنه آى يقع تأويلهن يوم القيامة ماذكر من الحساب والجنة والنار فما دامت قلوبكم وأهوائكم واحدة ولم تلبسوا شيعا ولم يذق بعضكم بأس بعض فأمروا وأنهوا فاذا اختلفت القلوب والاهواء وألبستم شيعا وذاق بعضكم بأس بعض فامرأ ونفسه فعند ذلك جاء تأويل هذه الآية فابن مسعود رضى الله عنه قد ذكر في هذا الكلام تأويل الامر وتأويل الخبر فهذه الآية عليكم أنفسكم من باب الامر وما ذكر من الحساب والقيامة من باب الخبر وقد تبين أن تأويل الخبر هو وجود المخبر به وتأويل الامر هو فعل المأمور به فالآية التى مضى تأويلها قبل نزولها من باب الخبر يقع الشئ فيذكره الله كما ذكر ماذكره من قول المشركين للرسول وتكذيبهم له وهى وان مضى تأويلها فهى عبرة ومعناها ثابت فى نظيرها ومن هذا قول ابن مسعود خمس قد مضين ومنه قوله تعالى (اقتربت الساعة وانشق القمر) واذا تبين ذلك فالمتشابه من الامر لابد من معرفة تأويله لانه لابد من فعل المأمور وترك المحظور وذلك لايمكن الا بعد العلم لكن ليس في القرآن مايقتضى ان في الامر متشابها فان قوله وأخر متشابهات قد يراد به من الخبر فالمتشابه من الخبر مثل ماأخبر به في الجنة من اللحم واللبن والماء والحرير والذهب كان بين هذا وبين مافي الدنيا تشابها في اللفظ والمعنى ومع هذا فحقيقة ذلك مخالفة لحقيقة هذا وتلك الحقيقة لانعلمها نحن في الدنيا وقد قال الله تعالى (فلا تعلم نفس ماأخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) وفي الحديث الصحيح يقول الله تعالى أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علي قلب بشر فهذا الذى

Digitized by Google

وعد الله به عباده المؤمنين لاتعلمه نفس هو من التأويل الذى لايعلمه الا الله وكذلك وقت الساعة لايعلمه الا الله واشراطها وكذلك كيفيات مايكون فيها من الحساب والصراط والميزان والحوض والثواب والعقاب لايعلم كيفيته الا الله فانه لم يخلق بعد حتى تعلمه الملائكة ولا له نظير مطابق من كل وجه حتى يعلم به فهو من التأويل المتشابه الذى لايعلمه الا الله وكذلك ماأخبر به الرب عن نفسه مثل استوائه على عرشه وسمعه وبصره وكلامه وغير ذلك فان كيفيات ذلك لايعلمها الا الله كما قال ربيعة بن أبى عبد الرحمن ومالك بن أنس وسائر أهل العلم تلقوا هذا الكلام عنهما بالقبول لما قيل الرحمن على العرش استوى كيف استوى فقال الاستواء معلوم والكيف مجهول والايمان به واجب والسؤال عنه بدعة هذا لفظ مالك فاخبر أن الاستواء معلوم وهذا تفسير اللفظ وأخبر ان الكيف مجهول وهذا هو الكيفية التى استأثر الله بعلمها وكذلك سائر السلف كالماجشون وأحمد بن حنبل وغيرهما يبينون ان العباد لايعلمون كيفية ماأخبر الله به عن نفسه فالكيفية هي التأويل الذى لايعلمه الا الله وأما نفس المعنى الذى بينه الله فيعلمه الناس كل على قدر فهمه فانهم يفهمون معنى السمع ومعنى البصر وان مفهوم هذا ليس مفهوم هذا ويعرفون الفرق بينهما وبين العلم والقدير وان كانوا لايعرفون كيفية سمعه وبصره بل الروح التى يعرفونها من حيث الجملة ولا يعرفون كيفيتها كذلك يعلمون معنى الاستواء على العرش وأنه يتضمن علو الرب على عرشه وارتفاعه عليه كما فسره بذلك السلف قبلهم وهذا معنى معروف من اللفظ لايحتمل في اللغة غيره كما قد بسط في موضعه ولهذا قال مالك الاستواء معلوم ومن قال الاستواء له معان متعددة فقد أجمل كلامه فانهم يقولون استوى فقط ولا يصلونه بحرف وهذا له معنى ويقولون استوى على كذا وله معنى واستوى الى كذا وله معنى واستوى مع كذا وله معنى فتتنوع معانيه بحسب صلاته وأما استوى على كذا فليس في القرآن ولغة العرب المعروفة الا بمعنى واحد قال تعالى (فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه) وقال (واستوت على الجودى) وقال (لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه) وقد أتى النبي صلى الله عليه وسلم بدابة ليركبها فلما وضع رجله في المغرز قال بسم الله فلما استوى على ظهرها قال الحمد لله وقال ابن عمر أهل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحج لما استوى على بعيره وهذا المعنى يتضمن شيئين علوه على ما استوى عليه واعتداله أيضا فلا يسمون المائل على الشئ مستويا عليه ومنه حديث الخليل بن

Digitized by Google

أحمد لما قال استووا وقوله

ثم استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق

هو من هذا الباب فان المراد به بشر بن مروان واستواؤه عليها أى على كرسى ملكها لم يرد بذلك مجرد الاستيلاء بل استواء منه عليها اذ لو كان كذلك لكان عبد الملك الذى هو الخليفة قد استوى أيضا على العراق وعلى سائر مملكة الاسلام ولكان عمر ابن الخطاب قد استوى على العراق وخراسان والشام ومصر وسائر مافتحه ولكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استوى على اليمن وغيرها مما فتحه ومعلوم انه لم يوجد في كلامهم استعمال الاستواء في شئ من هذا وانما قيل فيمن استوى بنفسه على بلد فانه منستو على سرير ملكه كما يقال جلس فلان على السرير وقعد على التخت ومنه قوله (ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا) وقوله (انى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شئ ولها عرش عظيم) وقول الزمخشرى وغيره استوى على كذا بمعنى ملك دعوى مجردة فليس لها شاهد في كلام العرب ولو قدر ذلك لكان هذا المعنى باطلا في استواء الله على العرش لانه أخبر انه خلق السموات والارض في ستة أيام ثم استوى على العرش وقد أخبر أن العرش كان موجودا قبل خلق السموات والارض كما دل على ذلك الكتاب والسنة وحينئذ فهو من حين خلق العرش مالك له مستول عليه فكيف يكون الاستواء عليه مؤخرا عن خلق السموات والارض وأيضا فهو مالك لكل شئ مستول عليه لايخص العرش بالاستواء وليس هذا كتخصيصه بالربوبية في قوله رب العرش فانه قد يخص لعظمته ولكن يجوز ذلك في سائر المخلوقات فيقال رب العرش ورب كل شئ وأما الاستواء المختص بالعرش فلا يقال استوى على العرش وعلى كل شئ ولا استعمل ذلك أحد من المسلمين في كل شئ ولا وجد في كتاب ولا سنة كما استعمل لفظ الربوبية في العرش خاصة وفي كل شئ عامة وكذلك لفظ الخلق ونحوه من الالفاظ التى تخص وتعم كقوله تعالى (اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق) فالاستواء من الالفاظ المختصة بالعرش لاتضاف الى غيره لاخصوصا ولا عموما وهذا مبسوط في موضع آخر وانما الغرض بيان صواب كلام السلف في قولهم الاستواء معلوم بخلاف من جعل هذا اللفظ له بضعة عشر معنى كما ذكر ذلك ابن عربى المعافرى يبين هذا أن سبب نزول هذه الآية كان قدوم نصارى نجران ومناظرتهم للنبى صلى الله عليه وسلم في أمر المسيح كما ذكر

Digitized by Google

ذلك أهل التفسير وأهل السيرة وهو من المشهور بل المتواتر فانه من المتواتر ان نصارى نجران قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم ودعاهم الى المباهلة المذكورة في سورة آل عمران فاقروا بالجزية ولم يباهلوه وصدر آل عمران نزل بسبب ماجرى ولهذا عامتها في أمر المسيح وذكروا أنهم احتجوا بما في القرآن من لفظ انا ونحن ونحو ذلك على أن الآلهة ثلاثة فاتبعوا المتشابه وتركوا المحكم الذى في القرآن من أن الاله واحد ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله فانهم قصدوا بذلك الفتنة وهى فتنة القلوب بالكفر وابتغاء تأويل لفظ انا ونحن وما يعلم تأويل هذه الاسماء الا الله لان هذه الاسماء انما تقال للواحدالذى له أعوان اما أن يكونوا شركاء لهواما أن يكونوا مماليك له ولهذا صارت متشابهة فان الذى معه شركاء يقول فعلنا نحن كذا وانا نفعل نحن كذا وهذا ممتنع في حق الله تعالى والذى له مماليك ومطيعون يطيعونه كالملك يقول فعلنا كذا أى أنا فعلت باهل ملكى وملكى وكل ماسوى الله مخلوق له مملوك له وهو سبحانه يدبر أمر العالم بنفسه وملائكته التى هى رسله في خلقه وأمره وهو سبحانه أحق من قال انا ونحن بهذا الاعتبار فان ماسواه ليس له ملك تام ولا أمر مطاع طاعة تامة فهو المستحق أن يقول انا ونحن والملوك هم شبه بهذا فصار فيه أيضا من المتشابه معنى آخر ولكن الذى ثبت لله من هذا الاختصاص لايماثله فيه شئ وتأويل ذلك معرفة ملائكته وصفاتهم واقدارهم وكيف يدبربهم أمر السماء والارض وقد قال تعالى (وما يعلم جنود ربك الا هو) فهذا التأويل لهذا المتشابه لايعلمه الا هو وان علمنا تفسيره ومعناه لكن لم نعلم تأويله الواقع في الخارج بخلاف قوله (الله الذى خلق) فانها آية محكمة ليس فيها تشابه فان هذا الاسم مختص بالله ليس مثل أنا ونحن التى تقال لمن له شركاء ولمن له أعوان يحتاج اليهم والله تعالى منزه عن هذا وهذا كما قال (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لايملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الارض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير) وقال (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا) فالمعنى الذى يراد به هذا في حق المخلوقين لايجوز أن يكون نظيره ثابتا لله فلهذا صارمتشابها وكذلك قوله (ثم استوى على العرش) فانه قد قال (واستوت على الجودى) (واستوى على سوقه) وقال (فاذا استويت أنت ومن معك على الفلك) وقال (لتستووا على ظهوره) فهذا الاستواء كله يتضمن حاجة المستوي الى المستوى عليه وانه لو عدم من تحته

Digitized by Google

الخر والله تعالى غنى عن العرش وعن كل شئ بل هو سبحانه بقدرته يحمل العرش وحملة العرش وقدروى أنهم انما أطاقوا حمل العرش لما أمرهم أن يقولوا لاحول ولا قوة الا بالله فصار لفظ الاستواء متشابها يلزمه في حق المخلوقين معانى ينزه الله عنها فنحن نعلم معناه وانه العلو والاعتدال لكن لانعلم الكيفية التى اختص بها الرب التى يكون بها مستويا من غير افتقار منه الى العرش بل مع حاجة العرش وكل شئ محتاج من كل وجه وانا لم نعهد في الموجودات مايستوى على غيره مع غناه عنه وحاجة ذلك المستوى عليه الى المستوى فصار متشابها من هذا الوجه فان بين اللفظين والمعنيين قدرا مشتركا وبينهما قدرا فارقا هو مراد في كل منهما ونحن لا نعرف الفارق الذى امتاز الرب به فصرنا نعرفه من وجه ونجهله من وجه وذلك هو تأويله والاول هو تفسيره وكذلك ماأخبر الله به في الجنة من المطاعم والمشارب والملابس كاللبن والعسل والخمر والماء فانا لانعرف لبنا الا مخلوقا من ماشية يخرج من بين فرث ودم واذا بقى أياما يتغير طعمه ولا نعرف عسلا الامن نحل تصنعه في بيوت الشمع المسدسة فليس هو عسلا مصفى ولا نعرف حريرا الامن دود القز وهو يبلى وقد علمنا أن ماوعد الله به عباده ليس مماثلا لهذه لافي المادة ولا في الصورة والحقيقة بل له حقيقة تخالف حقيقة هذه وذلك هو من التأويل الذى لانعلمه نحن قال ابن عباس ليس في الدنيا مما في الجنة الا الاسماء لكن يقال فالملائكة قد تعلم هذا فيقال هى لاتعلم مالم يخلق بعد ولا تعلم كل مافي الجنة وأيضا فمن النعم مالا تعرفه الملائكة والتأويل يتناول هذا كله واذا قدرنا أنها لاتعرف مالا نعرفه فذاك لايكون من المتشابه عندها ويكون من المتشابه عندنا فان المتشابه قد يراد به ماهو صفة لازمة للآية وقد يراد به ماهو من الامور النسبية فقد يكون متشابها عند هذا ممالا يكون متشابها عند هذا وكلام الامام أحمد وغيره من السلف يحتمل أن يراد به هذا فان أحمد ذكر في رده على الجهمية انها احتجت بثلاث آيات من المتشابه قوله (وهو الله في السموات وفي الارض) وقوله (ليس كمثله شئ) وقوله (لاتدركه الابصار) وقد فسر أحمد قوله (وهو الله في السموات وفي الارض) فاذا كانت هذه الآيات مما علمنا معناها لم تكن متشابهة عندنا وهى متشابهة عند من احتج بها وكان عليه أن يردها هو الى مايعرفه من المحكم وكذلك قال أحمد في ترجمة كتابه ألذى صنفه في الحبس وهو الرد على الزنادقة والجهمية فيما شكت فيه من متشابه القرآن وتأولته على غير تأويله ثم فسر أحمد تلك

Digitized by Google

الآيات آية آية فيبين أنها ليست متشابهة عنده بل قد عرف معناها وعلى هذا فالراسخون في العلم يعلمون تأويل هذا المتشابه الذى هو تفسيره وأما التأويل الذى هو حقيقته الموجودة في الخارج فتلك لايعلمها الا الله ولكن قد يقال هذا المتشابه الاضافي ليس هو المتشابه المذكور في القرآن فان ذلك قد أخبر الله انه لايعلم تأويله الا الله وانما هذا كما يشكل على كثير من الناس آيات لايفهمون معناها وغيرهم من الناس يعرف معناها وعند هذا فقد يجاب بجوابين أحدهما أن يكون في الآية قراءتان قراءة من يقف على قوله الا الله وقراءة من يقف عند قوله والراسخون في العلم وكانا القراءتين حق ويراد بالاولى المتشابه في نفسه الذى استأثر الله بعلم تأويله ويراد بالثانية المتشابه الاضافي الذى يعرف الراسخون تفسيره وهو تأويله ومثل هذا يقع في القرآن كقوله (وان كان مكرهم لتزول منه الجبال) ولتزول فيه قراءتان مشهورتان بالنفي والاثبات وكل قراءة لها معنى صحيح وكذلك القراءة المشهورة (واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) وقرأ طائفة من السلف (لتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) وكلا القراءتين حق فان الذى يتعدى حدود الله هو الظالم والتارك الانكار عليه وقد يجعل غير ظالم لكونه لم يشاركه وقد يجعل ظالما باعتبار ماترك من الانكار الواجب وعلى هذا قوله (فلما نسوا ماذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون) فانجى الله الناهين وأما أولئك الكارهون للذنب الذين قالوا لم تعظون قوما فالاكثرون على أنهم نجوا لانهم كانوا كارهين فانكروا بحسب قدرتهم والجواب الثانى القطع بان المتشابه المذكور في القرآن هو تشابهها في نفسها وذاك الذى لايعلم تأويله الا الله وأما الاضافى الموجود في كلام من أراد به المتشابه الاضافي فمرادهم انهم تكلموا فيما اشتبه معناه وأشكل معناه على بعض الناس وأن الجهمية استدلوا بما اشتبه عليهم وأشكل وان لم يكن هو من المتشابه الذى لايعلم تأويله الا الله وكثيرا مايشتبه على الرجل مالا يشتبه على غيره ويحتمل كلام الامام أحمد انه لم يرد الا المتشابه في نفسه الذى يلزمه التشابه لم يرد بشئ منه التشابه الاضافي وقال تأولته على غير تأويله أى غير تأويله الذى هو تأويله في نفس الامر وان كان ذلك التأويل لايعلمه الا الله وأهل العلم يعلمون ان المراد به ذلك التأويل فلا يبقى مشكلا عندهم محتملا لغيره ولهذا كان المتشابه في الخبريات اما عن الله واما عن الآخرة وتأويل هذا كله لايعلمه الا الله بل المحكم من القرآن قد يقال له تأويل كما للمتشابه

Digitized by Google

تأويل كما قال (هل ينظرون الا تأويله) ومع هذا فذلك التأويل لايعلم وقته وكيفيته الا الله وقد يقال بل التأويل للمتشابه لانه في الوعد والوعيد وكله متشابه وأيضا فلا يلزم في كل آية ظنها بعض الناس متشابها أن تكون من المتشابه فقول أحمد احتجوا بثلاث آيات من المتشابه وقوله ماشكت فيه من متشابه القرآن قد يقال ان هؤلاء أو أن أحمد جعل بعض ذلك من المتشابه وليس منه فان قول الله تعالى (منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) لم يرد به هنا الاحكام العام والتشابه العام الذى يشترك فيه جميع آيات القرآن وهو المذكور في قوله (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت) وفي قوله (الله نزّل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم) فوصفه هنا كله بانه متشابه أى متفق غير مختلف يصدق بعضه بعضا وهو عكس المتضاد المختلف المذكور في قوله (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) وقوله (انكم لفى قول مختلف يؤفك عنه من افك) فان هذا التشابه يعم القرآن كما أن احكام آياته تعمه كله وهنا قد قال (منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) فجعل بعضه محكما وبعضه متشابها فصار التشابه له معنيان وله معنى ثالث وهو الاضافي يقال قد اشتبه علينا هذا كقول بنى اسرائيل (ان البقر تشابه علينا) وان كان فى نفسه متميزا منفصلا بعضه عن بعض وهذا من باب اشتباه الحق بالباطل كقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الحلال بين والحرام بين وبين ذلك أمور متشابهات لايعلمهن كثير من الناس فدل ذلك على أن من الناس من يعرفها فليست مشتبهة على جميع الناس بل على بعضهم بخلاف مالا يعلم تأويله الا الله فان الناس كلهم مشتركون في عدم العلم بتأويله ومن هذا مايروى عن المسيح عليه السلام انه قال الامور ثلاثة أمر تبين رشده فاتبعوه وأمر تبين غيه فاجتنبوه وأمر اشتبه عليكم فكلوه الى عالمه فهذا المشتبه على بعض الناس يمكن الآخرين أن يعرفوا الحق فيه ويبينوا الفرق بين المشتبهين وهذا هو الذى أراده من جعل الراسخين يعلمون التأويل فانه جعل المشتبهات في القرآن من هذا الباب الذى يشتبه على بعض الناس دون بعض ويكون بينهما من الفروق المانعة للتشابه مايعرفه بعض الناس وهذا المعنى صحيح في نفسه لاينكر ولا ريب أن الراسخين في العلم يعلمون مااشتبه على غيرهم وقد يكون هذا قراءة في الآية كما تقدم من أن يكون فيها قراءتان لكن لفظ التأويل على هذا يراد به التفسير ووجه ذلك انهم يعلمون تأويله من حيث الجملة كما يعلمون تأويل المحكم

Digitized by Google

فيعرفون الحساب والميزان والثواب والعقاب وغير ذلك مما أخبر الله به ورسوله معرفة مجملة فيكونون عالمين بالتأويل وهو مايقع في الخارج على هذا الوجه ولا يعلمونه مفصلا اذ هم لايعرفون كيفيته وحقيقته اذ ذلك ليس مثل الذى علموه في الدنيا وشاهدوه وعلى هذا يصح أن يقال علموا تأويله وهو معرفة تفسيره ويصح أن يقال لم يعلموا تأويله وكلا القراءتين حق وعلى قراءة النفي هل يقال أيضا ان المحكم له تأويل لايعلمون تفصيله فان قوله وما يعلم تأويل ماتشابه منه الا الله لايدل على أن غيره يعلم تأويل المحكم بل قد يقال ان من المحكم أيضا مالا يعلم تأويله الا الله وانما خص المتشابه بالذكر لان أولئك طلبوا علم تأويله أو يقال بل المحكم يعلمون تأويله لكن لايعلمون وقت تأويله ومكانه وصفته وقد قال كثير من السلف ان المحكم مايعمل به والمتشابه مايؤمن به ولا يعمل به كما يجيء في كثير من الآثار ونعمل بمحكمه ونؤمن بمتشابهه وكما جاء عن ابن مسعود وغيره في قوله (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته) قال يحللون حلاله ويحرمون حرامه ويعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه وكلام السلف في ذلك يدل على أن المتشابه أمر اضافي فقد يشتبه على هذا مالا يشتبه على هذا فعلى كل احد أن يعمل بما استبان له ويكل مااشتبه عليه الى الله كقول أبيّ ابن كعب رضى الله عنه في الحديث الذى رواه الثورى عن مغيرة وليس بالضبي عن أبي العالية قال قيل لابيّ بن كعب أوصنى فقال اتخذ كتاب الله اماما ارض به قاضيا وحا كما هو الذى استخلف فيكم رسوله شفيع مطاع وشاهد لايتهم فيه خبر ماقبلكم وخبر مابينكم وذكر ماقبلكم وذكر مافيكم وقال سفيان عن رجل حدثناه عن ابن أبزى عن أبيّ قال فما استبان لك فاعمل به وما شبه عليك فآمن به وكله الى عالمه فمنهم من قال المتشابه هو المنسوخ ومنهم من جعله الخبريات مطلقا فعن قتادة والربيع والضحاك والسدى المحكم الناسخ الذى يعمل به والمتشابه المنسوخ يؤمن به ولا يعمل به وكذلك في تفسير العوفي عن ابن عباس فقال محكمات القرآن ناسخه وحلاله وحرامه وحدوده وفرائضه وما يؤمن به ويعمل به والمتشابهات منسوخة ومقدمه ومؤخره وأمثاله وأقسامه وما يؤمن به ولا يعمل به أما القول الاول فهو والله أعلم مأخوذ من قوله (فينسخ الله مايلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته) فقابل بين المنسوخ وبين المحكم وهو سبحانه انما أراد نسخ ماألقاه الشيطان لم يرد نسخ ماأنزله لكن هم جعلوا جنس المنسوخ متشابها لانه يشبه غيره في التلاوة والنظم وانه كلام الله وقرآن ومعجز

Digitized by Google

وغير ذلك من المعاني مع ان معناه قد نسخ ومن جعل المتشابه كل مالا يعمل به من المنسوخ والاقسام والامثال فلان" ذلك متشابه ولم يؤمر الناس بتفصيله بل يكفيهم الايمان المجمل به بخلاف المعمول به فانه لابد فيه من العلم المفصل وهذا بيان لما يلزم كل الأمة فانهم يلزمهم معرفة مايعمل به مفصلا ليعملوا به وما أخبروا به فليس عليهم معرفته بل عليهم الايمان به وان كان العلم به حسنا أوفرضا على الكفاية فليس فرضا على الاعيان بخلاف مايعمل به ففرض على كل انسان معرفة مايلزمه من العمل مفصلا وليس عليه معرفة العلميات مفصلا وقد روى عن مجاهد وعكرمة المحكم مافيه من الحلال والحرام وما سوى ذلك متشابه يصدق بعضه بعضا فعلى هذا القول يكون المتشابه هو المذكور في قوله كتابا متشابها مثانى والحلال مخالف للحرام وهذا على قول مجاهد ان العلماء يعلمون تأويله لكن تفسير المتشابه بهذا معان كل القرآن متشابه وهنا خص البعض به يستدل به على ضعف هذا القول وكذلك قوله يتبعون ماتشابه منه لو أريد بالمتشابه تصديق بعضه بعضا لكان اتباع ذلك غير محذور وليس في كونه يصدق بعضه بعضا مايمنع ابتغاء تأويله وقد يحتج لهذا القول بقوله متشابهات فجعلها أنفسها متشابهات وهذا يقتضى ان بعضها يشبه بعضا ليست مشابهة لغيرها ويجاب عن هذا بان اللفظ اذا ذكر في موضعين معينين صار من المتشابه كقوله انا ونحن المذكور في سبب نزول الآية وقد ذكر محمد بن اسحق عن محمد بن جعفر بن الزبير لما ذكر قصة أهل نجران ونزول الآية قال المحكم مالا يحتمل من التأويل الا وجها واحدا والمتشابه مااحتمل في التأويل أوجها ومعنى هذا ان ذلك اللفظ المحكم لايكون تأويله في الخارج الا شئ واحد وأما المتشابه فيكون له تأويلات متعددة لكن لم يرد الله الا واحدا منها وسياق الآية يدل على المراد وحينئذ فالراسخون في العلم يعلمون المراد من هذا كما يعلمون المراد من المحكم لكن نفس التأويل الذى هو الحقيقة ووقت الحوادث ونحو ذلك لايعلمونه لامن هذا ولا من هذا وقد قيل ان نصارى نجران احتجوا بقوله كلمة الله وروح منه ولفظ كلمة الله يراد به الكلام ويراد به المخلوق بالكلام وروح منه يراد به ابتداء الغاية ويراد به التبعيض فعلى هذا اذا قيل تأويله لايعلمه الا الله المراد به الحقيقة أى لايعلمون كيف خلق عيسى بالكلمة ولا كيف أرسل اليها روحه فتمثل لها بشرا سويا ونفخ فيها من روحه وفي الصحيح صحيح البخارى عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا رأيتم الذين يتبعون ماتشابه

Digitized by Google

منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم والمقصود هنا أنه لايجوز أن يكون الله أنزل كلاما لامعنى له ولا يجوز أن يكون الرسول وجميع الامة لايعلمون معناه كما يقول ذلك من يقوله من المتأخرين وهذا القول يجب القطع بانه خطأ سواء كان مع هذا تأويل القرآن لايعلمه الراسخون أو كان للتأويل معنيان يعلمون أحدهما ولايعلمون الآخر واذا دار الأمر بين القول بان الرسول كان لايعلم معنى المتشابه من القرآن وبين أن يقال الراسخون في العلم يعلمون كان هذا الاثبات خيرا من ذلك النفى فان معنى الدلائل الكثيرة من الكتاب والسنة وأقوال السلف على ان جميع القرآن مما يمكن علمه وفهمه وتدبره وهذا مما يجب القطع به وليس معنا قاطع على ان الراسخين في العلم لايعلمون تفسير المتشابه فان السلف قد قال كثير منهم أنهم يعلمون تأويله منهم مجاهد مع جلالة قدره والربيع بن أنس ومحمد بن جعفر بن الزبير ونقلوا ذلك عن ابن عباس وانه قال أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله وقول أحمد فيما كتبه في الرد على الزنادقة والجهمية فيما شكت فيه من متشابه القرآن وتأولته على غير تأويله وقوله عن الجهمية انها تأولت ثلاث آيات من المتشابه ثم تكلم على معناها دليل على أن المتشابه عنده تعرف العلماء معناه وان المذموم تأويله على غير تأويله فاما تفسيره المطابق لمعناه فهذا محمود ليس بمذموم وهذا يقتضى أن الراسخين في العلم يعلمون التأويل الصحيح للمتشابه عنده وهو التفسير في لغة السلف ولهذا لم يقل أحمد ولا غيره من السلف أن في القرآن آيات لايعرف الرسول ولا غيره معناها بل يتلون لفظا لايعرفون معناه وهذا القول اختيار كثير من أهل السنة منهم ابن قتيبة وأبو سليمان الدمشقي وغيرهما وابن قتيبة من المنتسبين الى أحمد واسحق والمنتصرين لمذاهب السنة المشهورة وله في ذلك مصنفات متعددة قال فيه صاحب كتاب التحديث بمناقب أهل الحديث وهو أحد اعلام الائمة والعلماء والفضلاء أجودهم تصنيفا وأحسنهم ترصيفا له زهاء ثلاثمائة مصنف وكان يميل الى مذهب أحمد واسحق وكان معاصرا لابراهيم الحربى ومحمد بن نصر المروزى وكان أهل المغرب يعظمونه ويقولون من استجاز الوقيعة في ابن قتيبة يتهم بالزندقة ويقولون كل بيت ليس فيه شئ من تصنيفه لاخير فيه قلت ويقال هو لاهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة فانه خطيب السنة كما ان الجاحظ خطيب المعتزلة وقد نقل عن ابن عباس أيضا القول الآخر ونقل ذلك عن غيره من الصحابة وطائفة من التابعين ولم يذكر هؤلاء على قولهم نصا عن رسول الله

Digitized by Google

صلى الله عليه وسلم فصارت مسئلة نزاع فترد الى الله والرسول وأولئك احتجوا بانه قرن ابتغاء الفتنة بابتغاء تأويله وبان النبي صلى الله عليه وسلم ذم مبتغى المتشابه وقال اذا رأيتم الذين يتبعون ماتشابه منه فاحذروهم ولهذا ضرب عمر بن الخطاب رضى الله عنه صبيغ بن عسل لما سأله عن المتشابه ولانه قال والراسخون في العلم يقولون ولو كانت الواو واو عطف مفرد على مفرد لاواو استئناف التى تعطف جملة على جملة لقال ويقولون فاجاب الآخرون عن هذا بان الله قال (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا) ثم قال (والذين تبوّؤا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون) ثم قال (والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان) قالوا فهذا عطف مفرد على مفرد والفعل حال من المعطوف فقط وهو نظير قوله (والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا) قالوا ولأنه لو كان المراد مجرد الوصف بالايمان لم يخص الراسخين بل قال والمؤمنون يقولون آمنا به فان كل مؤمن يجب عليه أن يؤمن به فلما خص الراسخين في العلم بالذكر علم أنهم امتازوا بعلم تأويله فعلموه لانهم عالمون وآمنوا به لانهم يؤمنون وكان ايمانهم به مع العلم أكمل في الوصف وقد قال عقب ذلك ومايذكر الا أولو الالباب وهذا يدل على أن هنا تذكرا يختص به أولو الالباب فان كان ماثم الايمان بالالفاظ فلا يذكر لما يدلهم على ماأريد بالمتشابه ونظير هذا قوله في الآية الاخرى (لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك) فلما وصفهم بالرسوخ في العلم وانهم يؤمنون قرن بهم المؤمنين فلو أريد هنا مجرد الايمان لقال والراسخون في العلم والمؤمنون يقولون آمنا به كما قال في تلك الآية لما كان مراده مجرد الاخبار بالايمان جمع بين الطائفتين قالوا وأما الذم فانما وقع على من يتبع المتشابه لابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وهو حال أهل القصد الفاسد الذين يريدون القدح في القرآن فلا يطلبون الا المتشابه لافساد القلوب وهى فتنتها به ويطلبون تأويله وليس طلبهم لتأويله لاجل العلم والاهتداء بل لاجل الفتنة وكذلك صبيغ بن عسل ضربه عمر لان قصده بالسؤال عن المتشابه كان لابتغاء الفتنة وهذا كمن يورد أسئلة اشكالات على كلام الغير ويقول ماذا أريد بكذا وغرضه التشكيك والطعن فيه ليس غرضه معرفة الحق وهؤلاء هم الذين عناهم النبي صلى الله عليه وسلم بقوله اذا رأيتم الذين يتبعون ماتشابه منه ولهذا يتبعون أى

يطلبون المتشابه ويقصدونه دون المحكم مثل المستتبع للشيء الذي يتحراه ويقصده وهذا فعل من قصده الفتنة وأما من سأل عن معنى المتشابه ليعرفه ويزيل ماعرض له من الشبهة وهو عالم بالمحكم متبع له مؤمن بالمتشابه لايقصد فتنة فهذا لم يذمه الله وهكذا كان الصحابة يقولون رضى الله عنهم مثل الأثر المعروف الذي رواه ابراهيم ابن يعقوب الجوزجاني حدثنا يزيد بن عبد ربه ثنا بقية ثنا عتبة بن أبي حكيم ثنى عمارة بن راشد الكناني عن زياد عن معاذ بن جبل قال يقرأ القرآن رجلان فرجل له فيه هوى ونية يفليه فلي الرأس يلتمس أن يجد فيه أمرا يخرج به على الناس أولئك شرار أمتهم أولئك يعمى الله عليهم سبل الهدى ورجل يقرأه ليس فيه هوى ولا نية يفليه فلي الرأس فما تبين له منه عمل به وما اشتبه عليه وكله الى الله ليتفقهن أولئك فقها مافقهه قوم قط حتى لو أن أحدهم مكث عشرين سنة فليبعثن الله له من يبين له الآية التي أشكلت عليه أو يفهمه اياها من قبل نفسه قال بقية استهدى ابن عيينة حديث عتبة هذا فهذا معاذ يذم من اتبع المتشابه لقصد الفتنة وأما من قصده الفقه فقد أخبر أن الله لابد أن يفقهه المتشابه فقها مافقهه قوم قط قالوا والدليل على ذلك ان الصحابة كانوا اذا عرض لاحدهم شبهة في آية أو حديث سأل عن ذلك كما سأله عمر فقال ألم تكن تحدثنا أنا نأتي البيت ونطوف به وسأله أيضا عمر مابالنا نقصر الصلاة وقد أمنا ولما نزل قوله (ولم يلبسوا ايمانهم بظلم) شق عليهم وقالوا أينا لم يظلم نفسه حتى بين لهم ولما نزل قوله (وان تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) شق عليهم حتى بين لهم الحكمة في ذلك ولما قال النبي صلى الله عليه وسلم من نوقش الحساب عذب قالت عائشة ألم يقل الله (فسوف يحاسب حسابا يسيرا) قال انما ذلك العرض قالوا والدليل على ماقلناه اجماع السلف فانهم فسروا جميع القرآن وقال مجاهد عرضت المصحف على ابن عباس من فاتحته الى خاتمته أقفه عند كل آية واسأله عندها وتلقوا ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم كما قال أبو عبد الرحمن السلمي حدثنا الذين كانوا يقرؤننا القرآن عن عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما انهم كانوا اذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا مافيها من العلم والعمل قالوا فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا وكلام أهل التفسير من الصحابة والتابعين شامل لجميع القرآن الا ماقد يشكل على بعضهم فيتقف فيه لالأن أحدا من الناس لايعلمه لكن لانه هو لم يعلمه وأيضا فان الله قد أمر بتدبر القرآن مطلقا ولم

يستثن منه شيأ لايتدبر ولا قال لاتدبروا المتشابه والتدبر بدون الفهم ممتنع ولو كان من القرآن مالا يتدبر لم يعرف فان الله لم يميز المتشابه بحد ظاهر حتى يجتنب تدبره وهذا أيضا مما يحتجون به ويقولون المتشابه أمر نسبي اضافي فقد يشتبه على هذا مالا يشتبه على غيره قالوا لان الله أخبر ان القرآن بيان وهدى وشفاء ونور ولم يستثن منه شيأ عن هذا الوصف وهذا ممتنع بدون فهم المعنى قالوا ولان من العظيم أن يقال ان الله أنزل على نبيه كلاما لم يكن يفهم معناه لاهو ولا جبريل بل وعلى قول هؤلاء كان النبي صلى الله عليه وسلم يحدث بأحاديث الصفات والقدر والمعاد ونحو ذلك مما هو نظير متشابه القرآن عندهم ولم يكن يعرف معنى مايقوله وهذا لايظن بأقل الناس وأيضا فالكلام انما المقصود به الافهام فاذا لم يقصد به ذلك كان عبثا وباطلا والله تعالى قد نزّه نفسه عن فعل الباطل والعبث فكيف يقول الباطل والعبث ويتكلم بكلام نزله على خلقه لايريد به افهامهم وهذا من أقوى حجج الملحدين وأيضا فما في القرآن آية الا وقد تكلم الصحابة والتابعون لهم في معناها وبينوا ذلك واذا قيل فقد يختلفون في بعض ذلك قيل كما قد يختلفون في آيات الأمر والنهي مما اتفق المسلمون على أن الراسخين في العلم يعلمون معناها وهذا أيضا مما يدل على أن الراسخين في العلم يعلمون تفسير المتشابه فان المتشابه قد يكون في آيات الامر والنهي كما يكون في آيات الخبر وتلك مما اتفق العلماء على معرفة الراسخين لمعناها فكذلك الأخرى فانه على قول النفاة لم يعلم معنى المتشابه الا الله لاملك ولا رسول ولا عالم وهذا خلاف اجماع المسلمين في متشابه الامر والنهي وأيضا فلفظ التأويل يكون للمحكم كما يكون للمتشابه كما دل القرآن والسنة وأقوال الصحابة على ذلك وهم يعلمون معنى المحكم فكذلك معنى المتشابه وأى فضيلة في المتشابه حتى ينفرد الله بعلم معناه والمحكم أفضل منه وقد بين معناه لعباده فأى فضيلة في المتشابه حتى يستأثر الله بعلم معناه وما استأثر الله بعلمه كوقت الساعة لم ينزل خطابا ولم يذكر في القرآن آية تدل على وقت الساعة ونحن نعلم ان الله استأثر بأشياء لم يطلع عباده عليها وانما النزاع في كلام أنزله وأخبر انه هدى وبيان وشفاء وأمر بتدبره ثم يقال ان منه مالا يعرف معناه الا الله ولم يبين الله ولا رسوله ذلك القدر الذى لايعرف أحد معناه ولهذا صار كل من أعرض عن آيات لايؤمن بمعناها يجعلها من المتشابه بمجرد دعواه ثم سبب نزول الآية قصة أهل نجران وقد احتجوا بقوله انا ونحن وبقوله كلمة منه وروح منه وهذا قد اتفق المسلمون

Digitized by Google

على معرفة معناه فكيف يقال ان المتشابه لايعرف معناه لاالملائكة ولا الانبياء ولا أحد من السلف وهو من كلام الله الذى أنزله الينا وأمرنا أن نتدبره ونعقله وأخبر انه بيان وهدى وشفاء ونور وليس المراد من الكلام الا معانيه ولولا المعنى لم يجز التكلم بلفظ لامعنى له وقد قال الحسن ما أنزل الله آية الا وهو يحب أن يعلم فيما ذا أنزلت وما ذا عنى بها ومن قال ان سبب نزول الآية سؤال اليهود عن حروف المعجم في ألم بحساب الجمل فهذا نقل باطل أما أولا فلانه من رواية الكلبي وأما ثانيا فهذا قد قيل انهم قالوه في أول مقدم النبي صلى الله عليه وسلم الى المدينة وسورة آل عمران انما نزل صدرها متأخرا لما قدم وفد نجران بالنقل المستفيض المتواتر وفيها فرض الحج وانما فرض سنة تسع أو عشر لم يفرض في أول الهجرة باتفاق المسلمين وأما ثالثا فلأن حروف المعجم ودلالة الحرف على بقاء هذه الامة ليس هو من تأويل القرآن الذى استأثر الله بعلمه بل اما أن يقال انه ليس مما أراده الله بكلامه فلا يقال انه انفرد بعلمه بل دعوى دلالة الحروف على ذلك باطل واما أن يقال بل يدل عليه وقد علم بعض الناس مايدل عليه وحينئذ فقد علم الناس ذلك أما دعوى دلالة القرآن على ذلك وان أحدا لايعلمه فهذا هو الباطل وأيضا فاذا كانت الامور العلمية التى أخبر الله بها في القرآن لايعرفها الرسول كان هذا من أعظم قدح الملاحدة فيه وكان حجة لما يقولونه من انه كان لايعرف الامور العلمية أو انه كان يعرفها ولم يبينها بل هذا القول يقتضى انه لم يكن يعلمها فان مالا يعلمه الا الله لايعلمه النبي ولا غيره وبالجملة فالدلائل الكثيرة توجب القطع ببطلان قول من يقول ان في القرآن آيات لايعلم معناها الرسول ولا غيره نعم قد يكون في القرآن آيات لايعلم معناها كثير من العلماء فضلا عن غيرهم وليس ذلك في آية معينة بل قد يشكل على هذا مايعرفه هذا وذلك تارة يكون لغرابة اللفظ وتارة لاشتباه المعنى بغيره وتارة لشبهة في نفس الانسان تمنعه من معرفة الحق وتارة لعدم التدبر التام وتارة لغير ذلك من الاسباب فيجب القطع بأن قوله (وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به) أن الصواب قول من يجعله معطوفا ويجعل الواو لعطف مفرد على مفرد أو يكون كلا القولين حقا وهى قراءتان والتأويل المنفي غير التأويل المثبت وان كان الصواب هو قول من يجعلها واو استئناف فيكون التأويل المنفي علمه عن غير الله هو الكيفيات التى لايعلمها غيره وهذا فيه نظر وابن عباس جاء عنه انه قال أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله وجاء عنه ان الراسخين

Digitized by Google

لا يعلمون تأويله وجاء عنه انه قال التفسير على أربعة أوجه تفسير تعرفه العرب من كلامها وتفسير لا يعذر أحد بجهالته وتفسير يعلمه العلماء وتفسير لا يعلمه الا الله ومن ادعى علمه فهو كاذب وهذا القول يجمع القولين ويبين أن العلماء يعلمون من تفسيره مالا يعلمه غيرهم وان فيه مالا يعلمه الا الله فاما من جعل الصواب قول من جعل الوقف عند قوله الا الله وجعل التأويل بمعنى التفسير فهذا خطأ قطعا وأما التأويل بالمعنى الثالث وهو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح الى الاحتمال المرجوح فهذا الاصطلاح لم يكن بعد عرف في عهد الصحابة بل ولا التابعين بل ولا الأئمة الاربعة ولا كان التكلم بهذا الاصطلاح معروفا في القرون الثلاثة بل ولا علمت أحدا فيهم خص لفظ التأويل بهذا ولكن لما صار تخصيص لفظ التأويل بهذا شائعا في عرف كثير من المتأخرين فظنوا ان التأويل في الآية هذا معناه صاروا يعتقدون أن لمتشابه القرآن معانى تخالف مايفهم منه وفرقوا دينهم بعد ذلك وصاروا شيعا والمتشابه المذكور الذى كان سبب نزول الآية لايدل ظاهره على معنى فاسد وانما الخطأ في فهم السامع نعم قد يقال ان مجرد هذا الخطاب لايبين كمال المطلوب ولكن فرق بين عدم دلالته على المطلوب وبين دلالته على نقيض المطلوب فهذا الثانى هو المنفى بل وليس في القرآن مايدل على الباطل البتة كما قد بسط في موضعه ولكن كثير من الناس يزعم ان لظاهر الآية معنى اما معنى يعتقده واما معنى باطلا فيحتاج الى تأويله ويكون ماقاله باطلا لاتدل الآية على معتقده ولا على المعنى الباطل وهذا كثير جدا وهؤلاء هم الذين يجعلون القرآن كثيرا مايحتاج الى التأويل المحدث وهو صرف اللفظ عن مدلوله الى خلاف مدلوله * ومما يحتج به من قال الراسخون في العلم يعلمون التأويل ماثبت في صحيح البخارى وغيره عن ابن عباس ان النبي صلى الله عليه وسلم دعا له وقال اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل فقد دعا له بعلم التأويل مطلقا وابن عباس فسر القرآن كله قال مجاهد عرضت المصحف على ابن عباس من أوله الى آخره أقفه عند كل آية واسأله عنها وكان يقول انا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله وأيضا فالنقول متواترة عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه تكلم في جميع معانى القرآن من الامر والخبر فله من الكلام في الاسماء والصفات والوعد والوعيد والقصص ومن الكلام في الامر والنهى والاحكام مايبين انه كان يتكلم في جميع معانى القرآن وأيضا قد قال ابن مسعود مامن آية في كتاب الله الا وأنا أعلم فيما ذا أنزلت . وأيضا فانهم متفقون

Digitized by Google

على أن آيات الاحكام يعلم تأويلها وهى نحو خمسمائة آية وسائر القرآن خبر عن الله وأسمائه وصفاته أو عن اليوم الآخر والجنة والنار أو عن القصص وعاقبة أهل الايمان وعاقبة أهل الكفر فان كان هذا هو المتشابه الذى لايعلم معناه الا الله فجمهور القرآن لايعرف أحد معناه لاالرسول ولا أحد من الأمة ومعلوم ان هذا مكابرة ظاهرة وأيضا فمعلوم أن العلم بتأويل الرؤيا أصعب من العلم بتأويل الكلام الذى يخبر به فان دلالة الرؤيا على تأويلها دلالة خفية غامضة لايهتدى لها جمهور الناس بخلاف دلالة لفظ الكلام على معناه فاذا كان الله قد علم عباده تأويل الاحاديث التى يرونها في المنام فلأن يعلمهم تأويل الكلام العربى المبين الذى ينزله على أنبيائه بطريق الأولى والأحرى قال يعقوب ليوسف (وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث) وقال يوسف (رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث) وقال (لايأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما) وأيضا فقد ذم الله الكفار بقوله (أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله) وقال (ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون حتى اذا جاؤا قال أكذبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علما أم ماذا كنتم تعملون) وهذا ذم لمن كذب بما لم يحط بعلمه فما قاله الناس من الاقوال المختلفة في تفسير القرآن وتأويله ليس لأحد أن يصدق بقول دون قول بلا علم ولا يكذب بشئ منها الا أن يحيط بعلمه وهذا لايمكن الا اذا عرف الحق الذى أريد بالآية فيعلم أن ماسواه باطل فيكذب بالباطل الذى أحاط بعلمه وأما اذا لم يعرف معناها ولم يحط بشئ منها علما فلا يجوز له التكذيب بشئ منها مع ان الاقوال المتناقضة بعضها باطل قطعا ويكون حينئذ المكذب بالقرآن كالمكذب بالاقوال المتناقضة والمكذب بالحق كالمكذب بالباطل وفساد اللازم يدل على فساد الملزوم وأيضا فانه ان بنى على مايعتقده من انه لايعلم معانى الآيات الخبرية الا الله لزمه أن يكذب كل من احتج بآية من القرآن خبرية على شئ من أمور الايمان بالله واليوم الآخر ومن تكلم في تفسير ذلك وكذلك يلزم مثل ذلك في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وان قال المتشابه هو بعض الخبريات لزمه أن يبين فصلا يتبين به مايجوز أن يعلم معناه من آيات القرآن ومالا يجوز أن يعلم معناه بحيث لايجوز أن يعلم معناه لاملك مقرب ولا نبى مرسل ولا أحد من الصحابة ولا غيرهم ومعلوم انه لايمكن أحدا ذكر حد

Digitized by Google

فاصل بين مايجوز أن يعلم معناه بعض الناس وبين مالا يجوز أن يعلم معناه أحد ولو ذكر ماذكر انتقض عليه فعلم أن المتشابه ليس هو الذى لايمكن أحدا معرفة معناه وهذا دليل مستقل في المسئلة وأيضا فقوله لم يحيطوا بعلمه وكذبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علما ذم لهم على عدم الاحاطة مع التكذيب ولو كان الناس كلهم مشتركين في عدم الاحاطة بعلم المتشابه لم يكن في ذمهم بهذا الوصف فائدة ولكان الذم على مجرد التكذيب فان هذا بمنزلة أن يقال أكذبتم بما لم تحيطوا به علما ولا يحيط به علما الا الله ومن كذب بما لايعلمه الا الله كان أقرب الى العذر من أن يكذب بما يعلمه الناس فلو لم يحط به علما الراسخون كان ترك هذا الوصف أقرب في ذمهم من ذكره ويتبين هذا بوجه آخر هو دليل في المسئلة وهو أن الله ذم الزائغين بالجهل وسوء القصد فانهم يقصدون المتشابه يبتغون تأويله ولا يعلم تأويله الا الراسخون في العلم وليسوا منهم وهم يقصدون الفتنة لايقصدون العلم والحق وهذا كقوله تعالى (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) فان المعنى بقوله أسمعهم أفهمهم القرآن يقول لو علم الله فيهم حسن قصد وقبول للحق لافهمهم القرآن لكن لو أفهمهم لتولوا عن الايمان وقبول الحق لسوء قصدهم فهم جاهلون ظالمون كذلك الذين في قلوبهم زيغ هم مذمومون بسوء القصد مع طلب علم ماليسوا من أهله وليس اذا عيب هؤلاء على العلم ومنعوه يعاب من حسن قصده وجعله الله من الراسخين في العلم فان قيل فأكثر السلف على أن الراسخين في العلم لايعلمون التأويل وكذلك أكثر أهل اللغة يروى هذا عن ابن مسعود وأبى بن كعب وابن عباس وعروة وقتادة وعمر بن عبد العزيز والفراء وأبى عبيد وثعلب وابن الانبارى قال ابن الانبارى في قراءة عبد الله ان تأويله الا عند الله والراسخون في العلم وفي قراءة أبى وابن عباس ويقول الراسخون في العلم قال وقد أنزل الله في كتابه أشياء استأثر بعلمها كقوله تعالى (قل انما علمها عند الله) وقوله (وقرونا بين ذلك كثيرا) فأنزل المحكم ليؤمن به المؤمن فيسعد ويكفر به الكافر فيشقى قال ابن الانبارى والذى يروى القول الآخر عن مجاهد هو ابن أبى نجيح ولا تصح روايته التفسير عن مجاهد فيقال قول القائل ان أكثر السلف على هذا قول بلا علم فانه لم يثبت عن أحد من الصحابة انه قال ان الراسخين في العلم لايعلمون تأويل المتشابه بل الثابت عن الصحابة أن المتشابه يعلمه الراسخون وما ذكر من قراءة ابن مسعود وأبى بن كعب ليس لها اسناد يعرف حتى يحتج بها

Digitized by Google

والمعروف عن ابن مسعود انه كان يقول مافي كتاب الله آية الا وأنا أعلم فيما ذا أنزلت وقال أبو عبدالرحمن السلمي حدثنا الذين كانوا يقرؤننا القرآن عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا اذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يعلموا مافيها من العلم والعمل وهذا أمر مشهور رواه الناس عامة أهل الحديث والتفسير وله أسناد معروف بخلاف ماذكر من قراءتهما وكذلك ابن عباس قد عرف عنه أنه كان يقول انا من الراسخين الذين يعلمون تأويله وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه دعا له بعلم تأويل الكتاب فكيف لايعلم التأويل مع أن قراءة عبد الله ان تأويله الا عند الله لاتناقض هذا القول فان نفس التأويل لايأتى به الا الله كما قال تعالى (هل ينظرون الا تأويله) وقال (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله) وقد اشتهر عن عامة السلف أن الوعد والوعيد من المتشابه وتأويل ذلك هو مجيء الموعود به وذلك عند الله لايأتى به الا هو وليس في القرآن ان علم تأويله الا عند الله كما قال في الساعة (يسئلونك عن الساعة أيان مرساها قل انما علمها عند ربى لايجليها لوقتها الا هو ثقلت في السموات والارض لاتأتيكم الا بغتة يسئلونك كأنك حفى عنها قل انما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لايعلمون قل لاأملك لنفسى نفعا ولا ضرا الا ماشاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء) وكذلك لما قال فرعون لموسى فما بال القرون الأولى (قال علمها عند ربى في كتاب لايضل ربى ولا ينسى) فلو كانت قراءة ابن مسعود نفى العلم عن الراسخين لكانت ان علم تأويله الا عند الله لم يقرأ ان تأويله الا عند الله فان هذا حق بلا نزاع وأما القراءة الاخرى المروية عن أبيّ وابن عباس فقد نقل عن ابن عباس ماينافضه وأخص أصحابه بالتفسير مجاهد وعلى تفسير مجاهد يعتمد أكثر الأئمة كالثورى والشافعي وأحمد بن حنبل والبخارى قال الثورى اذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به والشافعى في كتبه أكثر الذى ينقله عن ابن عيينة عن ابن أبى نجيح عن مجاهد وكذلك البخاري في صحيحه يعتمد على هذا التفسير وقول القائل لاتصح رواية ابن أبى نجيح عن مجاهد جوابه أن تفسير ابن أبى نجيح عن مجاهد من أصح التفاسير بل ليس بأيدى أهل التفسير كتاب في التفسير أصح من تفسير ابن أبى نجيح عن مجاهد الا أن يكون نظيره في الصحة ثم معه مايصدقه وهو قوله عرضت المصحف على ابن عباس أقفه عند كل آية واسأله عنها وأيضا فأبى بن كعب رضى الله عنه قد عرف انه

Digitized by Google

كان يفسر ما تشابه من القرآن كما فسر قوله (فأرسلنا اليها روحنا). وفسر قوله (الله نور السموات والارض) وقوله (واذ أخذ ربك) ونقل ذلك معروف عنه بالاسناد أثبت من نقل هذه القراءة التي لا يعرف لها اسناد وقد كان يسئل عن المتشابه من معنى القرآن فيجيب عنه كما سأله عمر وسئل عن ليلة القدر وأما قوله ان الله أنزل المجمل ليؤمن به المؤمن فيقال هذا حق لكن هل في الكتاب والسنة أو قول أحد من السلف ان الانبياء والملائكة والصحابة لا يفهمون ذلك الكلام المجمل أم العلماء متفقون على ان المجمل في القرآن يفهم معناه ويعرف ما فيه من الاجمال كما مثل به من وقت الساعة فقد علم المسلمون كلهم معنى الكلام الذى أخبر الله به عن الساعة وانها آتية لا محالة وان الله انفرد بعلم وقتها فلم يطلع على ذلك أحدا ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لما سأله السائل عن الساعة وهو في الظاهر أعرابي لا يعرف قال له متى الساعة قال ما المسؤل عنها بأعلم من السائل ولم يقل ان الكلام الذى نزل في ذكرها لا يفهمه أحد بل هذا خلاف اجماع المسلمين بل والعقلاء فان اخبار الله عن الساعة واشراطها كلام بين واضح يفهم معناه وكذلك قوله (وقرونا بين ذلك كثيرا) قد علم المراد بهذا الخطاب وان الله خلق قرونا كثيرة لا يعلم عددهم الا الله كما قال (وما يعلم جنود ربك الا هو) فأى شئ من هذا مما يدل على أن ما أخبر الله به من أمر الايمان بالله واليوم الآخر لا يفهم معناه أحد لا من الملائكة والانبياء ولا الصحابة ولا غيرهم وأما ما ذكر عن عروة فعروة قد عرف من طريقه انه كان لا يفسر عامة آى القرآن الا آيات قليلة رواها عن عائشة ومعلوم انه اذا لم يعرف عروة التفسير لم يلزم انه لا يعرفه غيره من الخلفاء الراشدين وعلماء الصحابة كابن مسعود وأبى بن كعب وابن عباس وغيرهم وأما اللغويون الذين يقولون ان الراسخين لا يعلمون معنى المتشابه فهم متناقضون في ذلك فان هؤلاء كلهم يتكلمون في تفسير كل شئ في القرآن ويتوسعون في القول في ذلك حتى ما منهم أحد الا وقد قال في ذلك أقوالا لم يسبق اليها وهى خطأ وابن الانبارى الذى بالغ في نصر ذلك القول هو من أكثر الناس كلاما في معانى الآى المتشابهات يذكر فيها من الاقوال ما لم ينقل عن أحد من السلف ويحتج لما يقوله في القرآن بالشاذ من اللغة وهو قصده بذلك الانكار على ابن قتيبة وليس هو أعلم بمعانى القرآن والحديث واتبع للسنة من ابن قتيبة ولا أفقه في ذلك وان كان ابن الانبارى من أحفظ الناس للغة لكن باب فقه النصوص غير باب حفظ ألفاظ اللغة وقد

Digitized by Google

تقم هو وغيره على ابن قتيبة كونه رد على أبي عبيد أشياء من تفسير غريب الحديث وابن قتيبة قد اعتذر عن ذلك وسلك في ذلك مسلك أمثاله من أهل العلم وهو وأمثاله يصيبون تارة ويخطؤن أخرى فان كان المتشابه لايعلم معناه الا الله فهم كلهم يجترؤن على الله يتكلمون في شئ لاسبيل الى معرفته وان كان مابينوه من معانى المتشابه قد أصابوا فيه ولو في كلمة واحدة ظهر خطأهم في قولهم ان المتشابه لايعلم معناه الا الله ولا يعلمه أحد من المخلوقين فليختر من ينصر قولهم هذا أو هذا ومعلوم أنهم أصابوا في شئ كثير مما ينصرون به المتشابه وأخطؤا في بعض ذلك فيكون تفسيرهم هذه الآية مما أخطأوا فيه العلم اليقيني فانهم أصابوا في كثير من تفسير المتشابه وكذلك مانقل عن قتادة من ان الراسخين في العلم لايعلمون تأويل المتشابه فكتابه في التفسير من أشهر الكتب ونقله ثابت عنه من رواية معمر عنه ورواية سعيد بن أبي عروبة عنه ولهذا كان المصنفون في التفسير عامتهم يذكرون قوله لصحة النقل ومع هذا يفسر القرآن كله محكمه ومتشابهه والذى اقتضى شهرة القول عن أهل السنة بان المتشابه لايعلم تأويله الا الله ظهور التأويلات الباطلة من أهل البدع والجهمية والقدرية من المعتزلة وغيرهم فصار أولئك يتكلمون في تأويل القرآن برأيهم الفاسد وهذا أصل معروف لاهل البدع أنهم يفسرون القرآن برأيهم العقلى وتأويلهم اللغوى فتفاسير المعتزلة مملوأة بتأويل النصوص المثبتة للصفات والقدر على غير ماأراد الله ورسوله فانكار السلف والائمة لهذه التأويلات الفاسدة كما قال الامام أحمد في ما كتبه في الرد على الزنادقة والجهمية فيما شكت فيه من متشابه القرآن وتأولته على غير تأويله فهذا الذى أنكره السلف والأئمة من التأويل فجاء بعدهم قوم انتسبوا الى السنة بغير خبرة تامة بها وبما يخالفها وظنوا ان المتشابه لايعلم معناه الاالله فظنوا أن معنى التأويل هو معناه في اصطلاح المتأخرين وهو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح الى المرجوح فصاروا في موضع يقولون وينصرون ان المتشابه لايعلم معناه الا الله ثم يتناقضون في ذلك من وجوه أحدها أنهم يقولون النصوص تجرى على ظواهرها ولا يزيدون على المعنى الظاهر منها ولهذا يبطلون كل تأويل يخالف الظاهر ويقررون المعنى الظاهر ويقولون مع هذا ان له تأويلا لايعلمه الا الله والتأويل عندهم ماينافض الظاهر فكيف يكون له تأويل يخالف الظاهر وقد قرر معناه الظاهر وهذا مما أنكره عليهم مناظروهم حتى أنكر ابن عقيل على شيخه القاضي أبي يعلى ومنها انا وجدنا هؤلاء كلهم لايحتج عليهم

بنص يخالف قولهم لافي مسئلة أصلية ولا فرعيــة الا تأولوا ذلك النص بتأويلات متكلفة مستخرجــة من جنس تحريف الكلم عن مواضعه من جنس تأويــلات الجهمية والقدريه التي تخالفهم فأين هذا من قولهم لايعلم معانى النصوص المتشابهة الا الله واعتبر هذا مما تجدهفي كتبهم من مناظرتهم للمعتزلة على قولهم بالآيات التى تناقض قول هؤلاء مثل أن يحتجوا بقوله (والله لايحب الفساد)(ولا يرضى لعباده الكفر) (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) (لاتدركه الابصار) (انما أمره اذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون) (واذقال ربك للملائكة) ونحو ذلك كيف تجدهم يتأولون هذه النصوص بتأويــلات غالبها فاســد وان كان في بعضها حق فان كان ماتأولوه حقا دل على ان الراسخين في العلم يعلمون تأويل المتشابه فظهر تناقضهم وان كان باطلافذلك أبعدلهم وهذا أحمد بن حنبل امام أهل السنة الصابر في المحنة الذى قد صار للمسلمين معيارا يفرقون به بين أهل الســنة والبدعة لما صنف كتابه في الرد على الزنادقة والجهمية فيما شكت فيه من متشابه القرآن وتأولته على غير تأويله تكلم في معانى المتشابه الذى اتبعه الزائغون ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله آية آية وبين معناها وفسرها ليبــين فساد تأويل الزائغين واحتج على ان الله يرى وان القرآن غير مخلوق وان الله فوق العرش بالحجج العقلية والسمعية وردمااحتج به النفاة من الحجج العقليةوالسمعية وبين معانى الآيات التى سماها هو متشابهة وفسرها آية آية وكذلك لما ناظروه واحتجوا عليــه بالنصوص جعل يفسرها آية آية وحديثا حديثا ويبين فساد ماتأولها عليــه الزائغون ويبين هو معناها ولم يقل أحد ان هذه الآيات والاحاديث لايفهم معناها الا الله ولا قال أحــد له ذلك بل الطوائف كلها مجتمعة على امكان معرفة معناها لكن يتنازعون في المراد كما يتنازعون في آيات الأمر والنهى وكذلك تفسـير المتشابه من الآيات والاحاديث التى يحتج بها الزائغون من الخوارج وغيرهم كقوله لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حــين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الشارب الخمر حــين يشرب وهو مؤمن وأمثال ذلك ويبطل قول المرجئة والجهمية وقول الخوارج والمعتزلة وكل هذه الطوائف تحتج بنصوص المتشابه على قولها ولم يقل أحد لامن أهل السنة ولا من هؤلاء لمـا يستدل به هو أو يستدل به عليه منازعه هــذه آيات وأحاديث لايعلم معناها أحد من البشر فامسكوا عن الاستدلال بها وكان الامام أحمد ينكر طريقة أهل البدع الذين يفسرون القرآن برأيهم وتأويلهم من غير استدلال

Digitized by Google

بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقوال الصحابة والتابعين الذين بلغهم الصحابة معانى القرآن كما بلغوهم ألفاظه ونقلوا هذا كما نقلوا هذا لكن أهل البدع يتأولون النصوص بتأويلات تخالف مراد الله ورسوله ويدعون أن هذا هو التأويل الذى يعلمه الراسخون وهم مبطلون في ذلك لاسيما تأويلات القرامطة والباطنية الملاحدة وكذلك أهل الكلام المحدث من الجهمية والقدرية وغيرهم ولكن هؤلاء يعترفون بأنهم لايعلمون التأويل وانما غايتهم أن يقولوا ظاهر هذه الآية غير مراد ولكن يحتمل أن يراد كذا وأن يراد كذا ولو تأولها الواحد منهم بتأويل معين فهو لايعلم أنه مراد الله ورسوله بل يجوز أن يكون مراد الله ورسوله عندهم غير ذلك كالتأويلات التى يذكرونها في نصوص الكتاب كما يذكرونه في قوله (وجاء ربك والملك صفا صفا) وينزل ربنا (والرحمن على العرش استوى)(وكلم الله موسى تكليما) وغضب الله عليهم (وانما أمره اذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون) وأمثال ذلك من النصوص فان غاية ماعندهم يحتمل أن يراد به كذا ويجوز كذا ونحو ذلك وليس هذا علما بالتأويل وكذلك كل من ذكر في نص أقوالا واحتمالات ولم يعرف المراد فانه لم يعرف تفسير ذلك وتأويله وانما يعرف ذلك من عرف المراد ومن زعم من الملاحدة أن الادلة السمعية لاتفيد العلم فمضمون مدلولاته لايعلم أحد تفسير المحكم ولا تفسير المتشابه ولا تأويل ذلك وهذا اقرار منه على نفسه بانه ليس من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويل المتشابه فضلا عن تأويل المحكم فاذا انضم الى ذلك أن يكون كلامهم في العقليات فيه من السفسطة والتلبيس مالا يكون معه دليل على الحق لم يكن عند هؤلاء لامعرفة بالسمعيات ولا بالعقليات وقد أخبر الله عن أهل النار أنهم قالوا(لو كنا نسمع أو نعقل ماكنا في أصحاب السعير) ومدح للذين اذا ذكروا بآياته لم يخروا عليها صما وعميانا والذين يفقهون ويعقلون وذم الذين لايفقهون ولا يعقلون في غير موضع من كتابه وأهل البدع المخالفون للكتاب والسنة يدعون العلم والعرفان والتحقيق وهم من أجهل الناس بالسمعيات والعقليات وهم يجعلون ألفاظا لهم مجملة متشابهة تتضمن حقا وباطلا يجعلونها هى الاصول المحكمة ويجعلون ماعارضها من نصوص الكتاب والسنة من المتشابه الذى لايعلم معناه عندهم الا الله ومايتأولونه بالاحتمالات لايفيد فيجعلون البراهين شبهات والشبهات براهين كما قد بسط ذلك في موضع آخر وقد نقل القاضى أبو يعلى عن الامام أحمد انه قال المحكم مااستقل بنفسه ولم يحتج الى بيان والمتشابه

Digitized by Google

ما احتاج الى بيان وكذلك قال الامام أحمد في رواية وعن الشافعي قال المحكم مالا
يحتمل من التأويل الاوجها واحدا والمتشابه ما احتمل من التأويل وجوها وكذلك
قال الامام أحمد وكذلك قال ابن الانبارى المحكم مالم يحتمل من التأويل الا وجها
واحدا والمتشابه الذى تعتوره التأويلات فيقال حينئذ لجميع الأمة سلفها وخلفها
يتكلمون في معانى القرآن التى تحتمل التأويلات وهؤلاء الذين ينصرون ان الراسخين
في العلم لايعلمون معنى المتشابه هم من أكثر الناس كلاما فيه والأئمة كالشافعي
وأحمد ومن قبلهم كلهم يتكلمون فيما يحتمل معانى ويرجحون بعضها على بعض بالادلة
في جميع مسائل العلم الاصولية والفروعية لايعرف عن عالم من علماء المسلمين انه قال
عن نص احتج به محتج في مسئلة ان هذا لايعرف أحد معناه فلا يحتج به ولو قال أحد
ذلك لقيل له مثل ذلك واذا ادعى في مسائل النزاع المشهورة بين الائمة ان نصه
محكم يعلم معناه وان النص الآخر متشابه لايعلم أحد معناه قوبل بمثل هذه الدعوى
وهذا بخلاف قول القائل ان من النصوص مامعناه جلي واضح ظاهر لايحتمل الا
وجها واحدا لايقع فيه اشتباه ومنها مافيه خفاء واشتباه يعرف معناه الراسخون في
العلم فان هذا مستقيم صحيح وحينئذ فالخلف في المتشابه يدل على انه كله يعرف معناه
فمن قال انه يعرف معناه يبين حجة على ذلك وأيضا فما ذكره السلف والخلف في
المتشابه يدل على انه كله يعرف معناه فمن قال ان المتشابه هو المنسوخ فمعنى المنسوخ
معروف وهذا القول مأثور عن ابن مسعود وابن عباس وقتادة والسدّى وغيرهم
وابن مسعود وابن عباس وقتادة هم الذين نقل عنهم ان الراسخين في العلم لايعلمون
تأويله ومعلوم قطعا باتفاق المسلمين ان الراسخين يعلمون معنى المنسوخ فكان هذا
النقل عنهم يناقض ذلك النقل ويدل على انه كذب ان كان هذا صدقا والا تعارض
النقلان عنهم والمتواتر عنهم ان الراسخين يعلمون معنى المتشابه والقول الثانى مأثور
عن جابر بن عبد الله انه قال المحكم ماعلم العلماء تأويله والمتشابه مالم يكن للعلماء الى
معرفته سبيل كقيام الساعة ومعلوم ان وقت قيام الساعة مما اتّفق المسلمون على انه
لايعلمه الا الله فاذا أريد بلفظ التأويل هذا كان المراد به لايعلم وقت تأويله الا الله
وهذا حق ولا يدل ذلك على انه لايعرف معنى الخطاب بذلك وكذلك ان أريد
بالتأويل حقائق مايوجد وقيل لايعلم كيفية ذلك الا الله فهذا قد قدمناه وذكر انه على
قول هؤلاء من وقف عند قوله ﴿ وما يعلم تأويله الا الله ﴾ هو الذى يجب أن يراد

Digitized by Google

بالتأويل واما أن يراد بالتأويل التفسير ومعرفة المعنى ويقف على قوله الا الله فهذا خطأ قطعا مخالف للكتاب والسنة واجماع المسلمين ومن قال ذلك من المتأخرين فانه متناقض يقول ذلك ويقول ماينافضه وهذا القول يناقض الايمان بالله ورسوله من وجوه كثيرة ويوجب القدح في الرسالة ولاريب أن الذى قالوه لم يتدبروا لوازمه وحقيقة ماأطلقوه وكان أكبر قصدهم دفع تأويلات أهل البدع المتشابهة وهذا الذى قصدوه حق وكل مسلم يوافقهم عليه لكن لاندفع باطلا بباطل آخر ولا نرد بدعة ببدعة ولا يرد تفسير أهل الباطل للقرآن بان يقال الرسول والصحابة كانوا لايعرفون تفسير ماتشابه من القرآن ففى هذا من الظن في الرسول وسلف الأمة ماقد يكون أعظم من خطأ طائفة في تفسير بعض الآيات والعاقل لايبنى قصرا ويهدم مصرا والقول الثالث أن المتشابه الحروف المقطعة في أوائل السور يروى هذا عن ابن عباس وعلى هذا القول فالحروف المقطعة ليست كلاما تاما من الجمل الاسمية والفعلية وانما هى أسماء موقوفة ولهذا لم تعرب فان الاعراب انما يكون بعد العقد والتركيب وانما نطق بها موقوفة كما يقال ا ب ت ولهذا تكتب بصورة الحرف لابصورة الاسم الذى ينطق به فانها في النطق أسماء ولهذا لما سأل الخليل أصحابه عن النطق بالزاى من زيد قالوا زا قال نطقتم بالاسم وانما النطق بالحرف زه فهى في اللفظ أسماء وفى الخط حروف مقطعة الم لاتكتب الف لام ميم كما يكتب قول النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ القرآن فأعربه فله بكل حرف عشر حسنات اما أنى لاأقول الم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف والحرف في لغة الرسول وأصحابه يتناول الذى يسميه النحاة اسما وفعلا وحرفا ولهذا قال سيبويه في تقسيم الكلام اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل فانه لما كان معروفا من اللغة أن الاسم حرف والفعل حرف خص هذا القسم الثالث الذى يطلق النحاة عليه الحرف انه جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل وهذه حروف المعانى التى يتألف منها الكلام وأما حروف الهجاء فتلك انما تكتب في صورة الحرف المجرد وينطق بها غير معربة ولا يقال فيها معرب ولا مبنى لان ذلك انما يقال في المؤلف فاذا كان على هذا القول كل ماسوى هذه محكم حصل المقصود فانه ليس المقصود الا معرفة كلام الله وكلام رسوله ثم يقال هذه الحروف قد تكلم في معناها أكثر الناس فان كان معناها معروفا فقد عرف معنى المتشابه وان لم يكن معروفا وهو المتشابه كان ماسواها معلوم المعنى وهذا المطلوب وأيضا فان الله

Digitized by Google

تعالى قال (منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) وهذه الحروف ليست آيات عند جمهور العلماء وانما يعدها آيات الكوفيون وسبب نزول هذه الآية الصحيح يدل على أن غيرها أيضا متشابه ولكن هذا القول يوافق مانقل عن اليهود من طلب علم المدد من حروف الهجاء والرابع أن المتشابه مااشتبهت معانيه قاله مجاهد وهذا يوافق قول أكثر العلماء وكلهم يتكلم في تفسير هذا المتشابه ويبين معناه والخامس أن المتشابه ماتكررت ألفاظه قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال المحكم ماذكر الله في كتابه من قصص الانبياء ففصله وبينه والمتشابه هو مااختلفت ألفاظه في قصصهم عند التكرير كما قال في موضع من قصة نوح احمل فيها وقال في موضع آخر اسلك فيها وقال في عصا موسى فاذا هى حية تسعى وفي موضع فاذا هى ثعبان مبين وصاحب هذا القول جعل المتشابه اختلاف اللفظ مع اتفاق المعنى كما يشتبه على حافظ القرآن هذا اللفظ بذاك اللفظ وقد صنف بعضهم في هذا المتشابه لان القصة الواحدة يتشابه معناها في الموضعين فاشتبه على القارئ أحد اللفظين بالآخر وهذا التشابه لاينفي معرفة المعانى بلا ريب ولا يقال في مثل هذا أن الراسخين يختصون بعلم تأويله فهذا القول ان كان صحيحا كان حجة لنا وان كان ضعيفا لم يضرنا السادس أنه مااحتاج الى بيان كما نقل عن أحمد والسابع انه مااحتمل وجوها كما نقل عن الشافعي وأحمد وقد نقل عن أبى الدرداء رضى الله عنه انه قال انك لاتفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوها وقد صنف الناس كتب الوجوه والنظائر فالنظائر اللفظ الذى اتفق معناه في الموضعين وأكثر والوجوه الذى اختلف معناه كما يقال الاسماء المتواطئة والمشتركة وان كان بينهما فرق لبسطه موضع آخر وقد قيل هى نظائر في اللفظ ومعانيها مختلفة فتكون كالمشتركة وليس كذلك بل الصواب أن المراد بالوجوه والنظائر هو الأول وقد تكلم المسلمون سلفهم وخلفهم في معانى الوجوه وفيما يحتاج الى بيان وما يحتمل وجوها فعلم يقينا أن المسلمين متفقون على أن جميع القرآن مما يمكن العلماء معرفة معانيه واعلم أن من قال ان من القرآن كلاما لايفهم أحد معناه ولا يعرف معناه الا الله فانه مخالف لاجماع الأمة مع مخالفته للكتاب والسنة والثامن أن المتشابه هو القصص والامثال وهذا أيضا يعرف معناه والتاسع أنه مايؤمن به ولا يعمل به وهذا أيضا مما يعرف معناه والعاشر قول بعض المتأخرين أن المتشابه آيات الصفات وأحاديث الصفات وهذا أيضا مما يعلم معناه فان أكثر آيات الصفات اتفق المسلمون على أنه يعرف معناها

Digitized by Google

والبعض الذى تنازع الناس في معناه انما ذم السلف منه تأويلات الجهمية ونفوا علم الناس بكيفيته كقول مالك الاستواء معلوم والكيف مجهول وكذلك قال سائر أئمة السنة وحينئذ ففرق بين المعنى المعلوم وبين الكيف المجهول فان سمي الكيف تأويلا ساغ أن يقال هذا التأويل لايعلمه الا الله كما قدمناه أولا وأما اذا جعل معرفة المعنى وتفسيره تأويلا كما يجعل معرفة سائر آيات القرآن تأويلا وقيل ان النبي صلى الله عليه وسلم وجبريل والصحابة والتابعين ماكانوا يعرفون معنى قوله (الرحمن على العرش استوى) ولا يعرفون معنى قوله (مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى) ولامعنى قوله (غضب الله عليهم) بل هذا عندهم بمنزلة الكلام العجمى الذى لايفهمه العربى وكذلك اذا قيل كان عندهم قوله تعالى (وما قدروا الله حق قدره والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) وقوله (لاتدركه الابصار وهو يدرك الابصار) وقوله (وكان سميعا بصيرا) وقوله (رضى الله عنهم ورضوا عنه) وقوله (ذلك بأنهم اتبعوا ماأسخط الله وكرهوا رضوانه) وقوله (وأحسنوا ان الله يحب المحسنين) وقوله (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) وقوله (انا جعلناه قرآنا عربيا) وقوله (فأجره حتى يسمع كلام الله) وقوله (فلما أتاها نودى أن بورك من في النار ومن حولها) وقوله (هل ينظرون الا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة) وقوله (وجاء ربك والملك صفا صفا هل ينظرون الا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك ثم استوى الى السماء وهى دخان انما أمره اذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون) الى أمثال هذه الآيات فمن قال عن جبريل ومحمد صلوات الله عليهما وعن الصحابة والتابعين لهم باحسان وأئمة المسلمين والجماعة أنهم كانوا لايعرفون شيأ من معانى هذه الآيات بل استأثر الله بعلم معناها كما استأثر بعلم وقت الساعة وانما كانوا يقرؤن ألفاظا لايفهمون لها معنى كما يقرأ الانسان كلاما لايفهم منه شيأ فقد كذب على القوم والنقول المتواترة عنهم تدل على نقيض هذا وانهم كانوا يفهمون هذا كما يفهمون غيره من القرآن وان كان كنه الرب عزوجل لايحيط به العباد ولا يحصون ثناء عليه فذاك لايمنع أن يعلموا من أسمائه وصفاته ماعلمهم سبحانه وتعالى كما أنهم اذا علموا أنه بكل شئ عليم وأنه على كل شئ قدير لم يلزم أن يعرفوا كيفية علمه وقدرته واذا عرفوا أنه حق موجود لم يلزم أن يعرفوا كيفية ذاته وهذا مما يستدل به على أن الراسخين يعلمون التأويل فان الناس متفقون

على أنهم يعرفون تأويل المحكم ومعلوم أنهم لايعرفون كيفية ماأخبر الله به عن نفسه في الآيات المحكمات فدل ذلك على أن عدم العلم بالكيفية لاينفي العلم بالتأويل الذى هو تفسير الكلام وبيان معناه بل يعلمون تأويل المحكم والمتشابه ولا يعرفون كيفية الرب لافي هذا ولا في هذا فان قيل هذا يقدح فيما ذكرتم من الفرق بين التأويل الذى يراد به التفسير وبين التأويل الذى في كتاب الله تعالى قيل لايقدح في ذلك فان معرفة تفسير اللفظ ومعناه وتصور ذلك في القلب غير معرفة الحقيقة الموجودة في الخارج المرادة بذلك الكلام فان الشئ له وجود في الاعيان ووجود في الاذهان ووجود في اللسان ووجود في البيان فالكلام لفظ له معنى في القلب ويكتب ذلك اللفظ بالخط فاذا عرف الكلام وتصور معناه في القلب وعبر عنه باللسان فهذا غير الحقيقة الموجودة في الخارج وليس كل من عرف الأول عرف عين الثانى مثال ذلك أن أهل الكتاب يعلمون مافي كتبهم من صفة محمد صلى الله عليه وسلم وخبره ونعته وهذا معرفة الكلام ومعناه وتفسيره وتأويل ذلك هو نفس محمد المبعوث فالمعرفة بعينه معرفة تأويل ذلك الكلام وكذلك الانسان قد يعرف الحج والمشاعر كالبيت والمساجد ومنى وعرفة ومزدلفة ويفهم معنى ذلك ولا يعرف الأمكنة حتى يشاهدها فيعرف أن الكعبة المشاهدة المذكورة في قوله (ولله على الناس حج البيت) وكذلك أرض عرفات هى المذكورة في قوله (فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله) وكذلك المشعر الحرام هى المزدلفة التى بين مأزمى عرفة ووادى محسر يعرف أنها المذكورة في قوله (فاذكروا الله عند المشعر الحرام) وكذلك الرؤيا يراها الرجل ويذكر له العابر تأويلها فيفهمه ويتصوره مثل أن يقول هذا يدل على أنه كان كذا ويكون كذا وكذا ثم اذا كان ذلك فهو تأويل الرؤيا ليس تأويلها نفس علمه وتصوره وكلامه ولهذا قال يوسف الصديق (هذا تأويل رؤياى من قبل) وقال (لايأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما) فقد أنبأهما بالتأويل قبل أن يأتى التأويل وان كان التأويل لم يقع بعد وان كان لايعرف متى يقع فنحن نعلم تأويل ماذكر الله في القرآن من الوعد والوعيد وان كنا لا نعرف متى يقع هذا التأويل المذكور في قوله سبحانه وتعالى (هل ينظرون الا تأويله يوم يأتى تأويله) الآية وقال تعالى (لكل نبأ مستقر) فنحن نعلم مستقر نبأ الله وهو الحقيقة التى أخبر الله بها ولا نعلم متى يكون وقد لا نعلم كيفيتها وقدرها وسواء في هذا تاويل المحكم والمتشابه كما قال الله تعالى (قل هو القادر

Digitized by Google

على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض) قال النبي صلى الله عليه وسلم انها كائنة ولم يأت تأويلها بعد فقد عرف تأويلها وهو وقوع الاختلاف والفتن وان لم يعرف متى يقع وقد لايعرف صفته ولا حقيقته فاذا وقع عرف العارف أن هذا هو التأويل الذى دلت عليه الآية وغيره قد لايعرف ذلك أو ينساه بعد ماكان عرفه فلا يعرف أن هذا تأويل القرآن فانه لما نزل قوله تعالى (واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) قال الزبير لقد قرأنا هذه الآية زمانا وما أرانا من أهلها واذا نحن المعنيون بها (واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) وأيضا فان الله قد ذم في كتابه من يسمع القرآن ولا يفقه معناه وذم من لم يتدبره ومدح من يسمعه ويفقهه فقال تعالى (ومنهم من يستمع اليك حتى اذا خرجوا من عندك) الآية فاخبر أنهم كانوا يقولون لاهل العلم ماذا قال الرسول فى هذا الوقت المتقدم فدل على ان أهل العلم من الصحابة كانوا يعرفون من معانى كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم مالا يعرفه غيرهم وهؤلاء هم الراسخون في العلم الذين يعلمون معانى القرآن محكمه ومتشابهه وهذا كقوله تعالى (وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون) فدل على ان العالمين يعقلونها وان كان غيرهم لايعقلها والامثال هى مايمثل به من المتشابه وعقل معناها وهو معرفة تأويلها الذى يعرفه الراسخون في العلم دون غيرهم ويشبه هذا قوله تعالى (ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل اليك من ربك هو الحق ويهدى الى صراط العزيز الحميد) فلولا أنهم عرفوا معنى ماأنزل كيف عرفوا انه حق أو باطل وهل يحكم على كلام لم يتصور معناه انه حق أو باطل وقال تعالى (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) وقال (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) وقال تعالى (أفلم يدبروا القول أم جاءهم مالم يأت آباءهم الاولين) وقال تعالى (فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) وقال (والذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا) وقال (انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) وقال (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) وقال (كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون بشيرا ونذيرا) الى قوله (ومن بيننا وبينك حجاب) فاذا كان كثير من القرآن أو أكثره مما لايفهم أحد معناه لم يكن المتدبر المعقول الا بعضه وهذا خلاف مادل عليه القرآن لاسيما عامة ماكان المشركون ينكرونه

Digitized by Google

الآيات الخبرية والاخبار عن اليوم الآخر أو الجنة والنار وعن نفى الشركاء والاولاد عن الله وتسميته بالرحمن فكان عامة انكارهم لما يخبرهم به من صفات الله نفيا واثباتا وما يخبرهم به عن اليوم الآخر وقد ذم الله من لايعقل ذلك ولا يفقهه ولا يتدبره فعلم أن الله يأمر بعقل ذلك وتدبره وقد قال تعالى (ومنهم من يستمعون اليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لايعقلون ومنهم من ينظر اليك أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لايبصرون) وقال (ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً)الآية وقال تعالى (واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لايؤمنون بالآخرة حجابا مستورا وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً)الآية وقداستدل بعضهم بان الله لم ينف عن غيره علم شئ الا كان منفردا به كقوله (قل لايعلم من في السموات والارض الغيب الا الله) وقوله(لايجليها لوقتها الا هو)وقوله (وما يعلم جنود ربك الا هو) فيقال ليس الأمر كذلك بل هذا بحسب العلم المنفى فان كان مما استأثر الله به قيل فيه ذلك وان كان مما علمه بعض عباده ذكر ذلك كقوله (ولا يحيطون بشئ من علمه الا بما شاء) وقوله (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا)الى قوله (رصدا) وقوله (قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب) وقوله (شهد الله أنه لااله الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط) وقوله (لكن الله يشهد بما أنزل اليك أنزله بعلمه)الى قوله(شهيدا) وقوله (قل ربى أعلم بعدتهم مايعلمهم الا قليل)وقال للملائكة(انى أعلم مالا تعلمون) وقالت الملائكة (لاعلم لنا الا ماعلمتنا) وفي كثير من كلام الصحابة الله ورسوله أعلم وفي الحديث المشهور أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك وأنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك وقد قال تعالى (فان تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول) وأول النزاع النزاع في معانى القرآن فان لم يكن الرسول عالما بمعانيه امتنع الرد اليه و قداتفق الصحابة والتابعون لهم باحسان وسائر أئمة الدين أن السنة تفسر القرآن وتبينه وتدل عليه وتعبر عن مجمله وانها تفسر مجمل القرآن من الأمر والخبر وقال تعالى (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين)الى قوله (فيما اختلفوا فيه)ومن أعظم الاختلاف الاختلاف في المسائل العلمية الخبرية المتعلقة بالايمان بالله واليوم الآخر فلا بد أن يكون الكتاب حاكما بين الناس فيما اختلفوا فيه من ذلك ويمتنع أن يكون حاكما ان لم يكن معرفة معناه ممكنا وقد نصب الله عليه دليلا والا فالحاكم الذى لايتبين مافي نفسه

Digitized by Google

لايحكم بشئ وكذلك اذا قيل هو الحاكم بالكتاب فان حكمه فصل يفصل به بين الحق والباطل وهذا انما يكون بالبيان وقد قال تعالى في القرآن (انه لقول فصل) أى فاصل يفصل بين الحق والباطل فكيف يكون فصلا اذا لم يكن الى معرفة معناه سبيل وأيضا فان الله قال (ومنهم أميون لايعلمون الكتاب الا أمانى وان هم الا يظنون) فذم هؤلاء الذين لايعلمون الكتاب الا أمانى كما ذم الذين يحرفون معناه ويكذبون فقال تعالى (أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه وهم يعلمون) الى قوله (أفلا تعقلون) فهذا أحد الصنفين ثم قال تعالى (ومنهم أميون لايعلمون الكتاب الا أمانى أى تلاوة وان هم الا يظنون) ثم ذم الذين يفترون كذبا يقولون هى من عند الله وما هى من عند الله فقال (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم) الى قوله (يكسبون) وهذه الاصناف الثلاثة تستوعب أهل الضلال والبدع فان أهل البدع الذين ذمهم الله ورسوله نوعان أحدهما عالم بالحق يتعمد خلافه والثانى جاهل متبع لغيره فالاولون يبتدعون مايخالف كتاب الله ويقولون هو من عند الله اما أحاديث مفتريات واما تفسير وتأويل للنصوص باطل ويعضدون ذلك بما يدعون من الرأى والعقل وقصدهم بذلك الرياسة والمال كل فهؤلاء يكتبون الكتاب بأيديهم ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم من الباطل وويل لهم مما يكسبون من المال على ذلك وهؤلاء اذا عورضوا بنصوص الكتب الالهية وقيل لهم هذه تخالفكم حرفوا الكلم عن مواضعه بالتأويلات الفاسدة قال الله تعالى (أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه وهم يعلمون) واما النوع الثانى الجهال فهؤلاء الاميون الذين لايعلمون الكتاب الا أمانى وان هم الا يظنون فعن ابن عباس وقتادة في قوله ومنهم أميون أى غير عارفين بمعانى الكتاب يعلمونها حفظا وقراءة بلا فهم ولا يدرون مافيه وقوله الا أمانى أى تلاوة فهم لايعلمون فقه الكتاب انما يقتصرون على مايسمعونه يتلى عليهم قاله الكسائى والزجاج وكذلك قال ابن السائب لايحسنون قراءة الكتاب ولا كتابته الا أمانى الا مايحدثهم به علماؤهم وقال أبو روق وأبو عبيدة أى تلاوة وقراءة عن ظهر القلب ولا يقرؤنها في الكتب ففى هذا القول جعل الأمانى التى هى التلاوة تلاوة الاميين أنفسهم وفي ذلك جعله مايسمعونه من تلاوة علمائهم وكلا القولين حق والآية تعمهما فانه سبحانه وتعالى قال لايعلمون الكتاب لم يقل لايقرؤن ولا يسمعون

ثم قال الا أماني وهـذا استثناء منقطع لكن يعلمون أماني اما بقراءتهم لها واما بسماعهم قراءة غيرهم وان جعل الاستثناء متصلا كان التقدير لايعلمون الكتاب الا علم أماني لاعلم تلاوةفقط بلا فهم والاماني جمع أمنيةوهي التلاوة ومنه قوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيتـه فينسخ الله مايلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم) قال الشاعر

تمنى كتاب الله أول ليلة وآخرها لاقى حمام المقادر

والأميون نسبة الى الأمة قال بعضهم الى الأمة وما عليه العامة فمعنى الأمي العامي الذى لاتمييز له وقد قال الزجاج هو على خلق الامة التي لم تتعلم فهو على جبلته وقال غيره هو نسـبة الى الامـة لان الكتابة كانت في الرجال دون النساء ولأنه على ماولدته أمه والصواب انه نسبة الى أمة كما يقال عامي نسبة الى العامة التي لم تتميز عن عامة بما تمتاز به الخاصة وكذلك هذا لم يتميز عن الامة بما يمتاز به الخاصة من الكتابة والقراءة ويقال الامي لمن لايقرأ ولا يكتب كتابا ثم يقال لمن ليس لهم كتاب منزل من الله يقرؤنه وان كان قد يكتب ويقرأ مالم ينزل وبهذا المعنى كان العرب كلهم أميين فانه لم يكن عندهم كتاب منزل من الله قال الله تعالى (وقل للذين أوتوا الكتاب والاميين أأسلمتم فان أسلموا فقد اهتدوا) وقال (هو الذى بعث في الاميين رسولا منهم) وقد كان في العرب كثير ممن يكتب ويقرأ المكتوب وكلهم أميون فلما نزل القرآن عليهم لم يبقوا أميين باعتبار أنهم لايقرؤن كتابا من حفظهم بل هم يقرؤن القرآن من حفظهم وأناجيلهم في صدورهـم لكن بقوا أميين باعتبار انهـم لايحتاجون الى كتابة دينهم بل قرآنهم محفوظ في قلوبهم كما في الصحيح عن عياض بن حمار المجاشعي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال خلقت عبادى حنفاء وقال فيه أني مبتليك ومبتل بك وأنزلت عليك كتابا لايغسله الماء تقرأه نائما ويقظانا فأمتنا ليست مثل أهل الكتاب الذين لايحفظون كتبهم في قلوبهم بل لو عدمت المصاحف كلها كان القرآن محفوظا في قلوب الامة وبهذا الاعتبار فالمسلمون أمـة أمية بعد نزول القرآن وحفظه كما في الصحيح عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما عن النبي صلى الله عليه وسـلم أنه قال انا أمة أميـة لانحسب ولا نكتب الشهر هكذا وهكذا فلم يقل لانقرأ كتابا ولا نحفظ بل قال لانكتب ولا نحسب فديننا لايحتاج أن يكتب ويحسب كما عليه أهل الكتاب من أنهم يعلمون مواقيت صومهم وفطرهـم بكتاب وحساب ودينهم معلق بالكتب

Digitized by Google

لو عدمت لم يعرفوا دينهم ولهذا يوجد أهل السنة يحفظون القرآن والحديث أكثر من أهل البدع وأهل البدع فيهم شبه بأهل الكتاب من بعض الوجوه وقوله (فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي) هو أمي بهذا الاعتبار لأنه لايكتب ولا يقرأ ما في الكتب لاباعتبار انه لايقرأ من حفظه بل كان يحفظ القرآن أحسن حفظ والأمي في اصطلاح الفقهاء خلاف القارئ ليس هو خلاف الكاتب بالمعنى الأول ويعنون به في الغالب من لايحسن الفاتحة فقوله تعالى (ومنهم أميون لايعلمون الكتاب الا أماني) أي لايعلمون الكتاب الا تلاوة لايفهمون معناها وهذا يتناول من لايحسن الكتابة ولا القراءة من قلبه وانما يسمع أماني علما كما قال ابن السائب ويتناول من يقرأه عن ظهر قلبه ولا يقرأه من الكتاب كما قال أبو روق وأبو عبيدة وقد يقال ان قوله لايعلمون الكتاب أي الخط أي لايحسنون الخط وانما يحسنون التلاوة ويتناول أيضا من يحسن الخط ولا يفهم مايقرأه ويكتبه كما قال ابن عباس وقتادة غير عارفين معاني الكتاب يعلمونها حفظا وقراءة بلا فهم ولا يدرون ما فيه والكتاب هذا المراد به الكتاب المنزل وهو التوراة ليس المراد به الخط فانه قال وان هم الا يظنون فهذا يدل على أنه نفى عنهم العلم بمعاني الكتاب والا فكون الرجل لايكتب بيده لايستلزم أن يكون لاعلم عنده بل يظن ظنا بل كثير ممن يكتب بيده لايفهم مايكتب وكثير ممن لايكتب يكون عالما يعلم مايكتبه غيره وأيضا فان الله ذكر هذا في سياق الذم لهم وليس في كون الرجل لايخط ذم اذا قام بالواجب وانما الذم على كونه لايعقل الكتاب الذي أنزل اليه سواء كتبه وقرأه أو لم يكتبه ولم يقرأه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم هذا أوان يرفع العلم فقال له زياد بن لبيد كيف يرفع العلم وقد قرأنا القرآن فوالله لنقرأنه ولنقرئنه نساءنا فقال له ان كنت لأحسبك من أفقه أهل المدينة أوليست التوراة والانجيل عند اليهود والنصارى فماذا تغني عنهم وهو حديث معروف رواه الترمذي وغيره ولأنه قال تعالى قبل هذا (وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه وهم يعلمون) فأولئك عقلوه ثم حرفوه وهم مذمومون سواء كانوا يحفظونه بقلوبهم ويكتبونه ويقرؤنه حفظا وكتابة أو لم يكونوا كذلك فكان من المناسب أن يذكر الذين لايعقلونه وهم الذين لايعلمونه الا أماني فان القرآن أنزله الله كتابا متشابها مثاني ويذكر فيه الاقسام والامثال فيستوعب الاقسام فيكون مثاني ويذكر الامثال فيكون متشابها وهؤلاء وان كانوا يكتبون ويقرؤن فهم أميون من

أهل الكتاب كما نقول نحن لمن كان كذلك هو أمي وساذج وعامي وان كان يحفظ القرآن ويقرأ المكتوب اذا كان لايعرف معناه واذا كان الله قد ذم هؤلاء الذين لايعرفون الكتاب الا تلاوة دون فهم معانيه كما ذم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه من بعد ماعقلوه وهم يعلمون دل على أن كلا النوعين مذموم الجاهل الذي لايفهم معاني النصوص والكاذب الذي يحرف الكلم عن مواضعه ويتكلم برأيه ويؤوله بما يضيفه الى الله فهؤلاء يكتبون الكتاب بأيديهم ويقولون هو من عند الله ويجعلون تلك المقالات التي ابتدعوها هي مقالة الحق وهي التي جاء بها الرسول والتي كان عليها السلف ونحو ذلك ثم يحرفون النصوص التي تعارضها فهؤلاء اذا تعمدوا ذلك وعلموا أن الذي يفعلونه مخالف للرسول فهم من جنس هؤلاء اليهود وهذا يوجد في كثير من الملاحدة ويوجد في بعض الاشياء في غيرهم وأما الذين قصدهم اتباع الرسول باطنا وظاهرا وغلطوا فيما كتبوه وتأولوه فهؤلاء ليسوا من جنسهم لكن وقع بسبب غلطهم ماهو من جنس ذلك الباطل كما قيل اذا زل العالم زل بزلته عالم وهذا حال المتأولين من هذه الأمة وأما رجل مقلد أمي لايعرف من الكتاب الا مايسمعه منهم أو مايتلوه هو ولا يعرف الا أماني وقد ذمه الله على ذلك فعلم أن ذم الله الذين لايعرفون معاني القرآن ولا يتدبرونه ولا يعقلونه كما صرح القرآن بذمهم في غير موضع فيمتنع مع هذا أن يقال ان أكثر القرآن أو كثيرا منه لايعلمه أحد من الخلق الا أماني لاجبريل ولا محمد ولا الصحابة ولا أحد من المسلمين فان هذا تشبيه لهم بهؤلاء فيما ذمهم الله به فان قيل فلا يجب على كل مسلم معرفة معنى كل آية قيل نعم لكن معرفة معاني الجميع فرض على الكفاية وعلى كل مسلم معرفة مالا بد منه وهؤلاء ذمهم الله لأنهم لايعلمون معاني الكتاب الا تلاوة وليس عندهم الا ظن وهذا يشبه قوله (وانهم لفي شك منه مريب) فان قيل فقد قال بعض المفسرين الا أماني الا مايقولونه بأفواههم كذبا وباطلا وروى هذا عن بعض السلف واختاره الفراء وقال الأماني الأكاذيب المفتعلة قال بعض العرب لابن دأب وهو يحدث أهذا شئ رويته أم تمنيته أي افتعلته فأراد بالاماني الاشياء التي كتبها علماؤهم من قبل أنفسهم ثم أضافوها الى الله من تغيير صفة محمد صلى الله عليه وسلم وقال بعضهم الأماني يتمنون على الله الباطل والكذب كقولهم (لن تمسنا النار الا أياما معددة) وقولهم (لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى) وقولهم (نحن أبناء الله وأحباؤه) وهذا أيضا

يروى عن بعض السلف قيل كلا القولين ضعيف والصواب الأول لانه سبحانه قال (ومنهم أميون لايعلمون الكتاب الا أماني) وهذا الاستثناء اما أن يكون متصلا أو منقطعا فان كان متصلا لم يجز استثناء الكذب ولا أماني القلب من الكتاب وان كان منقطعا فالاستثناء المنقطع انما يكون فيما كان نظير المذكور وشبيها له من بعض الوجوه فهو من جنسه الذي لم يذكر في اللفظ ليس من جنس المذكور ولهذا يصلح المنقطع حيث يصلح الاستثناء المفرغ وذلك كقوله (لايذوقون فيها الموت) ثم قال (الا الموتة الأولى) فهذا منقطع لانه يحسن أن يقال لايذوقون الا الموتة الأولى وكذلك قوله تعالى (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الا أن تكون تجارة عن تراض منكم) لأنه يحسن أن يقال لاتأكلوا أموالكم بينكم الا أن تكون تجارة وقوله (وما لهم به من علم الا اتباع الظن) يصلح أن يقال وما لهم الا اتباع الظن فهنا لما قال (لايعلمون الكتاب الا أماني) يحسن أن يقال لايعلموه الا أماني فانهم يعلمونه تلاوة ويقرؤنها ويسمعونها ولا يحسن أن يقال لايعلمون الا ماتتمناه قلوبهم أو لايعلمون الا الكذب فانهم قد كانوا يعلمون ماهو صدق أيضا فليس كل ماعلموه من علمائهم كان كذبا بخلاف الذي لايعقل معنى الكتاب فانه لايعلم الا تلاوة وأيضا فهذه للأماني الباطلة التي تمنوها بقلوبهم وقالوها بألسنتهم كقوله تعالى (تلك أمانيهم قد اشتركوا فيها كلهم) لايخص بالذم الأميون منهم وليس لكونهم أميين مدخل في الذم بهذه ولا لنفي العلم بالكتاب مدخل في الذم بهذه بل الذم بهذه مما يعلم أنها باطل أعظم من ذم من لايعلم أنها باطل ولهذا لما ذم الله بها عمم ولم يخص فقال تعالى (وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم) الآية وأيضا فانه قال (وان هم الا يظنون) فدل على أنه ذمهم على نفي العلم وعلى أنه ليس معهم الا الظن وهذا حال الجاهل بمعاني الكتاب لاحال من يعلم أنه يكذب فظهر أن هذا الصنف ليس هم الذين يقولون بأفواههم الكذب والباطل ولو أريد ذلك لقيل لايقولون الا أماني لم يقل لايعلمون الكتاب الا أماني بل ذلك الصنف هم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ويلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويكتبون الكتاب بأيديهم ليشتروا به ثمنا قليلا فهم يحرفون معاني الكتاب وهم يحرفون لفظه لمن لم يعرفه ويكذبون في لفظهم وخطهم وقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لتتبعن سنن من كان

Digitized by Google

قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه قالوا يارسول الله اليهود والنصارى قال فمن وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لتأخذن أمتي ماأخذ الأمم قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع قالوا يارسول الله فارس والروم قال ومن الناس الا أولئك فهذا دليل على أن ماذم الله به أهل الكتاب في هذه الآية يكون في هذه الامة من يشبههم فيه وهذا حق قد شوهد قال تعالى (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك انه على كل شيء شهيد) فمن تدبر ماأخبر الله به ورسوله رأى أنه قد وقع من ذلك أمور كثيرة بل أكثر الامور ودله ذلك على وقوع الباقي

﴿ فصل ﴾ فقد تبين أن الواجب طلب علم ماأنزل الله على رسوله من الكتاب والحكمة ومعرفة ماأراد بذلك كما كان على ذلك الصحابة والتابعون لهم باحسان ومن سلك سبيلهم فكل مايحتاج الناس اليه في دينهم فقد بينه الله ورسوله بيانا شافيا فكيف بأصول التوحيد والايمان ثم اذا عرف مابينه الرسول نظر في أقوال الناس وما أرادوه بها فعرضت على الكتاب والسنة والعقل الصريح دائما موافق للرسول لايخالفه قط فان الميزان مع الكتاب والله أنزل الكتاب بالحق والميزان لكن قد تقصر عقول الناس عن معرفة تفصيل ماجاء به فيأتيهم الرسول بما عجزوا عن معرفته وحاروا فيه لابما يعلمون بعقولهم بطلانه فالرسل صلوات الله وسلامه عليهم تخبر بمحيرات العقول لاتخبر بمحالات العقول فهذا سبيل الهدى والسنة والعلم وأما سبيل الضلال والبدعة والجهل فعكس ذلك أن يبتدع بدعة برأى رجال وتأويلاتهم ثم يجعل ماجاء به الرسول تبعا لها ويحرف ألفاظه ويتأول على وفق ماأصلوه وهؤلاء تجدهم في نفس الأمر لايعتمدون على ماجاء به الرسول ولا يتلقون الهدى منه ولكن ماوافقهم منه قبلوه وجعلوه حجة لاعمدة وما خالفهم تأولوه كالذين يحرفون الكلم عن مواضعه أوفوضوه كالذين لايعلمون الكتاب الا أماني وهؤلاء قد لايعرفون ماجاء به الرسول اما عجزا واما تفريطا فانه يحتاج الى مقدمتين ان الرسول قال كذا وانه أراد به كذا أما الاولى فعامتهم لايرتابون في انه جاء بالقرآن وان كان من غلاة أهل البدع من يرتاب في بعضه لكن الاحاديث عامة أهل البدع جهال بها وهم يظنون أن هذه رواها آحاد يجوزون عليهم الكذب والخطأ ولا يعرفون من كثرة طرقها وصفات رجالها والاسباب الموجبة للتصديق بها مايعلمه أهل العلم بالحديث فان هؤلاء يقطعون قطعا

يقينا بعامة المتون الصحيحة التى في الصحيحين كما قد بسطناه في غيرهذا الموضع وأما المقدمة الثانية فانهم قد لايعرفون معانى القرآن والحديث ومنهم من يقول الادلة اللفظية لاتفيد اليقين بمراد المتكلم وقد بسطنا الكلام على فساد ذلك في غير هذا الموضع وكثير منهم انما ينظر من تفسير القرآن والحديث فيما يقوله موافقوه على المذهب فيتأول تأويلاتهم فالنصوص التى توافقهم يحتجون بها والتى تخالفهم يتأولونها وكثير منهم لم يكن عمدتهم في نفس الأمر اتباع نص أصلا وهذا في البدع الكبار مثل الرافضة والجهمية فان الذى وضع الرفض كان زنديقا ابتدأ بعمل الكذب الصريح الذى يعلم انه كذب كالذين ذكرهم الله من اليهود الذين يفترون على الله الكذب وهم يعلمون ثم جاء من بعدهم من ظن صدق ماافتروه أولئك وهم في شك منه كما قال تعالى (وان الذين أوتوا العلم من بعدهم لفى شك منه مريب) وكذلك الجهمية ليس معهم على نفى الصفات وعلو الله على العرش ونحو ذلك نص أصلا لا آية ولا حديث ولا أثر عن الصحابة بل الذى ابتدأ ذلك لم يكن قصده اتباع الانبياء بل وضع ذلك كما وضعت عبادة الاوثان وغير ذلك من أديان الكفار مع علمهم بان ذلك مخالف للرسل كما ذكر عن مبدلة اليهود ثم فشا ذلك فيمن لم يعرفوا أصل ذلك وهذا بخلاف بدعة الخوارج فان أصلها مافهموه من القرآن فغلطوا في فهمه ومقصودهم اتباع القرآن باطنا وظاهرا ليسوا زنادقة وكذلك القدرية أصل مقصودهم تعظيم الأمر والنهى والوعد والوعيد والذى جاءت به الرسل ويتبعون من القرآن مادل على ذلك فعمرو بن عبيد وأمثاله لم يكن أصل مقصودهم معاندة الرسول كالذى ابتدع الرفض وكذلك الارجاء انما أحدثه قوم قصدهم جعل أهل القبلة كلهم مؤمنين ليسوا كفارا قابلوا الخوارج والمعتزلة فصاروا في طرف آخر وكذلك التشيع المتوسط الذى مضمونه تفضيل على وتقديمه على غيره ونحو ذلك لم يكن هذا من احداث الزنادقة بخلاف دعوى النص فيه والعصمة فان الذى ابتدع ذلك كان منافقا زنديقا ولهذا قال عبد الله بن المبارك ويوسف بن أسباط وغيرهما أصول البدعة أربعة الشيعة والخوارج والقدرية والمرجئة قالوا والجهمية ليسوا من الثنتين وسبعين فرقة وكذلك ذكر أبو عبد الله بن حامد عن أصحاب أحمد في ذلك قولين هذا أحدهما وهذا ارادوا به التجهم المحض الذى كان عليه جهم نفسه ومتبعوه عليه وهو نفى الاسماء مع نفى الصفات بحيث لايسمى الله بشىء من أسمائه الحسنى ولا يسميه شيأ ولا موجودا ولا غير ذلك

Digitized by Google

وانما نقل عنه انه كان يسميه قادرا لأن جميع الاسماء يسمى بها الخلق فزعم أنه يلزم منها التشبيه بخلاف القادر فانه كان رأس الجبرية وعنده ليس للعبد قدرة ولا فعل ولا يسمى غير الله قادرا فلهذا نقل عنه أنه سمى الله قادرا وشر منه نفاة الاسماء والصفات وهم الملاحدة من الفلاسفة والقرامطة ولهذا كان هؤلاء عند الأئمة قاطبة ملاحدة منافقين بل فيهم من الكفر الباطن ماهو أعظم من كفر اليهود والنصارى وهؤلاء لاريب أنهم ليسوا من الثنتين وسبعين فرقة واذا أظهروا الاسلام فغايتهم أن يكونوا من المنافقين كالمنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأولئك كانوا أقرب الى الاسلام من هؤلاء فانهم كانوا يلتزمون شرائع الاسلام الظاهرة وهؤلاء قد يقولون برفعها فلا صوم ولا صلاة ولا حج ولا زكاة لكن قد يقال ان أولئك كانوا قد قامت عليهم الحجة بالرسالة أكثر من هؤلاء واما من يقول ببعض التجهم كالمعتزلة ونحوهم الذين يتدينون بدين الاسلام باطنا وظاهرا فهؤلاء من أمة محمد صلى الله عليه وسلم بلا ريب وكذلك من هو خير منهم كالكلابية والكرامية وكذلك الشيعة المفضلين لعلى ومن كان منهم من يقول بالنص والعصمة مع اعتقاده نبوة محمد صلى الله عليه وسلم باطنا وظاهرا وظنه ان ماهو عليه هو دين الاسلام فهؤلاء أهل ضلال وجهل ليسوا خارجين عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم بل هم من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا وعامة هؤلاء ممن يتبع ماتشابه من القرآن ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله كما أن من المنافقين والكفار من يفعل ذلك ولهذا قال طائفة من المفسرين كالربيع بن أنس هم النصارى كنصارى نجران وقالت طائفة كالكلبي هم اليهود وقالت طائفة كابن جريج هم المنافقون وقالت طائفة كالحسن هم الخوارج وقالت طائفة كقتادة هم الخوارج والشيعة وكان قتادة اذا قرأ هذه الآية (فأما الذين في قلوبهم زيغ) يقول ان لم يكونوا الحرورية والسبائية فلا أدرى من هم والسبائية نسبة الى عبد الله بن سبأ رأس الرافضة

﴿ فصل ﴾ والمعنى الصحيح الذى هو نفى المثل والشريك والند قد دل عليه قوله سبحانه أحد وقوله (ولم يكن له كفوا أحد) وقوله (هل تعلم له سميا) وأمثال ذلك فالمعانى الصحيحة ثابتة بالكتاب والسنة والعقل يدل على ذلك وقول القائل الاحد أو الصمد أوغير ذلك هو الذى لاينقسم ولا يتفرق أوليس بمركب ونحو ذلك هذه العبارات اذا عنى بها أنه لايقبل التفرق والانفصال فهذا حق واما أن عنى أنه

Digitized by Google

لايشار اليه بحال أو من جنس مايعنون بالجوهر الفرد أنه لايشار الى شئ منه دون شئ فهذا عند أكثر العقلاء يمتنع وجوده وانما يقدر في الذهن تقديرا وقد علمنا ان العرب حيث أطلقت لفظ الواحد والاحد نفيا واثباتا لم ترد هذا المعنى فقوله تعالى (وان أحد من المشركين استجارك فأجره) لم يرد به هذا المعنى الذى فسروا به الواحد الاحد وكذلك قوله (وان كانت واحدة فلها النصف) وكذلك قوله (ولم يكن له كفوا أحد) فان المعنى لم يكن له أحد من الآحاد كفوا له فان كان الواحد عبارة عما لايتميز منه شئ عن شئ ولا يشار الى شئ منه دون شئ فليس في الموجودات ماهو أحد الا مايدعونه من الجوهر الفرد ومن رب العالمين وحينئذ لايكون قد نفى عن شئ من الموجودات أن يكون كفوا للرب لانه لم يدخل في مسمى أحد وقد بسطنا الكلام على هذا بسطا كثيرا في المباحث العقلية والسمعية التي يذكرها نفاة الصفات من الجهمية وأتباعهم في كتابنا المسمى بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية ولهذا لما احتجت الجهمية على السلف كالامام أحمد وغيره على نفى الصفات باسم الواحد قال أحمد قالوا لاتكونوا موحدين أبدا حتى تقولوا قد كان الله ولا شئ قلنا نحن نقول كان الله ولا شئ ولكن اذا قلنا ان الله لم يزل بصفاته كلها أليس انما نصف الها واحدا وضربنا لهم في ذلك مثلا فقلنا أخبرونا عن هذه النخلة أليس لها جذع وكرب وليف وسعف وخوص وجمار واسمها شئ واحد وسميت نخلة بجميع صفاتها فكذلك الله وله المثل الاعلى بجميع صفاته اله واحد لانقول انه قد كان في وقت من الاوقات ولا يعلم حتى خلق له علما ولكن نقول لم يزل عالما قادرا مالكا لامتى ولا كيف ومما يبين هذا أن سبب نزول هذه السورة الذى ذكره المفسرون يدل على ذلك فانهم ذكروا أسبابا* أحدها ماتقدم عن أبى بن كعب أن المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنعت لنا ربك فنزلت هذه السورة* والثانى أن عامر بن الطفيل قال للنبي صلى الله عليه وسلم إلام تدعونا اليه يا محمد قال الى الله قال فصفه لى أمن ذهب هو أم من فضة أم من حديد فنزلت هذه السورة وروى ذلك عن ابن عباس من طريق أبى ظبيان وأبى صالح عنه* والثالث أن بعض اليهود قال ذلك قالوا من أى جنس هو وممن ورث الدنيا ولمن يورثها فنزلت هذه السورة قاله قتادة والضحاك قال الضحاك وقتادة ومقاتل جاء من أحبار اليهود الى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا يا محمد صف لنا ربك لعلنا نؤمن بك فان الله أنزل نعته في التوراة فأخبرنا به من أى شئ

هو ومن أي جنس هو أمن ذهب أم من نحاس هو أم من صفر أم من حديد أم من فضة وهل يأكل ويشرب وممن ورث الدنيا ولمن يورثها فأنزل الله هذه السورة وهي نسبة الله خاصة *والرابع ماروى عن الضحاك عن ابن عباس أن وفد نجران قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم بسبعة أساقفة من بني الحرث بن كعب منهم السيد والعاقب فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم صف لنا ربك من أي شئ هو قال النبي صلى الله عليه وسلم ان ربي ليس من شئ وهو بائن من الاشياء فأنزل الله تعالى (قل هو الله أحد) فهؤلاء سألوا هل هو من جنس من أجناس المخلوقات وهل هو من مادة فبين الله تعالى أنه أحد ليس من جنس شئ من المخلوقات وانه صمد ليس من مادة بل هو صمد لم يلد ولم يولد واذا نفي عنه أن يكون مولودا من مادة الوالد فلأن ينفى عنه أن يكون من سائر المواد أولى وأحرى فان المولود من نظير مادته أكمل من مادة ماخلق من مادة أخرى كما خلق آدم من الطين فالمادة التي خلق منها أولاده أفضل من المادة التي خلق منها هو ولهذا كان خلقه أعجب فاذا نزه الرب عن المادة العليا فهو عن المادة السفلى أعظم تنزيها وهذا كما أنه اذا كان منزها عن أن يكون أحد كفوا له فلأن يكون منزها عن أن يكون أحد أفضل منه أولى وأحرى وهذا ممايبين أن هذه السورة اشتملت على جميع أنواع التنزيه والتحميد على النفي والاثبات ولهذا كانت تعدل ثلث القرآن فالصمدية تثبت الكمال المنافي للنقائص والاحدية تثبت الانفراد بذلك وكذلك اذا نزه نفسه عن أن يلد فيخرج منه مادة الولد التي هي أشرف المواد فلأن ينزه نفسه عن أن يخرج منه مادة غير الولد بالطريق الأولى والأحرى واذا نزه نفسه عن أن يخرج منه مواد للمخلوقات فلأن ينزه عن أن يخرج منه فضلات لاتصلح أن تكون مادة بطريق الأولى والأحرى والانسان يخرج منه مادة الولد ويخرج منه مادة غير الولد كما يخلق من عرقه ورطوبته القمل والدود وغير ذلك ويخرج منه المخاط والبصاق وغير ذلك وقد نزه الله أهل الجنة عن ان يخرج منهم شئ من ذلك وأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أنهم لايبولون ولا يتغوطون ولا يبصقون ولا يتمخطون وانه يخرج منهم مثل رشح المسك وأنهم يجامعون بذكر لايخفى وشهوة لاتنقطع ولا مني واذا اشتهى أحدهم الولد كان حمله ووضعه في زمن يسير فقد تضمن تنزيه نفسه عن أن يكون له ولد يخرج منه شئ من الاشياء كما يخرج من غيره من المخلوقات وهذا أيضا من تمام معنى الصمد كما سبق في تفسيره أنه الذي لايخرج منه شئ وكذلك

Digitized by Google

تنزيه نفسه عن أن يولد فلا يكون من مثله تنزيه له أن يكون من سائر المواد بطريق الأولى والأحرى وقد تقدم في حديث أبيّ بن كعب انه ليس شئ يولد الا سيموت وليس شئ يموت الا يورث والله تعالى لايموت ولا يورث وهذا رد لقول اليهود ممن ورث الدنيا ولمن يورثها وكذلك مانقل من سؤال النصارى صف انا ربك من أى شئ هو فقال النبي صلى الله عليه وسلم ان ربى ليس من شئ وهو بائن من الاشياء وكذلك سؤال المشركين واليهود أمن فضة هو أم من ذهب هو أم من حديد وذلك لأن هؤلاء عهدوا الآلهة التى يعبدونها من دون الله يكون لها مواد صارت منها فعباد الاوثان تكون أصنامهم من ذهب وفضة وحديد وغير ذلك وعباد البشر سواء كان البشر لم يأمروهم بعبادتهم أو أمروهم بعبادتهم كالذين يعبدون المسيح وعزيرا وكقوم فرعون الذين قال لهم أنا ربكم الاعلى وما علمت لكم من اله غيرى وقال لموسى لئن اتخذت الها غيرى لأجعلنك من المسجونين وكالذى آتاه الله نصيبا من الملك الذى حاج ابراهيم في ربه اذ قال ابراهيم ربى الذى يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت وكالرجل الذى يدعى الالهية وما من خلق آدم الى قيام الساعة فتنة أعظم من فتنة الدجال وكالذين قالوا (لاتذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا) وقد قال غير واحد من السلف ان هذه أسماء قوم صالحين كانوا فيهم فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم فعبدوهم وذلك أول ماعبدت الاصنام وان هذه الاصنام صارت الى العرب وقد ذكر ذلك البخارى في صحيحه عن ابن عباس قال صارت الاوثان التى في قوم نوح في العرب بعد أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل وأما سواع فكانت لهذيل وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبنى غطيف بالجرف عند سبأ وأما يعوق فكانت لهمدان وأما نسر فكانت لحمير لآل ذى الكلاع أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان الى قومهم ان أنصبوا الى مجالسهم التى كانوا يجلسون أنصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى اذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت ونوح أقام في قومه ألف سنة الا خمسين عاما يدعوهم الى التوحيد وهو أول رسول بعثه الله الى أهل الارض كما ثبت ذلك في الصحيح ومحمد خاتم الرسل وكلا المرسلين بعث الى مشركين يعبدون هذه الاصنام التى صورت على صورة الصالحين من البشر والمقصود بعبادتها عبادة أولئك الصالحين وكذلك المشركون من أهل الكتاب ومن مبتدعة هذه الامة وضلالها هذا غاية شركهم فان النصارى

يصورون في الكنائس صور من يعظمونه من الانس غير عيسى وأمه مثل مار جرجس وغيره من القداديس ويعبدون تلك الصور ويسألونها ويدعونها ويقربون لها القرابين وينذرون لها النذور ويقولون هذه تذكرنا بأولئك الصالحين والشياطين تضلهم كما كانت تضل المشركين تارة بأن يتمثل الشيطان في صورة ذلك الشخص الذى يدعى ويعبد فيظن داعيه انه قد أتى ويظن ان الله صور ملكا على صورته فان النصرانى مثلا يدعو في الأسر وغيره مار جرجس أو غيره فيراه قد أتاه في الهواء وكذلك غيره وقد سألوا بعض بتاركتهم عن هذا كيف يوجد في هذه الاماكن فقال هذه ملائكة يخلقهم الله على صورته تغيث من يدعوه وانما تلك شياطين أضلت المشركين وهكذا يحسب كثير من أهل البدع والضلال والشرك المنتسبين الى هذه الامة فان أحدهم يدعو ويستغيث بشيخه الذى يعظمه وهو ميت أو يستغيث به عند قبره ويسأله وقد ينذر له نذرا ونحو ذلك ويرى ذلك الشخص قد أتاه في الهواء ودفع عنه بعض مايكره أو كلمه ببعض ماسأله عنه ونحو ذلك فيظنه الشيخ نفسه أتى ان كان حيا حتى انى أعرف من هؤلاء جماعات يأتون الى الشيخ نفسه الذى استغاثوا به وقد رأوه أتاهم في الهواء فيذكرون ذلك له هؤلاء يأتون الى هذا الشيخ وهؤلاء يأتون الى هذا الشيخ فتارة يكون الشيخ نفسه لم يعلم بتلك القضية فان كان يحب الرياسة سكت وأوهم انه نفسه أتاهم وأغاثهم وان كان فيه صدق مع جهل وضلال قال هذا ملك صوره الله على صورتى وجعل هذا من كرامات الصالحين وجعله عمدة لمن يستغيث بالصالحين ومتخذهم أربابا وانهم اذا استغاثوا بهم بعث الله ملائكة على صورهم تغيث المستغيث بهم ولهذا أعرف غير واحد من الشيوخ الاكابر الذين فيهم صدق وزهد وعبادة لما ظنوا هذا من كرامات الصالحين صار أحدهم يوصى مريديه يقول اذا كانت لاحدكم حاجة فليستغث بى ويستنجدنى ويستوصى ويقول أنا أفعل بعد موتى ما كنت أفعل في حياتى وهو لايعرف ان تلك شياطين تصورت على صورته لتضله وتضل أتباعه فتحسن لهم الاشراك بالله ودعاء غير الله والاستغاثة بغير الله وانها قد تلقى في قلبه انا نفعل بعد موتك بأصحابك ما كنا نفعل بهم في حياتك فيظن هذا من خطاب الهى ألقى اليه فيأمر أصحابه بذلك وأعرف من هؤلاء من كان له شياطين تخدمه في حياته بأنواع الخدم مثل خطاب أصحابه المستغيثين به واعانتهم وغير ذلك فلما مات صاروا يأتون أحدهم في صورة الشيخ ويشعرونه أنه لم يمت ويرسلون الى

أصحابه رسائل بخطاب وقد كان يجتمع بى بعض اتباع هـذا الشيخ وكان فيـه زهد
وعبادة وكان يحبنى ويحب هـذا الشيخ ويظن أن هذا من الكرامات وان الشيخ لم
يمت وذكر الى الكلام الذى أرسله اليه بعد موته فقرأه فاذا هو كلام الشياطين بعينه
وقد ذكر لى غـير واحد ممن أعرفهم انهم استغاثوا بى فرأونى في الهواء قد أتيتهم
وخلصتهم من تلك الشدائد مثل من أحاط بهم النصارى الارمن ليأخذوه وآخر قد
أحاط به العدو ومعـه كتب ملطفات من مناصحين لو اطلعوا على مامعه لقتلوه ونحو
ذلك فذكرت لهم انى مادريت بما جرى أصلا وحلفت لهم حتى لايظنوا انى كتمت
ذلك كما تكتم الكرامات وانا قـد علمت ان الذى فعلوه ليس بمشروع بل هو شرك
وبدعة ثم تبين لى فيما بعد وبينت لهم ان هذه شياطين تتصور على صورة المستغاث به
وحكى لى غير واحد من أصحاب الشيوخ انه جرى لمن استغاث بهم مثل ذلك وحكى
خلق كثير انهم استغاثوا باحياء وأموات فرأوا مثل ذلك واستفاض هذا حتى عرف
ان هذا من الشـياطين تغوى الانسان بحسب الامكان فان كان ممن لايعرف دين
الاسلام أوقعته في الشرك الظاهر والكفر المحض فأمرته أن لايذكر الله وأن يسجد
للشيطان ويذبح له وأمرته بأكل الميتة والدم وفعل الفواحش وهذا يجرى كثيرا في
بلاد الكفر المحض وبلاد فيها كفر واسلام ضعيف ويجرى في بعض مدائن الاسـلام
في المواضع التى يضعف ايمان أصحابها حتى قد جرى ذلك في مصر والشام على أنواع
يطول وصفها وهو في أرض الشرق قبل ظهور الاسلام في التتار كثير جدا وكلما ظهر
فيهم الاسلام وعرفوا حقيقته قلت آثار الشياطين فيهم وان كان مسلما يختار الفواحش
والظلم اعانته على الظلم والفواحش وهذا كثير جدا أكثر من الذى قبـله في البلاد
التى في أهلها اسلام وجاهلية وبر وفجور وان كان الشيخ فيه اسلام وديانة ولكنه عنده
قلة معرفة بحقيقة مابعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم وقد عرف من حيث الجملة
ان لأولياء الله كرامات وهو لايعرف كمال الولاية وانها الايمان والتقوى واتباع الرسول
باطنا وظاهرا أو يعرف ذلك مجمـلا ولا يعرف من حقائق الايمـان الباطن وشرائع
الاسلام الظاهرة مايفرق به بين الاحوال الرحمانية وبين النفسانية والشيطانيه كما أن
الرؤيا ثلاثة أقسام رؤيا من الله ورؤيا مما يحدث المرء به نفسه في اليقظة فيراه في المنام
ورؤيا من الشيطان فكذلك الاحوال فاذا كان عنده قلة معرفة بحقيقة دين محمد صلى
الله عليه وسلم أمرته الشياطين بأمر لاينكره فتارة يحملون أحدهم في الهواء ويقفون

به بعرفات ثم يعيدونه الى بلده وهو لابس ثيابه لم يحرم حين حاذى المواقيت ولا كشف رأسه ولا تجرد عما يتجرد عنه المحرم ولا يدعونه بعد الوقوف يطوف طواف الافاضة ويرمي الجمار ويكمل حجه بل يظن أن مجرد الوقوف كما فعل به عبادة وهذا من قلة علمه بدين الاسلام ولو علم دين الاسلام لعلم أن هذا الذى فعله ليس عبادة لله والا من استحل هذا فهو مرتد يجب قتله بل اتفق المسلمون على أنه يجب الاحرام عند الميقات ولا يجوز للأنسان المحرم اللبس في الاحرام الا من عذر وانه لايكتفى بالوقوف بل لابد من طواف الافاضة باتفاق المسلمين بل وعليه أن يفيض الى المشعر الحرام ويرمى جمرة العقبة وهـذا مما تنوزع فيه هل هو ركن أو واجب يجبره دم وعليه أيضا رمى الجمار أيام منى باتفاق المسلمين وقد تحمل أحدهم الجن فتزوره بيت المقدس وغـيره وتطير به في الهواء وتمشى به في المـاء وقد تريه أنه قد ذهب به الى مدينة الاولياء وربما أرته أنه يأكل من ثمار الجنة ويشرب من أنهارها وهـذا كله وأمثاله مما أعرفه قد وقع لمن أعرفه لكن هذا باب طويل ليس هذا موضع بسطه وانما المقصود أن أصل الشرك في العالم كان من عبادة البشر الصالحين وعبدوا تماثيلهم وهم المقصودون ومن الشرك ماكان أصله عبادة الكواكب اما الشمس واما القمر واما غيرهما وصورت الاصنام طلاسم لتلك الكواكب وشرك قوم ابراهيم والله أعلم كان من هذا أو كان بعضه من هذا ومن الشرك ماكان أصله عبادة الملائكة أو الجن وضعت الاصنام لاجلهم والا فنفس الاصنام الجمادية لم تعبد لذاتها بل لأسباب اقتضت ذلك وشرك العرب كان أعظمه الأول وكان فيـه من الجميع فان عمرو بن لحي هو أول من غير دين ابراهيم عليه السلام وكان قد أتى الشام ورآهم بالبلقاء لهـم أصنام يستجلبون بها المنافع ويدفعون بها المضار فصنع مثل ذلك في مكة لمـا كانت خزاعة ولاة البيت قبل قريش وكان هو سيد خزاعة وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال رأيت عمرو بن لحى بن قمعة بن خندف يجر قصبه في النار أى أمعاءه وهو أول من غير دين ابراهيم وسيب السوائب وبحر البحيرة وكذلك والله أعلم شرك قوم نوح وان كان مبدؤه من عبادة الصالحين فالشيطان يجر الناس من هذا الى غيره لكن هذا أقرب الى الناس لانهم يعرفون الرجـل الصالح وبركته ودعاءه فيعكفون على قبره ويقصدون ذلك منـه فتارة يسألونه وتارة يسألون الله به ويدعون عنـد قبره ظانين أن الصلاة والدعاء عند قبره أفضل منه في المساجد والبيوت ولما كان هذا مبدأ

Digitized by Google

الشرك سد النبي صلى الله عليه وسلم هذا الباب كما سد باب الشرك بالكواكب ففي صحيح مسلم عنه أنه قال قبل أن يموت بخمس ان من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد الا فلا تتخذوا القبور مساجد فاني أنهاكم عن ذلك وفي الصحيحين عنه أنه صلى الله عليه وسلم ذكر له كنيسة بأرض الحبشة وذكر من حسنها وتصاوير فيها فقال ان أولئك اذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور أولئك هم شرار الخلق عند الله يوم القيامة وفي الصحيحين عنه أنه قال صلى الله عليه وسلم في مرض موته لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر مافعلوا قالت عائشة ولولا ذلك لابرز قبره ولكن كره أن يتخذ مسجدا وفي مسند أحمد وصحيح أبي حاتم عنه أنه قال صلى الله عليه وسلم ان من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد وفي سنن أبي داود وغيره عنه أنه قال صلى الله عليه وسلم لاتتخذوا قبرى عيدا وصلوا على حيث ما كنتم فان صلاتكم تبلغني وفي موطأ مالك عنه أنه قال صلى الله عليه وسلم اللهم لاتجعل قبرى وثنا يعبد اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد وفي صحيح مسلم عن أبي الهياج الاسدى قال قال لى على بن أبي طالب رضى الله عنه الا أبعثك على ما بعثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنى أن لاأدع قبرا مشرفا الا سويته ولا تمثالا الا طمسته فأمره بمحو التمثالين الصورة الممثلة على صورة الميت والتمثال الشاخص المشرف فوق قبره فان الشرك يحصل بهذا وبهذا وقد ثبت عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كان في سفر فرأى قوما ينتابون مكانا للصلاة فقال ماهذا فقالوا هذا مكان صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال انما هلك من كان قبلكم بهذا انهم اتخذوا آثار انبيائهم مساجد من أدركته الصلاة فليصل والا فليمض وبلغه أن قوما يذهبون الى الشجرة التي بايع النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه تحتها فأمر بقطعها وأرسل اليه أبوموسى يذكر له أنه ظهر بتستر قبر دانيال وعنده مصحف فيه أخبار ماسيكون وأنهم اذا أجدبوا كشفوا عن القبر فمطروا فأرسل اليه عمر يأمره أن يحفر بالنهار ثلاثة عشر قبرا ويدفنه بالليل في واحد منها لئلا يعرفه الناس لئلا يفتتنوا به فاتخاذ القبور مساجد مما حرمه الله ورسوله وان لم يبن عليها مسجدا كان بناء المساجد عليها أعظم وكذلك قال العلماء يحرم بناء المساجد على القبور ويجب هدم كل مسجد بنى على قبر وان كان الميت قد قبر في مسجد وقد طال مكثه سوى القبر حتى لاتظهر صورته فان الشرك انما يحصل

اذا ظهرت صورته ولهذا كان مسجد النبي صلى الله عليه وسلم أولا مقبرة للمشركين وفيها نخل وخرب فأمر بالقبور فنبشت وبالنخل فقطع وبالخرب فسويت فخرج عن أن يكون مقبرة فصار مسجداً ولما كان اتخاذ القبور مساجد وبناء المسجد عليها محرما ولم يكن شيء من ذلك على عهد الصحابة والتابعين لهم باحسان ولم يكن يعرف قط مسجد على قبر وكان الخليل عليه السلام في المغارة التي دفن فيها وهي مسدودة لاأحد يدخل اليها ولا تشد الصحابة الرحال لااليه ولاالى غيره من المقابر لأن في الصحيحين من حديث أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لاتشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد المسجد الحرام والمسجد الاقصى ومسجدي هذا فكان يأتي من يأتي منهم الى المسجد الاقصى يصلون فيه ثم يرجعون لايأتون مغارة الخليل ولا غيرها وكانت مغارة الخليل مسدودة حتى استولى النصارى على الشام في أواخر المائة الرابعة ففتحوا الباب وجعلوا ذلك المكان كنيسة ثم لما فتح المسلمون البلاد اتخذه بعض الناس مسجداً وأهل العلم ينكرون ذلك والذي يرويه بعضهم في حديث الاسراء أنه قيل للنبي صلى الله عليه وسلم هذه طيبة انزل فصل فنزل فصلى هذا مكان أبيك انزل فصل كذب موضوع لم يصل النبي صلى الله عليه وسلم تلك الليلة الا في المسجد الاقصى خاصة كما ثبت ذلك في الصحيح ولا نزل الا فيه ولهذا لما قدم الشام من الصحابة من لايحصى عددهم الا الله وقدمها عمر بن الخطاب لما فتح بيت المقدس وبعد فتح الشام لما صالح النصارى على الجزية وشرط عليهم الشروط المعروفة وقدمها مرة ثالثة حتى وصل الى سرغ ومعه أكابر السابقين الاولين من المهاجرين والانصار فلم يذهب أحد منهم الى مغارة الخليل ولاغيرها من آثار الانبياء التي بالشام لابيت المقدس ولا بدمشق ولا غير ذلك مثل الآثار الثلاثة التي بجبل قاسيون في غربيه الربوة المضافة الى عيسى عليه السلام وفي شرقيه المقام المضاف الى الخليل عليه السلام وفي وسطه وأعلاه مغارة الدم المضافة الى هابيل لما قتله قابيل فهذه البقاع وأمثالها لم يكن السابقون الاولون يقصدونها ولا يزورونها ولا يرجون منها بركة فانها محل الشرك ولهذا توجد فيها الشياطين كثيرا وقد رآهم غير واحد على صورة الانس ويقولون لهم رجال الغيب يظنون انهم رجال من الانس غائبين عن الابصار وانما هم جن والجن يسمون رجالا كما قال الله تعالى (وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا) والانس سموا أنسا لانهم يؤنسون

Digitized by Google

أي يرون كما قال (اني آنست نارا) أي رأيتها والجن سموا جنا لاجتنانهم يجتنون عن الابصار أي يستترون كما قال تعالى (فلما جن عليه الليل) أي استولى عليه فغطاه وستره وليس أحد من الانس يستتر دائما عن أبصار الانس وانما يقع هذا لبعض الانس في بعض الاحوال تارة على وجه الكرامة له وتارة يكون من باب السحر وعمل الشياطين ولبسط الكلام على الفرق بين هذا وبين هذا موضع آخر والمقصود ههنا ان الصحابة والتابعين لهم باحسان لم يبنوا قط على قبر نبي ولا رجل صالح مسجدا ولا جعلوه مشهدا ومزارا ولا على شيء من آثار الانبياء مثل مكان نزل فيه أو صلى فيه أو فعل فيه شيأ من ذلك لم يكونوا يقصدون بناء مسجد لأجل آثار الانبياء والصالحين ولم يكن جمهورهم يقصدون الصلاة في مكان لم يقصد الرسول الصلاة فيه بل نزل فيه أو صلى فيه اتفاقا بل كان أئمتهم كعمر بن الخطاب وغيره ينهى عن قصد الصلاة في مكان صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم اتفاقا لاقصدا وانما نقل عن ابن عمر خاصة انه كان يتحرى أن يسير حيث سار رسول الله صلى الله عليه وسلم وينزل حيث نزل ويصلى حيث صلى وان كان النبي صلى الله عليه وسلم لم يقصد تلك البقعة لذلك الفعل بل حصل اتفاقا وكان ابن عمر رضي الله عنهما رجلا صالحا شديد الاتباع فرأى هذا من الاتباع وأما أبوه وسائر الصحابة من الخلفاء الراشدين عثمان وعلى وسائر العشرة وغيرهم مثل ابن مسعود ومعاذ بن جبل وأبيّ بن كعب فلم يكونوا يفعلون مافعل ابن عمر وقول الجمهور أصح وذلك أن المتابعة أن يفعل مثل مافعل على الوجه الذى فعل لاجل أنه فعل فاذا قصد الصلاة والعبادة في مكان معين كان قصد الصلاة والعبادة في ذلك المكان متابعة له وأما اذا لم يقصد تلك البقعة فان قصدها يكون مخالفة لامتابعة له مثال الأول لما قصد الوقوف والذكر والدعاء بعرفة ومزدلفة وبين الجمرتين كان قصد تلك البقاع متابعة له وكذلك لما طاف وصلى خلف المقام ركعتين كان فعل ذلك متابعة له وكذلك لما صعد على الصفا والمروة للذكر والدعاء كان قصد ذلك متابعة له وقد كان سلمة بن الاكوع يتحرى الصلاة عند الاسطوانة قال لانى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحرى الصلاة عندها فلما رآه يقصد تلك البقعة لاجل الصلاة كان ذلك القصد للصلاة متابعة وكذلك لما أراد عتبان ومالك أن يبنى مسجدا لما عمى فأرسل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له اني أحب أن تأتيني تصلى في منزلى فاتخذه مصلي وفي رواية فقال تعالى فخط لى مسجدا فأتى النبي صلى الله عليه وسلم

Digitized by Google

ومن شاء من أصحابه وفي رواية فغـدا على رسول الله صلى الله عليه وسـلم وأبو بكر
الصديق حين ارتفع النهار فاستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فأذنت له فلم يجلس
حتى دخل البيت فقال أين تحب أن أصلى من بيتك فأشرت له الى ناحيـة من البيت
فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقمنا وراءه فصلى ركعتين ثم سلم الحديث فانه قصد
أن يبنى مسجدا وأحب أن يكون أول من يصلى فيه النبي صلى الله عليه وسلم وأن يبنيه
في الموضع الذى صلى فيه فالمقصود كان بناء المسجد وأراد أن يصلى النبي صلى الله عليه
وسلم في المكان الذى يبنيه فكانت الصلاة مقصودة لاجل المسجد لم يكن بناء المسجد
مقصودا لاجل كونه صلى فيه اتفاقا وهذا المكان مكان قصد النبي صلى الله عليه وسلم
الصلاة فيه ليكون مسجدا فصار قصد الصلاة فيه متابعة له بخلاف مااتفق انه صلى فيه
بغير قصد وكذلك قصد يوم الاثنين والخميس بالصوم متابعة لانه قصد صوم هذين
اليومين وقال في الحديث الصحيح انه تفتح أبواب الجنـة في كل خميس واثنين فيغفر
لكل عبد لايشرك بالله شيأ الا رجلا كان بينه وبين أخيه شحناء فيقال انظروا هذين
حتى يصطلحا وكذلك قصد اتيان مسجد قباء متابعة له فانه قد ثبت عنه في الصحيحين
انه كان يأتى قباء كل سبت راكبا وماشيا وذلك ان الله أنزل عليـه (لمسجد أسس على
التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه) وكان مسجده هو الاحق بهذا الوصف وقد
ثبت في الصحيح انه سئل عن المسجد المؤسس على التقوى فقال هو مسجدى هذا يريد
انه أكمل في هذا الوصف من مسجد قباء ومسجد قباء أيضا أسس على التقوى وبسببه
الآية ولهذا قال (فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين) وكان أهل قباء مع
الوضوء والغسل يستنجون بالماء تعلموا ذلك من جيرانهم اليهود ولم تكن العرب تفعل
ذلك فأراد النبي صلى الله عليه وسلم ان لايظن ظان ان ذاك هو الذى أسس على التقوى
دون مسجده فذكر ان مسجده أحق بأن يكون هو المؤسس عـلى التقوى فقـوله
لمسجد أسس على التقوى يتناول مسجده ومسجد قباء ويتناول كل مسجد أسس على
التقوى بخـلاف مساجد الضرار ولهذا كان السلف يكرهون الصلاة فيما يشـبه ذلك
ويرون العتيق أفضل من الجديد لان العتيق أبعد عن أن يكون بنى ضرارا من الجديد
الذى يخاف ذلك فيه وعتق المسجد مما يحمد به ولهذا قال (ثم محلها الى البيت العتيق)
وقال (ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة) فان قدمه يقتضى كثرة العبادة فيـه أيضا
وذلك يقتضى زيادة فضله ولهذا لم يستحب علماء السلف من أهل المدينة وغيرها قصد

Digitized by Google

شيء من المساجد والمزارات التي بالمدينة وماحولها بعد مسجد النبي صلى الله عليه وسلم الا مسجد قباء لان النبي صلى الله عليه وسلم لم يقصد مسجدا بعينه يذهب اليه هو وقد كان بالمدينة مساجد كثيرة لكل قبيلة من الانصار مسجد لكن ليس في قصده دون أمثاله فضيلة بخلاف مسجد قباء فانه أول مسجد بني بالمدينة على الاطلاق وقد قصده الرسول بالذهاب اليه وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال من توضأ في بيته ثم أتى مسجد قباء لايريد الا الصلاة فيه كان كعمرة ومع هذا فلا يسافر اليه لكن اذا كان الانسان بالمدينة أتاه ولا يقصد انشاء السفر اليه بل يقصد انشاء السفر الى المساجد الثلاثة لقوله صلى الله عليه وسلم لاتشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد المسجد الحرام والمسجد الاقصى ومسجدي هذا ولهذا لو نذر السفر الى مسجد قباء لم يوف بنذره عند الائمة الاربعة وغيرهم بخلاف المسجد الحرام فانه يجب الوفاء بالنذر اليه باتفاقهم وكذلك مسجد المدينة وبيت المقدس في أصح قوليهم وهو مذهب مالك وأحمد والشافعي في أحد قوليه وفي الآخر وهو قول أبي حنيفة ليس عليه ذلك لكنه جائز ومستحب لان من أصله انه لايجب بالنذر الا ماكان واجبا بالشرع والاكثرون يقولون يجب بالنذر كل ماكان طاعة لله كما ثبت في صحيح البخاري عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه ويستحب زيارة قبور البقيع وشهداء أحد للدعاء لهم والاستغفار لان النبي صلى الله عليه وسلم كان يقصد ذلك مع ان هذا مشروع لجميع موتى المسلمين كما يستحب السلام عليهم والدعاء لهم والاستغفار وزيارة القبور بهذا القصد مستحبة وسواء في ذلك قبور الانبياء والصالحين وغيرهم وكان عبد الله بن عمر اذا دخل المسجد يقول السلام عليك يارسول الله السلام عليك ياأبا بكر السلام عليك ياأبه ثم ينصرف وأما زيارة قبور الانبياء والصالحين لاجل طلب الحاجات منهم أو دعائهم والاقسام بهم على الله أو ظن أن الدعاء أو الصلاة عند قبورهم أفضل منه في المساجد والبيوت فهذا ضلال وشرك وبدعة باتفاق أئمة المسلمين ولم يكن أحد من الصحابة يفعل ذلك ولا كانوا اذا سلموا على النبي صلى الله عليه وسلم يقفون يدعون لانفسهم ولهذا كره ذلك مالك وغيره من العلماء لانها من البدع التي لم يفعلها السلف واتفق العلماء الاربعة وغيرهم من السلف على انه اذا أراد أن يدعو يستقبل القبلة ولا يستقبل قبر النبي صلى الله عليه وسلم وأما اذا سلم عليه فأكثرهم قالوا يستقبل القبر قاله مالك والشافعي وأحمد وقال أبو حنيفة

Digitized by Google

بل يستقبل القبلة أيضا ويكون القبر عن يساره وقيل بل يستدبر القبلة ومما يبين هذا الاصل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر هو وأبو بكر ذهبا الى الغار الذى بجبل ثور ولم يكن على طريقهما بالمدينة فانه من ناحية اليمن والمدينة من ناحية الشام ولكن احتبآ فيه ثلاثا لينقطع خبرهما عن المشركين فلا يعرفون أين ذهبا فان المشركين كانوا طالبين لهما وقد بذلوا في كل واحد منهما ديته لمن يأتى به وكانوا يقصدون منع النبي صلى الله عليه وسلم أن يصل الى أصحابه بالمدينة وان لا يخرج من مكة بل لما عجزوا عن قتله أرادوا حبسه بمكة فلو سلك الطريق ابتداء لادركوه فأقام بالغار ثلاثا لاجل ذلك فلو أراد المسافر من مكة الى المدينة أن يذهب الى الغار ثم يرجع لم يكن ذلك مستحبا بل مكروها والنبي صلى الله عليه وسلم في الهجرة سلك طريق الساحل وهى طويلة وفيها دورة وأما في عمره وحجته فكان يسلك الوسط وهو أقرب الى مكة فسلك في الهجرة طريق الساحل لانها كانت أبعد عن قصد المشركين فان الطريق الوسطى كانت أقرب الى المدينة فيظنون انه سلكها كما كان اذا أراد غزوة ورّى بغيرها وهو صلى الله عليه وسلم لما قسم غنائم حنين بالجعرانة اعتمر منها ولما صده المشركون عن مكة حل بالحديبية وكان قد أنشأ الاحرام بالعمرة من ميقات المدينة ذى الحليفة ولما اعتمر من العام القابل عمرة القضية اعتمر من ذى الحليفة ولم يدخل الكعبة في عمره ولا حجته وانما دخلها عام الفتح وكان بها صور مصورة فلم يدخلها حتى محيت تلك الصور وصلى بها ركعتين وصلى يوم الفتح ثمان ركعات وقت الضحى كما روت أم هانئ ولكن لم يقصد الصلاة وقت الضحى الا لسبب مثل أن يقدم من سفر فيدخل المسجد فيصلى فيه ركعتين ومثل أن يشغله نوم أو مرض عن قيام الليل فيصلى بالنهار ثنتى عشرة ركعة وكان يصلى بالليل احدى عشرة ركعة فصلى ثنتى عشرة ركعة شفعا لفوات وقت الوتر فانه صلى الله عليه وسلم قال المغرب وتر صلاة النهار فأوتروا صلاة الليل وقال اجعلوا آخر صلاتكم بالليل وترا وقال صلاة الليل مثنى مثنى فاذا خفت الصبح فأوتر بركعة والمأثور عن السلف أنهم اذا ناموا عن الوتر كانوا يوترون قبل صلاة الفجر ولا يؤخرونه الى ما بعد الصلاة وفي الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت ما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبحة الضحى قط وانى لا سبحها وان كان ليدع العمل وهو يحب أن يعمل به خشية أن يعمل به الناس فيفرض عليهم وقد ثبت عنه في الصحيح انه أوصى بركعتى الضحى لأبى هريرة

Digitized by Google

ولأبي الدرداء وفيها أحاديث لكن صلاته ثمان ركعات يوم الفتح جعلها بعض العلماء صلاة الضحى وقال آخرون لم يصلها الا يوم الفتح فعلم انه صلاها لاجل الفتح وكانوا يستحبون عند فتح مدينة أن يصلي الامام ثماني ركعات شكراً لله ويسمونها صلاة الفتح قالوا لان الاتباع يعتبر فيه القصد والنبي صلى الله عليه وسلم لم يقصد الصلاة لاجل الوقت ولو قصد ذلك لصلى كل يوم أو غالب الايام كما كان يصلي ركعتي الفجر كل يوم وكذلك كان يصلي بعد الظهر ركعتين وقبلها ركعتين أو أربعا ولما فاتته الركعتان بعد الظهر قضاهما بعد العصر وهو صلى الله عليه وسلم لما نام هو وأصحابه عن صلاة الفجر في غزوة خيبر فصلوا بعد طلوع الشمس ركعتين ثم ركعتين لم يقل أحد ان هذه الصلاة في هذا الوقت سنة دائما لانهم انما صلوها قضاء لكونهم ناموا عن الصلاة ولما فاتته العصر في بعض أيام الخندق فصلاها بعد ماغربت الشمس وروى ان الظهر فاتته أيضا فصلى الظهر ثم العصر ثم المغرب لم يقل أحد انه يستحب أن يصلي بين العشاءين احد عشر ركعة لان ذلك كان قضاء بل ولا نقل عنه أحد انه خص ما بين العشاءين بصلاة وقوله تعالى (ناشئة الليل) عند أكثر العلماء هو اذا قام الرجل بعد نوم ليس هو أول الليل وهذا هو الصواب لان النبي صلى الله عليه وسلم هكذا كان يصلي بالليل والأحاديث بذلك متواترة عنه كان يقوم بعد النوم لم يكن يقوم بين العشاءين وكذلك أكله ماكان يجد من الطعام ولبسه الذي يوجد بمدينته طيبة مخلوقا فيها ومجلوبا اليها من اليمن وغيرها لانه هو الذي يسره الله له فأكله التمر وخبز الشعير وفاكهته الرطب والبطيخ الأخضر والقثاء ولبس ثياب اليمن لان ذلك هو كان الميسر في بلده من الطعام والثياب لالخصوص ذلك فمن كان ببلد آخر وقوتهم البر والذرة وفاكهتهم العنب والرمان ونحو ذلك وثيابهم مما ينسج بغير اليمن لم يكن اذا قصد أن يتكلف من القوت والفاكهة واللباس ماليس في بلده بل يتعسر عليهم متبعا للرسول صلى الله عليه وسلم وان كان ذلك الذي يتكلفه تمرا أو رطبا أو خبز شعير فعلم أنه لابد في المتابعة للنبي صلى الله عليه وسلم من اعتبار القصد والنية فانما الاعمال بالنيات وانما لكل امرئ مانوى فعلم أن الذي عليه جمهور الصحابة وأكابرهم هو الصحيح ومع هذا فابن عمر رضي الله عنهما لم يكن يقصد أن يصلي الا في مكان صلى فيه النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يقصد الى الصلاة في موضع نزوله ومقامه ولا كان أحد من الصحابة يذهب الى الغار المذكور في القرآن للزيارة والصلاة فيه وان كان النبي صلى

الله عليه وسلم وصاحبه أقاما به ثلاثا يصلون فيه الصلوات الخمس ولا كانوا أيضا يذهبون الى حراء وهو المكان الذى كان يتعبد فيه قبل النبوة وفيه نزل عليه الوحي أولا وكان هذا مكان يتعبدون فيه قبل الاسلام فان حراء أعلى جبل كان هناك فلما جاء الاسلام ذهب النبي صلى الله عليه وسلم الى مكة مرات بعد ان أقام بها قبل الهجرة بضع عشرة سنة ومع هذا فلم يكن هو ولا أصحابه يذهبون الى حراء ولما حج النبي صلى الله عليه وسلم استلم الركنين اليمانيين ولم يستلم الشاميين لانهما لم يبنيا على قواعد ابراهيم فان أكثر الحجر من البيت والحجر الاسود استلمه وقبله واليمانى استلمه ولم يقبله وصلى بمقام ابراهيم ولم يستلمه ولم يقبله فدل ذلك على ان التمسح بحيطان الكعبة غير الركنين اليمانيين وتقبيل شئ منها غير الحجر الاسود ليس بسنة ودل على ان استلام مقام ابراهيم وتقبيله ليس بسنة واذا كان هذا نفس الكعبة ونفس مقام ابراهيم بها فمعلوم ان جميع المساجد حرمتها دون الكعبة وان مقام ابراهيم بالشام وغيرها وسائر مقامات الانبياء دون المقام الذى قال الله فيه (واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى) فعلم أن سائر المقامات لاتقصد للصلاة فيها كما لايحج الى سائر المشاهد ولا يتمسح بها ولا يقبل شئ من مقامات الانبياء ولا المساجد ولا الصخرة ولا غيرها ولا يقبل وجه الارض الا الحجر الاسود وأيضا فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يصل بمسجد بمكة الا المسجد الحرام ولم يأت للعبادات الى المشاعر منى ومزدلفة وعرفة فلهذا كان أئمة العلماء على أنه لايستحب أن يقصد مسجدا بمكة للصلاة غير المسجد الحرام ولا تقصد بقعة للزيارة غير المشاعر التى قصدها رسول الله صلى الله عليه وسلم واذا كان هذا في آثارهم فكيف بالمقابر التى لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم من اتخذها مساجد وأخبر أنهم شرار الخلق يوم القيامة • ودين الاسلام انه لاتقصد بقعة للصلاة الا أن تكون مسجدا فقط ولهذا مشاعر الحج غير المسجد الحرام تقصد للنسك لا للصلاة فلا صلاة بعرفة وانما صلى النبي صلى الله عليه وسلم الظهر والعصر يوم عرفة بعرفة خطب بها ثم صلى ثم بعد الصلاة ذهب الى عرفات فوقف بها وكذلك يذكر الله ويدعى بعرفات وبمزدلفة على قزح وبالصفا والمروة وبين الجمرات وعند الرمى ولا تقصد هذه البقاع للصلاة وأما غير المساجد ومشاعر الحج فلا تقصد بقعة لا للصلاة ولا للذكر ولا للدعاء بل يصلى المسلم حيث أدركته الصلاة الا حيث نهى ويذكر الله ويدعوه حيث تيسر من غير تخصيص بقعة بذلك واذا اتخذ بقعة لذلك كالمشاهد نهى عن ذلك كما نهى

Digitized by Google

عن الصلاة في المقبرة الا مايفعله الرجل عند السلام على الميت من الدعاء له وللمسلمين كما يفعل مثل ذلك في الصلاة على الجنازة فان زيارة قبر المؤمن من جنس الصلاة على جنازته يفعل في هذا من جنس مايفعل في هذا ويقصد بالدعاء هنا مايقصد بالدعاء هنا ومما يشبه هذا أن الانصار بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة بالوادى الذى وراء جمرة العقبة لأنه مكان منخفض قريب من منى يستتر من فيه فان السبعين الانصار كانوا قد حجوا مع قومهم المشركين وما زال الناس يحجون الى مكة قبل الاسلام وبعده فجاؤا مع قومهم الى منى لاجل الحج ثم ذهبوا بالليل الى ذلك المكان لقربه وستره لالفضيلة فيه ولم يقصدوه لفضيلة تخصه بعينه ولهذا لما حج النبي صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه لم يذهبوا اليه ولا زاروه وقد بنى هناك مسجد وهو محدث وكل مسجد بمكة وما حولها غير المسجد الحرام فهو محدث ومنى نفسها لم يكن بها على عهد النبي صلى الله عليه وسلم مسجد مبنى ولكن قال منى مناخ لمن سبق فنزل بها المسلمون وكان يصلى بالمسلمين بمنى وغير منى وكذلك خلفاؤه من بعده واجتماع الحجاج بمنى أكثر من اجتماعهم بغيرها فانهم يقيمون بها أربعا وكان النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر يصلون بالناس بمنى وغير منى وكانوا يقصرون الصلاة بمنى وعرفة ومزدلفة ويجمعون بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء بمزدلفة ويصلى بصلاتهم جميع الحجاج من أهل مكة وغير أهل مكة كلهم يقصرون الصلاة بالمشاعر وكلهم يجمعون بعرفة ومزدلفة وقد تنازع العلماء في أهل مكة ونحوهم هل يقصرون أو يجمعون فقيل لايقصرون ولا يجمعون كما يقول ذلك من يقول من أصحاب الشافعي وأحمد وقيل يجمعون ولا يقصرون كما يقول ذلك أبو حنيفة وأحمد ومن وافقه من أصحابه وأصحاب الشافعي وقيل يجمعون ويقصرون كما قال ذلك مالك وابن عيينة واسحق بن راهويه وبعض أصحاب أحمد وغيرهم وهذا هو الصواب بلا ريب فانه الذى فعله أهل مكة خلف النبي صلى الله عليه وسلم بلا ريب ولم يقل النبي صلى الله عليه وسلم قط ولا أبو بكر ولا عمر بمنى ولا عرفة ولا مزدلفة ياأهل مكة أتموا صلاتكم فانا قوم سفر ولكن ثبت ان عمر قال ذلك في جوف مكة وكذلك في السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ذلك في جوف مكة في غزوة الفتح وهذا من أقوى الادلة على أن القصر مشروع لكل مسافر ولو كان سفره بريدا فان عرفة من مكة بريد أربع فراسخ ولم يصل النبي صلى الله عليه وسلم ولا خلفاؤه بمكة صلاة عيد بل

Digitized by Google

ولا صلى في اسفاره قط صلاة العيد ولا صلى بهم فى أسفاره صلاة جمعة يخطب ثم يصلى ركعتين بل كان يصلى يوم الجمعة في السفر ركعتين كما يصلى في سائر الايام وكذلك لما صلى بهم الظهر والعصر بعرفة صلى ركعتين كصلاته في سائر الايام ولم ينقل أحد أنه جهر بالقراءة يوم الجمعة في السفر لا بعرفة ولا بغيرها ولا أنه خطب بغير عرفة يوم الجمعة في السفر فعلم أن الصواب ماعليه سلف الأمة وجماهيرها من الائمة الاربعة وغيرهم من أن المسافر لايصلى جمعة ولا غيرها وجمهورهم أيضا على أنه لايصلى عيدا وهو قول مالك وأبى حنيفة وأحمد في احدى الروايتين وهذا هو الصواب أيضا فان النبي صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه لم يكونوا يصلون العيد الا في المقام لافي السفر ولم يكن يصلى صلاة العيد الا في مكان واحد مع الامام يخرج بهم الى الصحراء فيصلى هناك فيصلى المسلمون كلهم خلفه صلاة العيد كما يصلون الجمعة ولم يكن أحد من المسلمين يصلى صلاة عيد في مسجد قبيلة ولا بيته كما لم يكونوا يصلون جمعة في مساجد القبائل ولا كان أحد منهم بمكة يوم النحر يصلى صلاة عيد على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه بل عيدهم بمنى بعد افاضتهم من المشعر الحرام ورمى جمرة العقبة لهم كصلاة العيد لسائر أهل الامصار يرمون ثم ينحرون والنبى صلى الله عليه وسلم لما أفاض من منى نزل بالمحصب فاختلف أصحابه هل التحصيب سنة لاختلافهم في قصده هل قصد النزول به أو نزل به لأنه كان أسمح لخروجه وهذا مما يبين أن المقاصد كانت معتبرة عندهم في المتابعة ولما اعتمر عمرة القضية وكانت مكة مع المشركين لم تفتح بعد وكان المشركون قد قالوا يقدم عليكم قوم قد وهنتهم حمى يثرب وقعد المشركون خلف قعيقعان وهو جبل المروة ينظرون اليهم فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه أن يرملوا ثلاثة أشواط من الطواف ليرى المشركين جلدهم وقوتهم وروى أنه دعا لمن فعل ذلك ولم يرملوا بين الركنين لأن المشركين لم يكونوا يرونهم من ذلك الجانب فكان المقصود بالرمل اذ ذاك من جنس المقصود بالجهاد فظن بعض المتقدمين أنه ليس من النسك لانه فعل لقصد وزال لكن ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لما حجوا رملوا من الحجر الاسود الى الحجر الاسود فكملوا الرمل بين الركنين وهذا قدر زائد على مافعلوه في عمرة القضية وفعل ذلك في حجة الوداع مع الأمن العام فانه لم يحج معه الا مؤمن فدل ذلك على أن الرمل صار من سنة الحج فانه فعل أولا لمقصود الجهاد ثم شرع نسكا كما روى في سعى هاجر وفي رمى الجمار

Digitized by Google

وفي ذبح الكبش انه فعل أولا لمقصود ثم شرعه الله نسكا وعبادة لكن هذا يكون اذا شرع الله ذلك وأمر به وليس لأحد أن يشرع مالم يشرعه الله كما لو قال قائل أنا أستحب الطواف بالصخرة سبعا كما يطاف بالكعبة أو استحب ان اتخذ من مقام موسى وعيسى مصلى كما أمر الله أن يتخذ من مقام ابراهيم مصلى ونحو ذلك لم يكن له ذلك لأن الله تعالى يختص مايختصه من الاعيان والافعال بأحكام تخصه يمتنع معها قياس غيره عليه اما لمعنى يختص به لايوجد بغيره على قول أكثر أهل العلم واما لمحض تخصيص المشيئة على قول بعضهم كما خص الكعبة بأن يحج اليها ويطاف بها وكما خص عرفات بالوقوف بها وكما خص منى برمى الجمار بها وكما خص الاشهر الحرم بتحريمها وكما خص شهر رمضان بصيامه وقيامه الى أمثال ذلك وابراهيم ومحمد كل منهما خليل الله فانه قد ثبت في الصحاح من غير وجه عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله اتخذنى خليلا كما اتخذ ابراهيم خليلا وقد ثبت في الصحيح أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم ياخير البرية قال ذاك ابراهيم فابراهيم أفضل الخلق بعد محمد صلى الله عليه وسلم وقوله ذاك ابراهيم تواضع منه فانه قد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم في الصحيح انه قال أنا سيد ولد آدم ولا فخر آدم فمن دونه تحت لوائى يوم القيامة ولا فخر الى غير ذلك من النصوص المبينة انه أفضل الخلق وأكرمهم على ربه وابراهيم هو الامام الذى قال الله فيه (انى جاعلك للناس اماما) وهو الأمة أى القدوة الذى قال الله فيه (ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا) وهو الذى بوأه الله مكان البيت وأمره أن يؤذن في الناس بالحج اليه وقد حرم الله الحرم على لسانه واسمعيل نبأه معه وهو الذبيح الذى بذل نفسه لله وصبر على المحنة كما بينا ذلك بالدلائل الكثيرة في غير هذا الموضع وأمه هاجر هي التى أطاعت الله ورسوله ابراهيم في مقامها مع ابنها في ذلك الوادى الذى لم يكن به أنيس كما قال الخليل (ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم) وكان لابراهيم ولآل ابراهيم من محبة الله وعبادته والايمان به وطاعته مالم يكن لغيرهم فخصهم الله بان جعل لبيته الذى بنوه له خصائص لاتوجد لغيره وجعل ماجعله من أفعالهم قدوة للناس وعبادة يتبعونهم فيها ولا ريب أن الله شرع لابراهيم السعى ورمى الجمار والوقوف بعرفات بعد ما كان من أمر هاجر واسمعيل وقصة الذبح وغير ذلك ما كان كما شرع لمحمد الرمل في الطواف حيث أمره أن ينادى في الناس بحج البيت والحج مبناه على الذل والخضوع لله ولهذا خص باسم النسك والنسك في اللغة

Digitized by Google

العبادة قال الجوهرى النسك العبادة والناسك العابد وقد نسك وتنسك أى تعبد ونسك بالضم أى صار ناسكا ثم خص الحج باسم النسك لانه أدخل في العبادة والذل لله من غيره ولهذا كان فيه من الافعال مالا يقصد فيه الا مجرد الذل لله والعبادة له كالسعى ورمى الجمار قال النبى صلى الله عليه وسلم انما جعل رمى الجمار والسعى بين الصفا والمروة لاقامة ذكر الله رواه الترمذى وخص بذلك الذبح الفداء أيضا دون مطلق الذبح لان اراقة الدم لله أبلغ في الخضوع والعبادة له ولهذا كان من كان قبلنا لا يأكلون القربان بل تأتى نار من السماء فتأكله ولهذا قال تعالى (الذين قالوا لن نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم فلم قتلتموهم ان كنتم صادقين) وكذلك كانوا اذا غنموا غنيمة جمعوها ثم جاءت النار فأكلتها ليكون قتالهم محضا لله لا للمغنم ويكون ذبحهم عبادة محضة لله لا لأجل أكلهم وأمة محمد صلى الله عليه وسلم وسع الله عليهم لكمال يقينهم واخلاصهم وانهم يقاتلون لله ولو أكلوا المغنم ويذبحون لله ولو أكلوا القربان ولهذا كان عباد الشيطان والاصنام يذبحون لها الذبائح أيضا فالذبح للمعبود غاية الذل والخضوع له ولهذا لم يجز الذبح لغير الله ولا أن يسمى غير الله على الذبائح وحرم سبحانه ماذبح على النصب وهو ماذبح لغير الله وما سمى عليه غير اسم الله وان قصد به اللحم لا القربان ولعن النبى صلى الله عليه وسلم من ذبح لغير الله ونهى عن ذبائح الجن وكانوا يذبحون للجن بل حرم الله مالم يذكر اسم الله عليه مطلقا كما دل على ذلك الكتاب والسنة في غير موضع وقد قال تعالى (فصل لربك وانحر) أى انحر لربك كما قال الخليل (ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين) وقد قال هو واسمعيل اذ يرفعان القواعد من البيت (ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا) فالمناسك هنا مشاعر الحج كلها كما قال تعالى (ولكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه) وقال (ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على مارزقهم من بهيمة الانعام) وقال (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم) كما قال تعالى (ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب) فالمقصود تقوى القلوب لله وهو عبادتها له وحده دون ماسواه بغاية العبودية له والعبودية فيها غاية المحبة وغاية الذل والاخلاص وهذه مسألة ابراهيم الخليل وهذا كله مما يبين أن عبادة القلوب هى الأصل كما قال النبى صلى الله عليه وسلم ان في الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت

Digitized by Google

فسد الجسد كله الا وهى القلب والنية والقصد هى عمل القلب فلا بد في المتابعة للرسول صلى الله عليه وسلم من اعتبار النية والقصد ومن هذا الباب ان النبي صلى الله عليه وسلم لما احتجم وأمر بالحجامة وقال في الحديث الصحيح شفاء أمتى في شرطة محجم أو شربة عسل أوكية بنار وما أحب أن اكتوى كان معلوما ان المقصود بالحجامة اخراج الدم الزائد الذى يضر البدن فهذا هو المقصود وخص الحجامة لان البلاد الحارة يخرج الدم فيها الى سطح البدن فيخرج بالحجامة فلهذا كانت الحجامة في الحجاز ونحوه من البلاد الحارة يحصل بها مقصود استفراغ الدم وأما البلاد الباردة فالدم يغور فيها الى العروق فيحتاجون الى قطع العروق بالفصاد وهذا أمر معروف بالحس والتجربة فانه في زمان البرد تسخن الاجواف وتبرد الظواهر لان شبيه الشئ منجذب اليه فاذا برد الهواء برد مايلاقيه من الابدان والارض فيهرب الحر الذى فيها من البرد المضاد له الى الاجواف فيسخن باطن الارض وأجواف الحيوان ويأوى الحيوان في الاكنان الدافية ولقوة الحرارة في باطن الانسان يأكل في الشتاء وفي البلاد الباردة أكثر مما يأكل في الصيف وفي البلاد الحارة لأن الحرارة تطبخ الطعام وتصرفه ويكون الماء النابع في الشتاء سخنا لسخونة جوف الارض والدم سخن فيكون في جوف العروق لافي سطح الجلد فلو احتجم لم ينفعه ذلك بل قد يضره وفي الصيف والبلاد الحارة تسخن الظواهر فتكون البواطن باردة فلا ينهضم الطعام فيها كما ينهضم في الشتاء ويكون الماء النابع بارداً لبرودة باطن الارض وتظهر الحيوانات الى البر أى لسخونة الهواء فهؤلاء قدلاينفعهم الفصاد بل قد يضرهم والحجامة أنفع لهم وقوله شفاء أمتى اشارة الى من كان حينئذ من أمته وهم كانوا بالحجاز كما قال مابين المشرق والمغرب قبلة لان هذا كان قبلةأمته حينئذ لانهم كانوا بالمدينةوما حولها وهذا كما أنه في آخر الأمر بعد ان فرض الحج سنة تسع أو سنة عشر وقت ثلاث مواقيت للمدينة ولنجد وللشام ولما فتح اليمن وقت لهم يلملم ثم وقت ذات عرق لأهل العراق وهذا كما أنه فرض صدقة الفطر صاعا من تمر أو صاعا من شعير عن كل صغير وكبير ذكراً وأنثى من المسلمين وكان هذا هو الفرض على أهل المدينة لان الشعير والتمر كان قوتهم ولهذا كان جماهير العلماء على أنهمن اقتات الأرز والذرة ونحو ذلك يخرج من قوته وهو احدى الروايتين عن أحمد وهل يجزيه أن يخرج التمر والشعير اذا لم يكن يقتاته فيه قولان للعلماء وكان الصحابة يرمون بالقوس العربية الطويلة التى تشبه

Digitized by Google

قوس الندف وفتح الله لهـم بها البلاد وقد رويت آثار في كراهة الرمي بالقوس الفارسية عن بعض السلف لكونها كانت شعار الكفار فاما بعد ان اعتادها المسلمون وكثرت فيهم وهي في أنفسها أنفع في الجهاد من تلك القوس فلا تكره في أظهر قول العلماء أو قول أكثرهم لأن الله تعالى قال (وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل) والقوة في هـذا أبلغ بلا ريب والصحابة لم تكن هذه عندهم فعدلوا عنها الى تلك بل لم يكن لهم غيرها فينظر في قصدهم بالرمي أكان لحاجة اليها اذ ليس لهـم غيرها أم كان لمعنى فيها ومن كره الرمي بها كرهه لمعنى لازم كما يكره الكفر وما يستلزم الكفر أم كرهها لكونها كانت من شعائر الكفار فكره التشبه بهم وهذا كما أن الكفار من اليهود والنصارى اذا لبسوا ثوب الغيار من أصفر وأزرق نهى عن لباسه لما فيه من التشبه بهم وان كان لو خلا عن ذلك لم يكره وفي بلاد لايلبس هذه الملابس عندهم الا الكفار فنهي عن لبسها والذين اعتادوا ذلك من المسلمين لامفسدة عندهم في لبسها ولهذا كره أحمد وغيره لباس السواد لما كان فى لباسه تشبه بمن يظلم أو يعين على الظلم وكره بيعه لمن يستعين بلبسه على الظلم فاما اذا لم يكن فيه مفسدة لم ينه عنه وكره من كره من الصحابة والتابعين بيع الارض الخراجية لان المشترى لها اذا أدى الخراج عنها أشبه أهل الذمـة في التزام الجزية فان الخراج جزية الارض وان لم يؤدها ظلم الناس باسقاط حقهـم من الارض لم يكرهوا بيعها لكونها وقفا فان الوقف انمـا منع من بيعه لأن ذلك يبطل الوقف ولهذا لايباع ولا يوهب ولا يورث والارض الخراجيـة تنتقل الى الوارث باتفاق العلماء ويجوز هبتها والمتهب والمشترى يقوم فيها مقام البائع فيؤدى ما كان عليه من الخراج وليس في بيعها مضرة لمستحقى الخراج كما في بيع الوقف وقد غلط كثير من الفقهاء فظنوا أنهم كرهوا بيعها لكونها وقفا واشتبه عليهم الأمر لأنهم رأوا الآثار مروية في كراهة بيعها وقد عرفوا أن عمر جعلها فيئا لم يقسمها قط وذلك في معنى الوقف فظنوا ان بيعها مكروه لهـذا المعنى ولم يتأملوا حق التأمل فيرون أن هذا البيع ليس هو من جنس البيع المنهى عنه في الوقف فان هذه يصرف مغلها الى مستحقها قبل البيع وبعده وعلى حد واحد ليست كالدار التى اذا بيعت تعطل نفعها عن أهل الوقف وصارت للمشترى وأعجب من ذلك أن طائفة من هؤلاء قالوا مكة انما كره بيع رباعها لكونها فتحت عنوة ولم تقسم أيضا وهـم قد قالوا مع جميع الناس ان الارض العنوة الـتي جعلت أرضا فيئا يجوز بيع

Digitized by Google

مساكنها والخراج انما جعل على المزارع لا على المساكن فلو كانت مكة قد جعلت أرضها للمسلمين وجعل عليها خراج لم يمتنع بيع مساكنها كذلك فكيف ومكة أقرها النبي صلى الله عليه وسلم بيد أهلها على ما كانت عليه مساكنها ومزارعها ولم يقسمها ولم يضرب عليها خراجا ولهذا قال من قال انها فتحت صلحا ولا ريب أنها فتحت عنوة كما يدل عليه الأحاديث الصحيحة المتواترة لكن النبي صلى الله عليه وسلم أطلق أهلها جميعهم فلم يقتل الا من قاتله ولم يسب لهم ذرية ولا غنم لهم مالا ولهذا سموا الطلقاء وأحمد وغيره من السلف انما عللوا ذلك بكونها فتحت عنوة مع كونها مشتركة بين المسلمين كما قال تعالى (والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد) وهذه أي العلة التي اختصت بها مكة دون سائر الامصار فان الله أوجب حجها على جميع الناس وشرع اعتمادها دائما فجعلها مشتركة بين جميع عباده كما قال (سواء العاكف فيه والباد) ولهذا كانت منى وغيرها من المشاعر من سبق الى مكان فهو أحق به حتى ينتقل عنه كالمساجد ومكة نفسها من سبق الى مكان فهو أحق به والانسان أحق بمساكنه مادام محتاجا اليها وما استغنى عنه من المنافع فعليه بذله بلا عوض لغيره من الحجيج وغيرهم ولهذا كانت الاقوال في اجارة دورها وبيع رباعها ثلاثة قيل لايجوز لاهذا ولا هذا وقيل يجوز الأمران والصحيح أنه يجوز بيع رباعها ولا يجوز اجارتها وعلى هذا تدل الآثار المنقولة في ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة رضى الله عنهم فان الصحابة كانوا يتبايعون دورها والدور تورث وتوهب واذا كانت تورث وتوهب جاز أن تباع بخلاف الوقف فانه لايباع ولا يورث ولا يوهب وكذلك أم الولد من لم يجوز بيعها لايجوز هبتها ولا أن تورث وأما اجارتها فقد كانت تدعى السوائب على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر من احتاج سكن ومن استغنى أسكن لأن المسلمين كلهم محتاجون الى المنافع فصارت كمنافع الاسواق والمساجد والطرقات التي يحتاج اليها المسلمون فمن سبق الى شئ منها فهو أحق به وما استغنى عنه أخذه غيره بلا عوض وكذلك المباحات التي يشترك فيها الناس ويكون المشترى لها استفاد بذلك انه أحق من غيره مادام محتاجا واذا باعها الانسان قطع اختصاصه بها وتوريثه اياها وغير ذلك من تصرفاته وهذا له أن لايبذله الا بعوض والنبي صلى الله عليه وسلم منّ على أهل مكة فان الاسير يجوز المنّ عليه للمصلحة وأعطاهم مع ذلك ذراريهم وأموالهم كما من على هوازن لما جاؤا مسلمين باحدى

Digitized by Google

الطائفتين السبي أو المال فاختاروا السبي فأعطاهم السبي وكان ذلك بعد القسمة فعوض عن نصيبه من لم يرض بأخذه منهم وكان قد قسم المال فلم يرده عليهم وقريش لم تحاربه كما حاربته هوازن وهو انما من على من لم يقاتله منهم كما قال من أغلق بابه فهو آمن ومن ألقى سلاحه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن فلما كف جمهورهم عن قتاله وعرف أنهم مسلمون أطلقهم ولم يغنم أموالهم ولا حريمهم ولم يضرب الرق لا عليهم ولا على أولادهم بل سماهم الطلقاء من قريش بخلاف ثقيف فانهم سموا العتقاء فانه أعتق أولادهم بعد الاسترقاق والقسمة وكان في هذا مادل على ان الامام يفعل بالاموال والرجال والعقار والمنقول ماهو أصلح فان النبي صلى الله عليه وسلم فتح خيبر فقسمها بين المسلمين وسبى بعض نسائها وأقر سائرهم مع ذراريهم حتى أجلوا بعد ذلك فلم يسترقهم ومكة فتحها عنوة ولم يقسمها لأجل المصلحة وقد تنازع العلماء في الارض اذا فتحت عنوة هل يجب قسمها كخيبر لانها مغنم أو تصير فيئا كما دلت عليه سورة الحشر وليست الارض من المغنم أو يخير الامام فيما بين هذا وهذا على ثلاثة أقوال وأكثر العلماء على التخيير وهو الصحيح وهو مذهب أبي حنيفة وأحمد في المشهور عنه وغيرهما ولو فتح الامام بلدا وغلب على ظنه ان أهله يسلمون ويجاهدون جاز أن يمن عليهم بأنفسهم وأموالهم وأولادهم كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم بأهل مكة فانهم أسلموا كلهم بلا خلاف بخلاف أهل خيبر فانه لم يسلم منهم أحد فأولئك قسم أرضهم لأنهم كانوا كفارا مصرين على الكفر وهؤلاء تركها لهم لأنهم كلهم صاروا مسلمين والمقصود بالجهاد أن تكون كلمة الله هي العليا وأن يكون الدين كله لله وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يعطي المؤلفة قلوبهم ليتألفهم على الاسلام فكيف لا يتألفهم بابقاء ديارهم وأموالهم وهم لما حضروا معه حنينا أعطاهم من غنائم حنين ماتألفهم به حتى عتب بعض الانصار كما في الصحيحين عن أنس بن مالك ان ناسا من الانصار قالوا يوم حنين حين أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ماأفاء فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطي رجالا من قريش المائة من الابل فقالوا يغفر الله لرسول الله يعطي قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم قال أنس فحدث ذلك النبي صلى الله عليه وسلم من قولهم فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الانصار فجمعهم في قبة من أدم فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ماحديث بلغني عنكم فقال له فقهاء الانصار اما ذوو رأينا يارسول الله فلم يقولوا شيأ وأما أناس منا حديثة أسنانهم

Digitized by Google

فقالوا يغفر الله لرسول الله يعطي قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فاني أعطي رجالا حديثي عهد بكفر أتألفهم أفلا ترضون أن يذهب الناس بالاموال وترجعون الى رحالكم برسول الله فو الله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به قالوا بلى يارسول الله قد رضينا قال فانكم ستجدون بعدي أثرة شديدة فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله فاني على الحوض قالوا سنصبر وفي رواية لو سلك الناس واديا أو شعبا وسلكت الانصار واديا أو شعبا لسلكت وادي الانصار وشعبهم الناس دثار والانصار شعار ولولا الهجرة لكنت أمرأ من الانصار وحدثهم حتى بكوا رضي الله تعالى عنهم فهذا كله بذل وعطاء لأجل اسلام الناس وهو المقصود بالجهاد ومن قال ان الامام يجب عليه قسمة العقار والمنقول مطلقا فقوله في غاية الضعف مخالف لكتاب الله وسنة رسوله المنقولة بالتواتر وليس معه حجة واحدة توجب ذلك فان قسمة النبي صلى الله عليه وسلم خيبر تدل على جواز مافعل لاتدل على وجوبه اذ الفعل لايدل بنفسه على الوجوب وهو لم يقسم مكة ولا شك انها فتحت عنوة وهذا يعلمه ضرورة من تدبر الأحاديث وكذلك المنقول من قال انه يجب قسمه كله بالتسوية بين الغانمين في كل غزاة فقوله ضعيف بل يجوز فيه التفضيل للمصلحة كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يفضل في كثير من المغازي والمؤلفة قلوبهم الذين أعطاهم النبي صلى الله عليه وسلم من غنائم خيبر فيما أعطاهم قولان أحدهما أنه من الخمس والثاني أنه من أصل الغنيمة وهذا أظهر فان الذي أعطاهم اياه هو شئ كثير لايحتمله الخمس ومن قال العطاء كان من خمس الخمس فلم يدر كيف وقع الأمر ولم يقل هذا أحد من المتقدمين هذا مع قوله ليس لي مما أفاء الله عليكم الا الخمس والخمس مردود عليكم وهذا لأن المؤلفة قلوبهم كانوا من العسكر ففضلهم في العطاء للمصلحة كما كان يفضلهم فيما يقسمه من الفيء للمصلحة وهذا دليل على أن الغنيمة للامام أن يقسمها باجتهاده كما يقسم الفيء باجتهاده اذا كان امام عدل قسمها بعلم وعدل ليس قسمتها بين الغانمين كقسمة الميراث بين الورثة وقسمة الصدقات في الاصناف الثمانية ولهذا قال في الصدقات ان الله لم يرض فيها بقسمة نبي ولا غيره ولكن جعلها ثمانية أصناف فان كنت من تلك الاصناف أعطيتك فعلم أن ماأفاء الله من الكفار بخلاف ذلك وقد قسم النبي صلى الله عليه وسلم من خيبر لأهل السفينة الذين قدموا مع جعفر ولم يقسم لأحد غاب عنها غيرهم وقسم من غنائم بدر لطلحة والزبير ولعثمان وكان قد أقام بالمدينة وهؤلاء الذين كانوا يريدون

القتال وكانوا مشغولين ببعض مصالح المسلمين الذين هم فيها في جهاد وأيضا أهل السفينة وطلحة والزبير وعثمان لم يكونوا كغيرهم والقتال لم يكن لأجل الغنيمة فليست الغنيمة كمباح اشترك فيه ناس مثل الاحتشاش والاحتطاب والاصطياد فان ذلك الفعل مقصوده هو اكتساب المال بخلاف الغنيمة بل من قاتل فيها لاجل المال لم يكن مجاهدا في سبيل الله ولهذا لم تبح الغنائم لمن قبلنا وأبيحت لنا معونة على مصلحة الدين فالغنائم أبيحت لمصلحة الدين وأهله فمن كان قد نفع المجاهدين بنفع استعانوا به على تمام جهادهم جعل منهم وان لم يحضر ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم المسلمون يد واحدة يسعى بذمتهم أدناهم ويرد متسريهم على قاعدهم فان المتسرى انما تسرى بقوة القاعد فالمعاونون للمجاهدين من المجاهدين وبسط هذه الأمور موضع آخر والمقصود هنا ذكر متابعة النبي صلى الله عليه وسلم وهو أنه يعتبر فيه متابعته في قصده فاذا قصد مكاناً للعبادة فيه كان قصده لتلك العبادة سنة وأما اذا صلى فيه اتفاقا من غير قصد لم يكن قصده للعبادة سنة ولهذا لم يكن جمهور الصحابة يقصدون مشابهته في ذلك وابن عمر رضى الله عنهما مع انه كان يحب مشابهته في ظاهر الفعل لم يكن يقصد الصلاة الا في الموضع الذى صلى فيه لا في كل موضع نزل به ولهذا رخص أحمد بن حنبل في ذلك اذا كان شيأ يسيرا كما فعله ابن عمر ونهى عنه رضى الله عنه اذا كثر لأنه يفضى الى المفسدة وهي اتخاذ آثار الانبياء مساجد وهي التي تسمى المشاهد وما أحدث في الاسلام من المساجد والمشاهد على القبور والآثار فهي من البدع المحدثة في الاسلام من فعل من لم يعرف شريعة الاسلام وما بعث الله به محمدا صلى الله عليه وسلم من كمال التوحيد واخلاص الدين لله وسد أبواب الشرك التي يفتحها الشيطان لبني آدم ولهذا يوجد من كان أبعد عن التوحيد واخلاص الدين لله ومعرفة دين الاسلام هم أكثر تعظيما لمواضع الشرك فالعارفون بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحديثه أولى بالتوحيد واخلاص الدين لله وأهل الجهل بذلك أقرب الى الشرك والبدع ولهذا يوجد ذلك في الرافضة أكثر مما يوجد في غيرهم لأنهم أجهل من غيرهم وأكثر شركا وبدعا ولهذا يعظمون المشاهد أعظم من غيرهم ويخربون المساجد أكثر من غيرهم فالمساجد لا يصلون فيها جمعة ولا جماعة ولا يصلون فيها ان صلوا الا أفذاذا وأما المشاهد فيعظمونها أكثر من المساجد حتى قد يرون ان زيارتها أولى من حج بيت الله الحرام ويسمونها الحج الاكبر وصنف ابن المفيد منهم كتابا سماه

Digitized by Google

مناسك حج المشاهد وذكر فيه من الاكاذيب والاقوال مالا يوجد في سائر الطوائف وان كان في غيرهم أيضا نوع من الشرك والكذب والبدع لكن هو فيهم أكثر وكلما كان الرجل اتبع لمحمد صلى الله عليه وسلم كان أعظم توحيداً لله واخلاصا له في الدين واذا بعد عن متابعته نقص من دينه بحسب ذلك فاذا كثر بعده عنه ظهر فيه من الشرك والبدع مالا يظهر فيمن هو أقرب منه الى اتباع الرسول والله انما أمر في كتابه وسنة رسوله بالعبادة في المساجد والعبادة فيها أى عمارتها قال تعالى (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه) ولم يقل مشاهد الله وقال تعالى (قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين) ولم يقل عند كل مشهد فان أهل المشاهد ليس فيهم اخلاص الدين لله بل فيهم نوع من الشرك وقال تعالى (ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقاموا الصلاة) الآيات وفي الترمذى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالايمان ثم قرأ هذه الآية فان المراد بعمارتها عمارتها بالعبادة فيها كالصلاة والاعتكاف يقال مدينة عامرة اذا كانت مسكونة ومدينة خراب اذا لم يكن فيها ساكن ومنه قوله تعالى (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لايستوون عند الله) وأما نفس بناء المساجد فيجوز أن يبنيها البر والفاجر والمسلم والكافر وذلك يسمى بناء كما قال النبي صلى الله عليه وسلم من بنى لله مسجدا بنى الله له بيتا في الجنة فبين الله تعالى ان المشركين ما كان لهم عمارة مساجد الله مع شهادتهم على أنفسهم بالكفر وبين انما يعمرها من آمن بالله واليوم الآخر واقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله وهذه صفة أهل التوحيد واخلاص الدين لله الذين لايخشون الا الله ولا يرجون سواه ولا يستعينون الا به ولا يدعون الا اياه وعمار المشاهد يخافون غير الله ويرجون غيره ويدعون غيره وهو سبحانه لم يقل انما يعمر مشاهد الله فان المشاهد ليست بيوت الله انما هى بيوت الشرك ولهذا ليس في القرآن آية فيها مدح المشاهد ولا عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك حديث وانما ذكره الله عمن كان قبلنا انهم بنوا مسجدا على قبر أهل الكهف وهؤلاء من الذين نهانا الله أن نتشبه بهم حيث قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح ان من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد الا فلا تتخذوا القبور مساجد فانى أنهاكم

Digitized by Google

عن ذلك ففي هذا الحديث ذم أهل المشاهد وكذلك سائر الأحاديث الصحيحة كما قال لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما فعلوا وقال أولئك اذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصورة أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة ثم أهل المشاهد كثير من مشاهدهم أو أكثرها كذب فان الشرك مقرون بالكذب في كتاب الله كثيرا قال تعالى (واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به) وقال النبي صلى الله عليه وسلم عدلت شهادة الزور الاشراك بالله قالها ثلاثا وذلك كالمشهد الذى بنى بالقاهرة على رأس الحسين وهو كذب باتفاق أهل العلم ورأس الحسين لم يحمل الى هناك أصلا وأصله في عسقلان وقد قيل أنه كان رأس راهب ورأس الحسين لم يكن بعسقلان وانما أحدث هذا في أواخر دولة الملاحدة بنى عبيد وكذلك مشهد على رضى الله عنه انما حدث في دولة بنى بويه وقال محمد بن عبد الله مطين الحفاظ وغيره انما هو قبر المغيرة بن شعبة رضى الله عنه وعلى رضى الله عنه انما دفن في قصر الامارة بالكوفة ودفن معاوية بقصر الامارة بدمشق ودفن عمرو بن العاص بقصر الامارة بمصر خوفا عليهم اذا دفنوا في المقابر البارزة أن ينبشهم الخوارج المارقون فان الخوارج كانوا تعاهدوا على قتل الثلاثة فقتل ابن ملجم عليا وجرح صاحبه معاوية وعمرو كان استخلف رجلا اسمه خارجة فقتله الخارجي وقال أردت عمرا وأراد الله خارجة فسارت مثلا فالمقصود ان هذا المشهد انما أحدث في دولة الملاحدة دولة بنى عبيد وكان فيهم من الجهل والضلال ومعاضدة الملاحدة وأهل البدع من المعتزلة والرافضة أمور كثيرة ولهذا كان في زمنهم قد تضعضع الاسلام تضعضعا كثيرا ودخلت النصارى الى الشام فان بنى عبيد ملاحدة منافقون ليس لهم غرض لا في الله ولا في رسوله ولا في الجهاد في سبيل الله بل في الكفر والشرك ومعاداة الاسلام بحسب الامكان وأتباعهم كلهم أهل بدع وضلال فاستولت النصارى في دولتهم على أكثر الشام ثم قيض الله من ملوك السنة مثل نور الدين وصلاح الدين واخوته وأتباعهم ففتحوا بلاد الاسلام وجاهدوا الكفار والمنافقين ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها لان المشركين يسجدون للشمس حينئذ والشيطان يقارنها وان كان المسلم المصلى لا يقصد السجود لها لكن سد الذريعة لئلا يتشبه بالمشركين في بعض الامور التى يختصون بها فيفضى الى ما هو شرك ولهذا نهى عن تحرى الصلاة في هذين الوقتين هذا لفظ ابن عمر الذى في

Digitized by Google

الصحيحين فقصد الصلاة فيها منهى عنه وأما اذا حدث سبب تشرع الصلاة لأجله مثل تحية المسجد وصلاة الكسوف وسجود التلاوة وركعتى الطواف واعادة الصلاة مع امام الحى ونحو ذلك فهذه فيها نزاع مشهور بين العلماء والاظهر جواز ذلك واستحبابه فانه خير لاشر فيه وهو يفوت اذا ترك وانما نهى عن قصد الصلاة وتحريها في ذلك الوقت لما فيه من مشابهته الكفار بقصد السجود ذلك الوقت فمالا سبب له قد قصد فعله في ذلك الوقت وان لم يقصد الوقت بخلاف ذى السبب فانه فعل لاجل السبب فلا تأثير فيه للوقت بحال ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة في المقبرة عموما فقال الارض كلها مسجد الا المقبرة والحمام رواه أهل السنن وقد روى مسندا ومرسلا وقد صحح الحفاظ انه مسند فان الحمام مأوى الشياطين والمقابر نهى عنها لما فيه من التشبه بالمتخذين القبور مساجد وان كان المصلى قد لايقصد الصلاة لاجل فضيلة تلك البقعة بل اتفق لكن فيه تشبه بمن يقصد ذلك فنهى عنه كما ينهى عن الصلاة المطلقة وقت الطلوع والغروب وان لم يقصد فضيلة ذلك الوقت لما فيه من التشبه بمن يقصد فضيلة ذلك الوقت وهم المشركون فنهيه عن الصلاة في هذا الزمان كنهيه عن الصلاة في ذلك المكان فلما كان الشرك الذى أضل أكثر بنى آدم أصله وأعظمه من عبادة البشر والتماثيل المصورة على صورهم فان المشركين قد اعتادوا آلهة يلدون ويولدون ويرثون ويورثون ويكونون من شئ من الأشياء فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن الهه الذى يعبده من أى شئ هو أمن كذا أم من كذا وممن ورث الدنيا ولمن يورثها فقال تعالى (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) وفي حديث أبىّ بن كعب لأنه ليس أحد يولد الا يموت ولا أحد يرث الايورث يقول كل من عبد من دون الله وقد ولد مثل المسيح والعزير وغيرهما من الصالحين وتماثيلهم ومثل الفراعنة المدعين الالهية فهذا مولود يموت وهو وان كان ورث من غيره ماهو فيه فاذا مات ورثه غيره والله سبحانه حى لايموت ولا يورث سبحانه وتعالى

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم (وبعد) فقد تم طبع تفسير سورة الاخلاص لشيخ الاسلام ابن تيمية وهو خير مؤلف في تفسير معانى هذه السورة وبيان مراد الله فيها من حقيقة التوحيد فجزى الله مؤلفه خيرا وكان ذلك في أوائل سنة ١٣٢٣ والحمد لله أولاً وآخراً

Digitized by Google

Digitized by Google

Digitized by Google

Library of

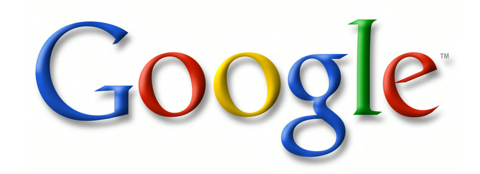


Princeton University.



Digitized by Google

32101 076411410



This is a digital copy of a book that was preserved for generations on library shelves before it was carefully scanned by Google as part of a project to make the world's books discoverable online.

It has survived long enough for the copyright to expire and the book to enter the public domain. A public domain book is one that was never subject to copyright or whose legal copyright term has expired. Whether a book is in the public domain may vary country to country. Public domain books are our gateways to the past, representing a wealth of history, culture and knowledge that's often difficult to discover.

Marks, notations and other marginalia present in the original volume will appear in this file - a reminder of this book's long journey from the publisher to a library and finally to you.

Usage guidelines

Google is proud to partner with libraries to digitize public domain materials and make them widely accessible. Public domain books belong to the public and we are merely their custodians. Nevertheless, this work is expensive, so in order to keep providing this resource, we have taken steps to prevent abuse by commercial parties, including placing technical restrictions on automated querying.

We also ask that you:

+ *Make non-commercial use of the files* We designed Google Book Search for use by individuals, and we request that you use these files for personal, non-commercial purposes.

+ *Refrain from automated querying* Do not send automated queries of any sort to Google's system: If you are conducting research on machine translation, optical character recognition or other areas where access to a large amount of text is helpful, please contact us. We encourage the use of public domain materials for these purposes and may be able to help.

+ *Maintain attribution* The Google "watermark" you see on each file is essential for informing people about this project and helping them find additional materials through Google Book Search. Please do not remove it.

+ *Keep it legal* Whatever your use, remember that you are responsible for ensuring that what you are doing is legal. Do not assume that just because we believe a book is in the public domain for users in the United States, that the work is also in the public domain for users in other countries. Whether a book is still in copyright varies from country to country, and we can't offer guidance on whether any specific use of any specific book is allowed. Please do not assume that a book's appearance in Google Book Search means it can be used in any manner anywhere in the world. Copyright infringement liability can be quite severe.

About Google Book Search

Google's mission is to organize the world's information and to make it universally accessible and useful. Google Book Search helps readers discover the world's books while helping authors and publishers reach new audiences. You can search through the full text of this book on the web at `http://books.google.com/`